محمد الغزالى

الاستعمار

أحقاد وأطماع

الطبعة الثالثة

مزيدة ومنقحة

يطلب من
دار الكتب الإسلامية لصاحبها توفيق عفيفي عامر
١١ شارع الجمهورية بعابدين - ت ٩١٦١٠٧

محمد الغزالى

الاستعمار

أحقاد وأطماع

الطبعة الثالثة

مزيدة ومنقحة

يطلب من
دار الكتب الإسلامية لصاحبها توفيق عفيفي عامر
١٤ شارع الجمهورية بعابدين ـ ت ٩١٦١٠٧

الطبعة الثالثة
١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م

مطبعة حسان
٢٤١ أ شارع الجيش - القاهرة ت ٨٣٣٥٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة الطبعة الثانية

على الرغم من تغير الظروف التى اكتنفت الطبعة الأولى من هذا الكتاب . فان ما به من حقائق علمية وتاريخية يجب الا يغيب عن بال المسـلم .

ان معرفتها ضـياء يكشف له طريق الجهـاد وثمـرته ، وطبائع الناقمين على الاسـلام وامتـه الكبرى وما بد من هـذه المعرفة على اختـلاف الأمكنة والأزمنة ، وتبدل الملابسات والأحوال فان المسلمين أوتوا – خلال هزائمهم الماضية – من طيبة بلغت حد الغفلة .

بل لقد لدغوا مرارا من جحر واحد .

واذا كان المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين – كما علمنا رسول الله ﷺ – فان من حق الايمان علينا الا نسأم من تبصرة المسلمين بمواطن الأفعى . وان نحذرهم بشدة من تكرار الاصابة .

خصوصا اذا كان عدوهم قد بدل زيه وتعلم كيف يخفى شراكه وكيف يحتال لبلوغ أربه ، وقد يسبق الى بعض الأذهان أن الاستعمار فى طريقه الى التلاشي .

وأن الانسانية فى طور من تاريخها النير لا يسمح له بالبقاء اكثر مما بقى ...

وأن ذيوله المتخلفة فى افريقيا وآسيا منتهية لا محالة ...

ونحن – المحامين عن الاسلام – كنا نود لو صحت هذه الأمنية ، وظفرت أرجاء العـالم بحظوظها من الحريات الكاملة وفى مقـدمتها الحرية الدينية .

بيد اننا نعلن آسفين أن هذه الأمنية لا تعدو آفاق الخيال .

وان ازمة الحرية فى العالم لا تزال خانقة ، وان حرية اعتنـاق الاسلام بالذات والاستظلال بعقائده وشرائعه حرية منكورة مطاردة فى اغلب القارات الخمس .

فكيف يستريح لهذا الوضع مؤمن ؟ أو كيف يهادن قوى الشر التى تسانده ؟

ان الأمة الاسلامية الكبيرة تضم أعدادا كثيفة من المستضعفين فى الأرض .

والعوائق دون تجمعها على دينها لا حصر لها .

وربما ظفرت شـعوب منها بحريات سياسية لهـا قيمتها . لكن ظفرها بحق الحياة وفق شعائرها وشرائعها بعيد بعيد .

وقد كان الاستعمار الصليبى الخصم العنيد اللدود للاسلام وكتابه ونبيه وأتباعه .

ثم ظهرت الشـيوعية اخيرا واسـتطاعت أن تكسر الصليبية فى وقعات شتى وان تنازعها السيادة على أرجاء العالم ، وموقف الشيوعية من الدين كله معروف !!

ونحن الذين والينا الله ورسله وثبتنا على معالم وحيه لن ننكمش قيد انملة عن مواجهة العدو الجديد .

والقلوب التى ابغضنا بها كفر الغرب هى هى التى نبغض بها كفر الشرق .

وما ظلت تخفـق بين اضلاعنا فهى حزب للرحمن وحرب على الشيطان « **ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمـله وهو فى الآخـرة من الخاسرين** » (١) .

وقد تستطيع تيارات الالحاد الأحمر أو الأصفر ان تهب على بلاد

---

(١) المائدة : ٥ .

الاسلام المنكوبة لكننا لن نأذن لها بقرار ولن نتوانى عن الاشتباك معها بكل ما لدينا من قوى حتى ترث الأجيال اللاحقة ما ورثناه عن الأجيال من تراث النبوة وتعاليم الحق ٠

ومن المحزن ان يكافح الاســـلام فى جبهتين متراميتين ضـــد الشيوعية الزاحفة او الصليبية الحقود ٠ وايا ما كان الأمر فليس امامنا الا ان نحيا بايماننا أو نموت دونه ٠

وسيرى القارىء ان هذا الكتاب قد تحدث عن احد العدوين فقط ووصف مآسيه ٠

والأمل فى الله يتيح لنا فرصة قريبة للحديث عن الآخــر (١) وهو حديث طويل ذو شجون ٠

محمد الغزالى

❋ ❋ ❋

(١) صدر كتاب « الاسلام فى وجه الزحف الاحمر » وفاء بهذا الوعـــد ، ولله الحمد والمنة ٠٠٠ !!

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الاولى

اطلع بعض الصحاب على نبذ من هذا الكتاب ، ثم قالوا : انك لا تزال عنيفا ...!! ففزعت لهـذا الاتهـام ، وتحيرت فى بواعثـه وشواهده !

ان العنف خليقة مرذولة ما احب ابدا ان اتصف بها .

ثم ان العنف أول مظاهر العـدوان ، ولست اضـيق بشىء فى حياتى كما أضيق بالمعتدين وسيرتهم .

لوددت ان الأرض تصفر منهم ، وتخلو من أشباحهم ، حتى تهدأ الحياة ، ويستريح الأحياء ...

لكن لماذا أتهم بالعنف ؟ أو انسب الى خلق ابغضه ؟

هل شدة السخط على الباطل ، ورفع العقيرة فى استنكاره يعدان عنفا ؟ ما اظن ذلك حقا !

ان المستقيم مع طبائع الأشياء أن تغضب اذا وجدت حقا ينهب أو حقيقة تغير .

والمستقيم مع طبائع الأشياء أن يشتد غضبك اذا وجدت الناهبين والمغيّرين يمضون فى طريق الحيـاة ، وكأنهم لم يصنعوا شـيئا يؤاخذون به !!

فاذا بلغ الجور على الحقوق ، وبلغ التخريف للحقائق مرحلة أنكى وأحرج فماذا تصنع ؟

مـاذا تصـنع ؟ اذا اسـتحر القتـل فى المدافعين عن أوطانهم وعقائدهم واعتبروا مجرمين ؟ واعتبرت قضاياهم ليست أهلاً للنظر فيها ؟ وذلك فى الوقت الذى يتبجح فيـه القتلة ، ويلبسون شـارات العدالة والرقى ؟؟

ماذا تصنع اذا تواطأت عشرات الدول على ابقاء السجين يرسف

فى قيوده ، والبرىء يتشحط فى دمه ، والأحرار المكافحين يتساقطون لفيفاً بعد لفيف ، واللاجئين المطرودين يهلكون فوجا بعد فوج ؟؟

ماذا تصنع اذا رايت الخناصر قد انعقدت على محو رسالة كبيرة كالاسلام ، واهانة امم شتى لأنها تعتنق الدين الحنيف ؟ والضن عليها بالحياة ما لم تنحرف عن شرائعه ، وتتنكر لتعاليمه !

فاذا بدا انها مستمسكة به ، او ان الأحوال فيها تؤذن ببقائه ، او بعض الوفاء له ، شنت عليها الحروب حامية وباردة !!

ماذا تصنع والحالة هذه ؟

اتبتسم ابتسامة الرضا ، او ابتسامة المداهنة ؟

ان اللطف ـ مع هذه المآسي ـ مرض ينبغى علاجه !!

والعنف فى التعبير اقل شىء يقدمه كاتب فى فؤاده غيرة على الحقائق التى يجب ان تعرف ، والحقوق التى يجب ان تصان ..!

ولا ادرى ، اهى طبيعتى ، أم طبيعة الاسلام فى نفسي ، تلك التى جعلتنى اهش مثلاً لتصريحات البطريرك المارونى « بطرس المعوشي » فى مأدبة الافطار التى اقامها لعلماء المسلمين بلبنان فى رمضان سنة ١٣٧٦ هـ .

لقد روت الصحف انه دعا الى توحيد الصفوف بين المسيحيين والمسلمين ، ونوه بتوثيق التعاون بين الفريقين ، وأعلن تمسكه بالميثاق الوطنى المعقود بين أهل لبنان سنة ١٩٤٣ م ، كما ندد بموقف رجال السياسة الذين يحاولون تفريق كلمة الشعب اللبنانى ، وسلخه من أسرة الدول العربية ...

هششت لهذه التصريحات مع علمى بأن الميثاق الوطنى المشار اليه جعل المسلمين فى لبنان اقل من النصف ، نتيجة احصاء زوره الفرنسيون لغرض ظاهر !!

نعم ومع علمى . بأن نسبة الموظفين المسلمين فى الأجهزة المدنية والعسكرية للدولة عشرة فى المائة ، او يزيدون قليلا ..!!

ومع هذه الغرائب المثيرة فقد رحبت بمبادىء التعاون المقترح ، ورجوت من وراءه سلاما كريما .

بيد ان ساسة الغرب والرجال الذين يغملون معهم او لهم ، لا يريدون هذا ، أو لا يكتفون به !

اى يرضي القتيل وليس يرضي القاتل !!

يجب أن تجر الدول العربية كلها الى جانب الاستعمار الغربى ، وأن تعمل فى حقله ، وأن تقاتل تحت لوائه .

وهذا الاستعمار هو طارد المسلمين من فلسطين وواهبها لليهود .

وهو طارد المسلمين من الجزائر وواهبها لفرنسا .

وهو كاسر جناح المسلمين فى لبنان والحبشة مع كثرتهم .

وهو الذى يرهب اليوم الشعوب المتحررة ، ويراودها عن عقائدها وشرفها ...

وهو الذى يبسط يده بالأذى حيناً ، وبالرشوة حيناً ، ليقيم حجابا بين حاضر المسلمين وماضيهم ، فاما عاشوا مرتدين اتباعاً لغيرهم ... واما .. فلا حق لهم فى الحياة !

أهذا وضع يقبله كريم ، أو يرتضيه انسان ما ؟

لقد بنينا فى الماضي حضارة من أزكى الحضارات التى عرفتها الدنيا ، أو ذاك ما نزعمه على الأقل فيما لدينا ، وفيما صنع أسلافنا !!

فمن العبث فتنتنا عن مواريثنا المقدسة بالقسر .

وقد حكى التاريخ قصة صراع طويل دام بيننا وبين غيرنا ، فهل من الحكمة استدامة هذا النزاع ، واستبقاء ثاراته ، تهيج الأحقاد ، وتقطع الأكباد ؟

ان السياسة التى رسمتها دول معروفة لاجتياح الاسلام ، وفض مجامعه ، واجتثاث جذوره من أرضه ، هذه السياسة لن تنتج الا البلاء لأصحابها ، فان الاسلام لن يموت ، وأهله الذين يبادون تارة ، ويطردون من مدنهم وقراهم تارة أخرى ، سوف ينسلون من يغضب لهم يوما ومن لا يتهم بعنف اذا ملأ يديه بالقصاص الرهيب !!

ان مستقبل العالم يكتنفه الشؤم من كل ناحية ، ما بقى الاستعمار ماضيا فى خطته الآثمة : يسترق العباد ، ويستغل البلاد .

وما بقى على الخصوص فى بلاد المسلمين ، يجتهد فى تمزيق أوصالهم ، وافساد ضمائرهم وأفكارهم ، وتقديم حقوقهم هدايا للطامعين والجائعين !!

والكاتب المسلم لا يلام اذا غدا أو راح وهو يهدر ويزمجر مشيرا بيديه كلتيهما الى وجوه البغاة يستنزل عليها اللعنة ، ومستنفراً قومه كى يرجعوها وعليها صفرة الخزى ، ان لم يرجعوها وعليها لطمات القمع والتاديب ...

أهذا هو العنف الذى يلاحظ على ؟ ليكن ، فما يستحب العنف فى موطن استحبابه فى هذه المواطن !

وقديماً قال سعد بن ناشب :

تفندنى فيما ترى من شراستى
وشدة نفسي أم عمرو . وما تدرى
فقلت لها : ان الكريم وان حلا
ليلفى على حال امر من الصبر
وفى اللين ضعف والصلابة شدة
ومن لم يهب يحمل على مركب وعر
وما بى على من لان لى من فظاظة
ولكننى فظ ابى على القسر
اقيم صفا ذا الميل حتى أرده
وأخطمه حتى يعود الى القدر

والفارق بين هذا الشاعر الفارس وبيننا انه كان يجدع بسيفه انوف المعتدين ، ثم يودعهم بنبرات عالية جافية قائلا : شاهت الوجوه ...

اما الكاتب المسلم فهو يدع الحزن يأكل قلبه لمنظر أطفال اللاجئين فى العراء ، ثم ...

« يبكى . ومن شر السلاح الأدمع !! »

كما قال أبو الطيب : والعبرات سلاح مفلول . لا يرد طاغية بل لعله يسر الطغاة ...

والكاتب المسلم يقف على أطلال القرى المخربة فى الجزائر بعد

ما عطلت مغانيها ، وييبس دم القتلى فى ارجائها ، وشرد الناجون من ابنائها ، بين مفجوع يطلب الثـار ، أو مهـزوم يطلب المـاوى ؛ يقف الكاتب المسلم على هـذه الانقاض ، ثم يرسـل بصره من وراء المسافات الشاسعة ، ليسائل الساكنين فى ناطحات السحاب : اهذا ما أوعزتم به ، ورضيتم عنه ؟ الهذا صنعتم السلاح ، واعطيتموه فرنسا !

ثم يسائل الفرنسيين انفسهم : اهذه الهمجية المجنونة هى وصايا حضارتكم فى معاملتنا نحن المسلمين ؟!

انكم اذا بطشـتم بطشـتم جبارين ، انكم تأكلون لحومنـــا فى ضراوة مفزعة .

اذا لم يكن لكم رب تتقونه ، أما تخشون أن تدور عليكم الليـالى فتدفعوا ثمن هذا كله ؟

لكن ما جدوى التساؤل المفجوع هنا ، والبكاء الضارع هناك ؟ ان محو هذه المآسي منوط بأعناقنا نحن .

أما زبانية الاستعمار فلا يســوغ لهم ملام ، ولا يوجه لهم كلام ، ما موضع العتاب بين قطيع اعزل ، وقافلة ذئاب ؟

* * *

ان الوف الأغرار ينظرون فى بلاهة الى الحروب الاستعمارية فى الشرق الاســلامى ! يحسبونها حروبا مجـــردة من النزعات الدينيـة المنحرفة .

ونحن الذين لمسنا ألوف الأدلة على ما فى سياسة الغرب تجاهنـا من أحقاد صليبية ، لا تحتاج الى مزيد من الأدلة يؤكد لدينـا هـــذا اليقين .

ولكننا فى هـــذا الكتاب نكشف النقاب عن جوانب يختلط فيهـا الضغن الأعمى بالجشع البالغ ، ونعرض هـــذه الصور أمام الأعـــين المتأملة ، ليعرف الواهمون انهـــم أمام حرب تريد طحن أرواحهـــم وأجسامهم ، تريد محق دنياهم وأخراهم ، تريد استلال الايمـان من قلوبهم ، واستلال العافية من أبدانهم ، تريد فرض جاهلية حديثة فى اغلب أقطار العالم . بعد أن يذوب الاسلام فى القارتين القديمتين ، وبعد أن تتحول شعوبه الى عبيد لعبيد الآلات ...

ان ثورات الضغينة الخسيسة على الاسلام ومعتنقيه تكمن وراء ختل السياسات الأجنبية كلها .

ومحاولات الساسة فى أوروبا وأمريكا علاج قضايانا المختلفة لا تنفصل ابدا عن محاولاتهم توهين امرنا ، وخذلان جانبنا ، تمشياً مع مشاعر الحقد الدينى علينا ...

ولطالما تجاهلنا هذه المعانى ، ورغبنا فى نقل المعركة الى ميدان آخر ، ميدان لا تشم فيه رائحة التعصب لدين ، أو التعصب ضد دين .

بيد ان ساسة الغرب وزبانية الاستعمار ابوا الا اكراهنا على مواجهة هذه الحقيقة المرة ،فنحن نقف امامها بعد أن حبسنا هؤلاء فى نطاق من الصور الداكنة ، يحيط بنا عن يمين وشمال ، توحى كلها باننا امام غارات صليبية جديدة لم تغير هدفها القديم وان تغيرت احيانا الوسائل ...

وحاشا للنصرانية التى جاء بها عيسى ابن مريم ان تكون سر هذا الحيف ، ان الصليبية المعتدية ليست الا وثنية أخفت طبيعتها فى غلاف سماوى ، غير أن هذا الاخفاء ما لبث أن تلاشي ، ودل السلوك الشائن على أن المستعمرين ليس لهم دين الا دين السطو والفتنة .

وعيسي ، وسائر الأنبياء ابرياء من هذا الظلم المبين ...

ولما كان المعتدون علينا يسوغون مظالمهم بأنها رد على حركة الفتح الاسلامى الأول ، وأنهم يمنعون قيام تجمع عربى اسلامى لأن هذا التجمع خطر ، ومن ثم يجب سحقه قبل أن ينشأ ، لذلك عرضنا مرة أخرى لعنصر القوة فى ديننا وطبيعة السلام فى اسلامنا .

ومع أنه سبق لنا بسط القول فى هذا الموضوع فلن نسأم من تكرار الخوض فيه حتى نكشف شبهات المرجفين ونفضح طوايا الأفاكين ...

ان القتلة لا يستكثر عليهم الكذب ، واللصوص لا يستبعد منهم الافتراء والتزوير ، والمستعمرين لا يستغرب منهم ان يجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ...

والا فكيف يعتبر بقاء الفرنسيين فى الجزائر شيئا طبيعيا لا تسئل عنه ، فاذا جاء جيش من اهل الأرض او اهل السـماء واجلاهم عنهـا بالسيف - بداهة - عد ذلك تهجما كريها وفتحا ظالما .

وانطلق الكذبة فى كل فج يعيبون السيف ، وينكرون امتشاقه !

بأى وجه يكون فتح الرومان لمصر عملاً مشروعا ، وحرب العرب للرومان عملاً منكوراً ؟

ان تعاون اوروبا وامريكا على استغلالنا واستذلالنا ليس الا عودا على بدء ، والا استئنافاً للضيـم القديم .

وكل قوة تفل شوكتهم فهى مقدورة مشكورة .

فكيف اذا كانت قوة يمليها العدل المطلق ، وتسرى فيها النزاهة الرائعة ، لأنها قوة فى يد نبى وصديقين وشهداء وصالحين ؟

لقد اثبتنا هنا فصولاً أخرى عن الاسلام والسلام ، بعد ما سردنا احداثاً مخزية عن أفاعيـل الاستعمار ، ليعـــرف المذهولون اى عدل مضاعف كان لدينا ، وأى حيف مضاعف وقع علينا !.

وأخيرا عرضنا لحركة الارتداد الخلقى ، والثقافى والتشريعى ، التى احدثها الغزو الأجنبى فى بلادنا ، وأدارها وفق سياسة مرسومة رتيبة ...

وهى حركة تزعج كل مؤمن ، ومن حقنا ان نقلق على مستقبل الاسلام منها .

ان الاستعمار دائب على تخريج اجيال ملحدة ، وهو يغذى فى الحاح كل عمل يطرد الايمان من القلوب ، ويشيع المنكر والفحشاء فى المجتمع .

وغايته التى ظهرت من طول سعيه لها - مع شدة خبثه وتكتمه - هى القضاء على الاسلام فى أوطانه ، وردم المنابع التى تمد الناشـئة بتعاليمه ، وتبصرهم بحدوده وحقوقه ! ...

ومن القصور أن تحسب أهداف الاستعمار الصليبى منتهية عنـد بث الرذائل فى المجتمع . ونشر التفكك فى شتى نواحيـه ، كلا ، ان الأمر لديه أكبر من ذلك .

وسترى فى هذا الكتاب ان المقصود هدم رسالة محمد من الألف الى الياء ، وخلق نفر من الكتاب يؤلفون الرسائل ويدبجون المقالات ، وملء نفوسهم : ان محمداً هذا رجل دعى ، وان قرآنه كتاب بشرى ، وان التعلق به رجعية بالية ، وان الخروج عليه طريق التقدم والارتقاء .

وذلك كله طبعاً لحساب الصليبية الغازية ، وتحقيق لمآربها التى لم تتغير على ترامى الأعصار ...

* * *

ان للاستعمار احقاد دينية ، واطماع دنيوية ، وكل اهاب يغطى هذه السوءات فهو جملة أصباغ ودهون ، يجيدها ممثلو الروايات فى أدوارهم الضاحكة ، أو الباكية .

والدنيا لم تعرف اناساً أوتوا المقدرة على اخفاء احط النيات وراء المعسول من الكلمات كما عرفت ذلك فى تجار الاستعمار الحديث ...

اننا من سبعين سنة ـ نحارب تيارات الالحاد والتكفير التى تنحدر الينا من عواصم الغرب ، ونكفكف فى جهد مضن موجات الفسق والمعصية التى تلطم مجتمعنا باصرار ، والتى تتحسس السدود الضعيفة لتنساب منها كى تفسد علينا ديننا وتاريخنا .

والله يعلم فداحة مصابنا من هذه الناحية .

ان بلاد الاسلام فى أسوأ ما مر بها من ظروف ـ لم تكن طيعة لعوامل الشك والتحلل ، ولا لينة أمام فنون الاغراء الجنسي ، ولا مسعورة فى التعلق بتراب الدنيا ، ولا مصروفة عن مرضاة الله ، كما زين لها ذلك كله الاستعمار الحديث ... (ولا نشك ان مصابها من هذه الناحية هو الذى زين لبعض بنيها ان ينخدع بالالحاد الأحمر وان يعتنق كثيراً أو قليلا من مبادئه السفلى ...) ونحن المسلمين لن نتحول قيد انملة عن قواعدنا الدينية ، ولن نستسيغ بتة أى لون من الوان الالحاد مهما كانت صبغته ...

الا قبح الله الالحاد كله ، ووقى المسلمين غوائله أيا كان مصدره ، ورد العافية الى أمتنا فى معاشها ومعادها ، حتى تعود الى ميدان الحياة مرة اخرى رحمة للعالمين ، وبركة للناس اجمعين .

لكن تلك الأمنية الحلوة لن تتحقـــق ما بقى الاسـتعمار ينشب مخالبه فى مقاتلنا ، وينقض غزلنا كلما قويناه ، ويعمّى علينا الصراط كلما سلكناه .

وكتابنا هذا يتضمن جملة ضخمة من الأدلة والاحصاءات والأسانيد الوثيقة لم استطع تنسيقها على نحو فنى يرضي اذواقاً معينـة ، لأن الحياة التى احياها والطريقة التى اكافح بها لا يعيناني على هذا .

بيد أن ما جمعته فيه من حقائق وما أثرته من تعليقات ، يبلغ به ما أريد !

والذى اريده ،ان ترسخ فى الأذهان هذه الكلمة : ان الاستعمار احقاد واطماع ! وان مستقبلنا لن يضىء الا اذا نجا من حقد الحاقدين، وطمع الطامعين .

محمد الغزالى

***

(١) كيف يفتكسون بنـــا ...

● رسالات السماء والأجناس التى حملتها :

« الناس معادن » .

تكشف المعاملات عن سرائرهم وهـم آحاد ، وتكشف السياسات عن طبائعهم وهم جماعات .

ومعادن الأمم تتكون من جمـلة السـلوك العـام لأفرادها ، مع ما ينضم الى ذلك من خصائص الجنس ، ومستويات الثقافة ، وانصبة المنفعة التى تحرص كل امة على تحصيلها لنفسها ...

ومعـــدن الأمة له اثر كبير (فيما تحمل) من رســالات ، فان الأمة التى لها خصائص كريمة تصل برسالتها الى مدى بعيد ، والأمة التـافهة تكبـو بالرسالة التى تحملهــا ، وتقف بهـا دون الغـــاية المنشودة ... !

اذا التقت طبيعة امة ما مع طبيعة الرسالة التى تحملها كان هذا الالتقاء قوة كبيرة للأمة ورسالتها معاً . وتعزز ثمرات الخير الناشئة عنه اذا كانت هذه الرسالة قائمة على الايمان والحق ، محكمة السير فيما تقدم للعالم من بر ورحمة ! ولكن هل هذا الالتقاء ميسور دائما ؟

ان الأمم قد تكون لها طبائع شرسة الى جانب نواحيها الأخرى الطيبة ، فاذا اعتنقت دينا كله رفق وبنــاء ، فهــل تهب له نواحيها الطيبة ، وتطوى له طباعها الرديئة ، وتؤدى الامانة كاملة فى عرضه وفرضه ؟؟

ان التاريخ يسجل تفـاوتا كبيرا لمســير الرسـالات الكبرى فى الأرض ، وهو تفاوت يجب أن نلحظه حين ننصف الأديان من اتباعها ، وحين نذكر ما لها وما عليها ...

لقد اعتنق العرب الاسلام ، فاستطاع هذا الدين فى فجر دعوته أن يذيب العصبيات المفرقة التى اكلت هـــذا الجنس ، وبددت قواه ، واستطاع أن يحول تهوره الى شجاعة حكيمة ، واعتداده بنفسـه الى اعتداد بالحق ورسالته فحسب ..!

ومن ثم انتفع الاسلام بالعرب ، بعد أن هذب معدنهم ، وصـقل رونقـه ، فـاذا هو يطوف بالمعمـور من أرض الله فى سبعين سـنة ، ويؤسس حضارات عليها طابع الخلود ..!

ثم تحـركت العصـبيات المكبـوتة ، وتفلتت من قيـود الدين ، ورجعت الى العـــرب طبائعهم فى الجاهلية ، مع حرصهم فى الوقت نفسه على استبقاء الاهاب الاسلامى ، وظواهر التقى والايمان ٠

وتفرقوا شيعا فكل قبيلة فيها امير المؤمنين ومنبر !

فكانت عودة الحياة الى هذه العصبيات المفرقة سببا فى انهـدام الدولة الاسلامية الكبرى ، بل كانت سببا فى انسلاخ أقطار واقوام عن الاسلام جملة ٠

* * *

واعتنـق الترك الاسـلام ، وكانوا اول عهـــدهم أصحاب بداوة انقذت الاسلام من عصور الترف والانحلال التى وصلت اليها أمتـــه ودولته ٠

والجنس التركى كغيره من الأجناس له محامـده ومثالبه ، أنه شجاع تتغلغل عواطف الايمان فيه الى غور بعيـد ، بيـد أن حماسه مشوب بحمق ، وشجاعته تصحبها عنجهية ، وهـــذه الخواص التى عرف بها الترك أفادت الاسلام وأضرته ٠

افادته فى مقاتلة أوروبا بحميـة أربت على حميـة الصليبيين ، واصرار كسر شوكتهم عدة قرون ؛ وصليبيو اوروبا ـ كما رايت وسترى ـ وحوش ، والقســوة التى لقيهـم بهـا الترك كانت تأديبـاً قامعـاً لهمجيتهم ٠

الا أن سياسة الأتراك هذه وجلافتهم العسكرية أضرّتا بالاسلام فى داخل بلاده وخارجها : ففى الداخل ذلت الأجناس المحكومة لعنجهية الجنس الحاكم وسيرته الخالية من الحكمة والرشـاد ، وفى الخـارج تحولت الحرب الدينية الى قتال ثارات وفتك ، وغارات متبادلة ٠

والاسلام برىء من هذه الحروب ـ وان حمل الصليبيون وحدهم تبعاتها فى القديم والحديث ـ فان حروب الاسلام يجب أن تلزم الدائرة المضروبة حولها فى كتاب الله وسنة رسوله ٠ ومهمـا أسـف الأعداء ، وغلت مراجلهم بالحقد ، فان أسلوب الدعوة الاسلاميـة تأخير القتال بحيث لا يجىء الا بعد استنفاد الوسائل السلمية فى تأمين الحق ، ورد المظالم ، وتأديب الطغاة ...

على أن تعاليم الاسلام ـ التى ضمن الله لها السلامة ، وكتب لها

البقاء ـ ظلت أولاً وآخراً ترشد أتباع الاسلام الى الحق اذا انحرفوا عنه ، وترد شذوذ بعضهم اذا حمله الشطط على فعلة لا تليق .

وذاك على عكس الأحوال التى سادت الصليبية والأجناس التى اعتنقتها ، أو التى تناثرت منها الآن فى اوروبا وأمريكا .

ان الناظر الى اقطار الغرب قد تخدعه مظاهر المدنية التى بلغتها ، وقد يظن أن نظافة القوم فى وجوههم وملابسهم فيض من نظافة ضمائرهم وارواحهم ، وهذا خطأ شديد ، ووهم بعيد فالقوم من اقذر أهل الأرض ضمائر وأرواحاً ، وتقدمهم البادى فى مضمار العلوم والكشوف الكونية لم يخلعهم عن طبائعهم القبلية الأولى يوم كانت تسكن أوروبا قبائل الغال والقوط والوندال والسكسون وغيرهم ، بل لعل تطور وسائل الابادة والفتك زاد ضراوتهم ، ووسع المجال أمامهم لارواء ظمئهم الى العدوان والسطو ... وافعالهم فى المستعمرات التى سقطت بين براثنهم تدل دلالة حاسمة على صدق الحكم .

* * *

ان الأوروبيين يملكون الآن وسائل شتى لاخفاء فضائحهم ، وسيطرتهم على العالم تمكنهم من ارتكاب أبشع الجرائم فيه ، ثم تفرض الرقابة على الأنباء ، فلا يدرى الناس شيئاً عن الركن البائس من أركان الدنيا ، الذى بطش الأوروبيون به ، وأحلوا مقتهم بأهله !

هل درى الناس ان جزيرة « مدغشقر » ثارت بعد الحرب العالمية الثانية تطلب حريتها ، فكان جزاء الثائرين أن تحركت القوات الفرنسية ، وقتلت من الاهلين ثمانين ألف نفس ! يالله ثمانين ألف نفس فى ضربة واحدة !

لقد داخ الثوار اثر هذه المجزرة ، وساد الجزيرة الصريعة صمت مطبق ، وقضي على حركة التحرر فيها قضاء لا يعرف مداه ، وركنت بقية الأحياء الى الخنوع وهم فى فزع لمقتل الآباء والأبناء ، والأمهات والبنات بهذه الصورة المسرفة !!.

أما الفرنسيون فقد استأنفوا حمل مشعل الحضارة مع غيرهم من مؤسسي هيئة الأمم المتحدة ..!!

وماذا حدث فى « كينيا » ؟

ان قبائل « ماو ماو » ثارت هى الاخرى تطلب حريتها من الانجيز المحتلين ، واستطاعت هذه القبائل ان تكون جيشا على شىء من النظام والدربة ، له قائد برتبة « جنرال » ، ودارت رحى القتال بين البيض والسود ، بين قبائل الانجليز السكسون ، وقبائل الزنوج الافريقيين ، وكانت حرباً لا تكافؤ فيها ولا شرف .

كان قادة « الماو ماو » يشنقون اذا سقطوا فى الأسر ، وضرب المستعمرون الأقوياء نطاقاً حول وسط افريقيا . ثم شرعوا فى صمت يبيدون اهل البلاد ، ويقتلونهم بالعشرات والمئات ، حتى تم لهم الاجهاز على الثورة والثائرين .

* * *

قال الاستاذ محمد شاهين حمزة : « لقد اعلن ناطق عسكرى منذ أيام انه لم يبق من هؤلاء سوى ٢٥٠ أو ٣٠٠ على الأكثر .. » اذن لقد ابيدت عشرات الألوف من هؤلاء المطالبين بحقوق الانسان ، ولعل كثيرين لا يعلمون انه ـ حين كانت هذه الجماعات تباد بمختلف الوسائل ـ اذاع الانجليز فجاة ان وحوشا مفترسة تاكل البشر قد ظهرت بكثرة ، وانتشرت فى مواطن اولئك المجاهدين ، وانها تفتك بهم فتكاً ذريعاً ، وأن حملات عسكرية وجهت لابادة هذه الوحوش ، ونجحت فى ابادتها ؛ واغلب الظن انه لم تكن ثمة وحوش ، لكنهم ارادوا تغطية جرائمهم البشعة امام العالم ، فاختلقوا هذه المزاعم ليلصقوا بالوحوش البريئة تهمة ابادة البشر ، على حد المثل « رمتنى بدائها وانسلت ».. « لقد كانوا وحدهم الوحوش التى أكلت البشر » .

ان فى دماء الأوروبيين وحشية بدأ الستار ينكشف عنها ، وظاهر من سياسة دولهم ان القساوة الموغلة ديدنهم فى حروبهم التى تشتعل بينهم ، أو التى يشعلونها ضد غيرهم ، وهنا نسأل :

اليس الأوربيون نصارى ، يؤمنون بعيسى ابن مريم الانسان الرفيق الرقيق الوديع ، النبى الذى قال :

« والسلام علىّ يومَ وُلِدتُ ويوم أموتُ ويوم أبعثُ حياً » (١) .

---

(١) مريم : ٣٣ .

الم تؤثر هذه الرسالة شيئاً فى اتباعها ؟

الم تكفكف قليلاً او كثيراً من سوء طباعهم ، وشراسة اخلاقهم ؟

***

● **صليبية الغرب ليست ديانة عيسى ابن مريم :**

والجـــواب ان الصليبية التى تهيمن على الأوروبيين والأمريكيين شيء آخر غير النصرانية التى لها كتاب منزل ، ومنهج سماوى مقدس ؛ انها شيء آخر يغاير تعـاليم عيسي أتم المغـايرة ، وان كان جمهـــور القساوسة والرهبان يمارى فى هذه الحقيقة ، لأنه ينسج صلته بعيسي ابن مريم على نحو يوائم الصليبية المحدثة الجامحة ، ثم ينسب هـذا الدين المحرف الى عيسي نفسه .

وعيسي بريء من هذا الشرود ، ان الله يقول فى رسالة عيسي :

« وآتيناه الانجيـلَ فيـه هدًى ونور ومصدِّقاً لما بين يديه من التوراة وهدًى ومَوْعِظَةً للمتّقين » (١) .

وتلك كلها معـان فقـدت ، أو ضـاع منبعهـا فى الصليبية التى تعرف الآن ، والتى يزعم انها هى النصرانية الأولى .

* * *

ولهذه الصليبية الغالبة خواص لابد من كشفها .

منها ، انهـا انسجمت مع طبـائع الغربيين الذين اعتنقوها ، وأرخت العنان لما يكمن فيها من قسوة .

ومنها ، انها نقضت الاحساس بمعنى الجريمة وعقباها السيئة . ذلك أن نظرية الفداء ، وما تضمنته من أن عيسي قتل كفارة لخطـايا بنى آدم ، جعلت الألوف المؤلفـة من مصـــدقيها يســـتهينون بالآثام المحظورة ، ويقدمون عليها وهم آملون أن تحمل عنهم !! وهذه العقيدة كانت سبب مصائب كبيرة حلت بالأمم المهزومة ، ولعل شوقى كان يغمز أساسها ببيته اللاذع :

يا حامل الآلام عن هذا الورى — كثرت عليه باسمك الآلام !!

---

(١) المائدة : ٤٦ .

ثم ان هذه الصليبية كانت تعانى ما يسميه علماء النفس « عقدة الضعة » ، فهى تعرف مجافاتها للعقل ، وبعدها الساحق عن منطقه السليم ، ومن ثم فهى تستعيض عن الهدوء فى عرض نفسها ، والجدال بالتى هى احسن ، تستعيض عن ذلك بغضب ظاهر على المذاهب والأديان الأخرى . كأن عاطفة الحنق على المخالفين سوف تضفى عليها حقا فاتها من ضعف الدليل ، وانهيار الحجة .

وهذا يفسر سياسة البطش الشنيع التى اتبعتها الصليبية ضد غيرها ، بل التى اتبعتها ضد الاسلام خاصة .. !!!

وقد التقت الطبيعتان . طبيعة الغربيين الهمجية ، وطبيعة الصليبية هذه ، التقتا فى الغزو الاستعمارى الأخير للأقطار الاسلامية ..

ونحن نختار احداث الجزائر مثلا ناطقا بصدق ما قلناه آنفا .

كتب الأديبان الفرنسيان « كوليت وفرانسيس جانسون » :

« لعل العبث بالدين الاسلامى كان هو المجال المفضل لدى القائد « روفيجو » فقد وقف هذا القائد الفاجر ، ونادى فى قومه : انه يلزمه اجمل مسجد فى المدينة ليجعل منه معبدا لاله المسيحيين . وطلب الى أعوانه اعداد ذلك فى اقصر وقت ممكن .

ثم اشار الى جامع القشاوة لأنه كما قال ـ أجمل مساجد الجزائر طرا ، وهو فى وسط المدينة ، وفى قلب الحى الأوروبى ، وبالفعل تحدد ظهر يوم ١٨ من ديسمبر سنة ١٨٣٢ لانجاز هذا العمل ، وتحقيق تلك الرغبة .

ففى الميعاد المحدد تقدمت احدى بطاريات الجيش ، واخذت أهبتها للعمل فى ميدان السودان . وخرجت من بينها فرقة من سلاح المهندسين ، فهاجمت ابواب المسجد بالبلط والفئوس ، واذا داخل المسجد (٤٠٠٠) أربعة آلاف مسلم ، اعتصموا جميعا خلف المتاريس ، فاندفعت نحوهم القوة العسكرية ، ودحرتهم بالسناكى ، فخروا بين صرعى وجرحى تحت أرجل الجنود ، واستمرت هذه العملية طوال الليل !

حتى اذا كان الصباح ، كانت القرارات قد صدرت ، وصار المسجد الجامع (كاتدرائية الجزائر) .

وما ان انتهى الجنود من هذا العمل ، حتى استداروا على اعقابهم صوب مسجد القصبة ، الغنى بذكريات الاسلام ، وأيامه المجيدة ؛ فدخله القواد والضباط والجنود ، وأقاموا فيه شعائرهم الدينية ، حتى اذا

انتهى القـــداس ، شرع القساوسة فى تمجيـد (« اله الجيـوش » ، و برتيل « نشيد الغفران ») .

ولعمر الحق اذا ساغ للجنود الجهلة ، ولضباطهم العابثين ، ان ياتوا مثل هذه الافعال النكراء ، فكيف يسوغ للقس « سوشيه » ، وهو الوكيل العام لاسقف الجزائر ، ان ينضم اليهم ، ويتزعم طابورهم ؟ لقد وضع هذا القس سنة ١٨٣٩ كتابا اسماه « رسائل مفيدة ومشوقة عن الجزائر » ، وجه فيه الكلام الى عاهل فرنسا فقال :

ان مسيو « فاليه » رجل عميق التفكير ! ذو ضمير حى ! لاتنقصه الحيلة ! انه يحكم الجزائر كأكثر الملوك اطلاقاً فى الحكم ! انه الرجل الذى ليس لهذه المستعمرة غنى عنه ! انه يرغب ان يستتب الدين المسيحى وان يحترمه الجميع ! انه يريد ان يضاعف من عدد الصلبان والكنائس! فى الجزائر ! ان مولاى يستطيع ان يفعل ما يشاء مع رجل مثل المسيو « فاليه » الذى اختار اجمل مسجد فى قسطنطينة ليجعل منه اجمل كنيسة فى المستعمرة ...

* * *

● **مآسي لا تنسي ...**

وقد وقع الاختيار على القس سوشيه هذا ليكون راعيا للكنيسة التى كانت مسجدا ، وما ان اطلقت يداه ليعد لنفسه منبرا للوعظ فيها ، حتى استولى على منبر الرسول محمد ، اتى به من مسجد يقال له « المقـــدس » ، وهو آية فى فن النقش العربى ، وعلى هـــذا المنبر النفيس ، وقف سكرتير الحاكم « بوجو » يقول :

« ان آخر أيام الاسلام قد دنت ، وفى خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر اله غير المسيح ، ونحن اذا امكننـا الشك فى ان هذه الأرض تملكها فرنسا ، فلا يمكننا ان نشـك على اى حال انهـا قد ضاعت من الاسلام الى الأبد ، اما العرب فلن يكونوا ملكا لفرنسـا الا اذا أصبحوا مسيحيين جميعاً » ...

ارايت هذه السخائم المشتعلة يمدها بالوقود تدين وحشي كاذب ؟ تلك هى الصليبية الفرنسية ، قادها ضـد مصر « لويس التاسع » من سبعة قرون ، ثم عاد يكسوه العار ؛ وقادها خلفاؤه ضد الجزائر من قرن وثلث ، ولا يزال القتال ناشبا بين المغيرين والمدافعين الى يوم النـاس

هذا ، وهو قتال مرير المذاق ، ندفع نحن المسلمين مغارمه الفادحة من آلاف المهج الهالكة ، وعشرات القرى المدمرة .

والعالم الغربى يشهد المأساة الشائنة وهو يضحك !! ان قتل المسلمين (جملة وتفصيلا) بعض ما تواضع عليه ساسة أوروبا وامريكا ، والخلاص من دينهم هو امنيتهم الحبيبة ، هو امنيتهم التى يسعون لتحقيقها جهرة واغتيالا ..!

لكن هل تحقق بعد ما يشتهون ؟ انه منذ أكثر من قرن وصوت الشيطان يتردد ــ كما سمعت ــ يزعم ان آخر أيام الاسلام دنت ، وبعد عشرين عاما لن يكون للجزائر اله غير المسيح !!

وقد مضت عشرون ، وعشرون ، وعشرون ... وأهل الجزائر يأبون الفتنة فى دينهم ، ويستعصون على الالحاد والفسوق الذى تبثه فرنسا بينهم .

أما فرنسا نفسها فقد أصبح ثلثها شيوعيا ... يرى أن الله خرافة وأن المسيح لقيط ..!

والثورة اليوم ناشبة فى انحاء الجزائر ، والثوار ــ بوسائلهم المحدودة ــ يستميتون فى مدافعة العدو البغيض ، والأنباء الكئيبة تصدع الصخر ، بيد ان العالم الصليبى يتلقاها بغير اكتراث ، الا قليلا من ذوى القلوب الكبيرة ؛ فقد نشرت مجلة الأديب هذه النبذة :

تهتم الصحف الفرنسية اهتماما كبيرا هذه الأيام بالحالة فى الجزائر ، بمناسبة عرض القضية الجزائرية على الأمم المتحدة ؛ وتخصص هذه الصحف صفحات كثيرة عن الوضع الجزائرى ، ولكن عددا قليلا من هذه الصحف يتحدث بتجرد ونزاهة ، ويعنى باظهار الأمور على حقيقتها ، ومن هذه الصحف القليلة الحرة صحيفة « فرانس أوبسرفاتور » ، المعروفة بتجردها ونزعتها الديمقراطية الصحيحة .

وقد نشرت « فرانس أوبسرفاتور » فى عددها ٣٤٨ رسالة من مراسلها فى « بيسكرا » بالجزائر ، يتحدث فيها عن حالة التوتر الفظيعة التى تعيش فيها المدن والقرى والناس . يقول المراسل :

أن « بيسكرا » نفسها تعيش فى حالة حصار حقيقى ، فهناك مصفحات ودبابات تحاصر الأحياء العربية فى المدينة ، ويقف الجنود السنغاليون فى حالة الاستعداد عند مدخل كل شارع من الشوارع الأوروبية ؛ وقد كف السكان المدنيون عن دخول دور السينما ، وانقطع

كل اتصال بين فئتى السكان « ثلاثة آلاف فرنسي ، وزهاء خمسين الف مسلم » .

والفرنسيون القليلون الأحرار الذين يحاولون ابقـاء العلاقة مع المسلمين مشبوهون ، وبريدهم مراقب ، وقد طرد بعضهم ، وسجن البعض الآخر !

وينتظر الأوروبيون بقلق يوم السبت الذى اعتاد اعضـاء جبهـة التحرير الجزائرية ان يغتالوا فيه بعض الاشخاص الذين يظهرون عداء شديداً لمبـدأ استقلال الجزائر ، ويظـل المسلمون بدورهم فى حالة ارهاب وذعر من البونيس وأعضـاء الميليشيا ، الذين خلقهم البوليس لمجابهة الارهابيين (!!)

وقد حدث أن جبهـة التحـرير امرت باغتيـال رجـل يدعى « دوغليـون » ، فكانت النتيجـة أن البوليس الفرنسي قبض على احد عشر شخصا كانوا يسيرون صدفة فى الطريق ، وحصدهم بالمدافع الرشاشة ، وكان بينهم طالب فى الثالثة عشرة اسـمه « عادلى على ابن عباس » وجميع الباقين متزوجون ولهم أولاد .

وفى ضاحية تبعد كيلو متراً واحداً عن بيسـكرا ، واسـمها « العالية » ، قتل فى الوقت نفسه مسلمان ؛ وفى « فيلياشا » التى تبعد كيلو مترين ، قتل خمسة مسلمين .

وهكذا يبلغ عدد المسلمين الذين قتلوا ثأراً للفرنسي « دوغليون » ثمانية عشر ، والواقع ان جبهة التحرير امرت بقتل هـذا الشخص ، لأنه كان قد تسبب قبل ايام فى قتل مسلمين وجدا مذبوحين ؛ بعد ان اطلقت السلطات سراحهما .

وهكذا تخلق السلطات الفرنسـية فى مدن الجـزائر ـ وليست « بيسكرا » الا حالة واحدة ـ جواً من الارهاب الفظيع ، لا يمكن ان يخلق الا النقمة والحقد والكراهية ؛ ما يجعل حل القضية الجزائرية امرا مستحيلا .

ولا شك فى أن افظـع ما فى هـذا الارهـاب خلق معسكرات الاعتقال ، ولاسيما فى « سان لو » و « لودى » ، وكان « موليه » قد وعد باطلاق سراح المعتقلين ، ولكن عـدد هؤلاء تضـاعف منـذ تولى « موليه » السلطة .

وفى هذه المعسكرات يحشر من يسمون « بالمعتقلين السياسيين »: الذين يوضعون تحت المراقبـة الشـديدة فى انتظار محاكمتهم ، وقـد

يستمر هذا الانتظار عدة اسابيع ، بل عدة اشهر ، يعانى المعتقل فى اثنائها الواناً من التعذيب ، اصبحت معروفة .

ويضم معتقل « لودى » ١٢٠ معتقلاً كلهم من الشيوعيين ، او من نقابة العمال ، ومعظم هؤلاء من الاوروبيين ، ولذلك كانت احـــوال المعيشة والمعاملة فى هذا المعتقل افضل منها فى المعتقلات الأخرى .

واما معتقل « سان لو » فيضم ١٣٠٠ سجين من المسلمين يعاملون اسوأ المعاملة ، ويموت بعضهم من الجوع والتعذيب .

وهناك عدة معتقلات اخرى تضم زهاء ثلاثة آلاف معتقل ؛ وتبقى بعد ذلك المعتقلات التى يديرها العسكريون ادارة مريعة تخالف كل ما هو بشرى .

تلك هى لوحة موجزة عن نظام الارهاب والاعتقال السياسي فى الجزائر التى يأخذون عليها ان تطالب باستقلالها وحريتها !!

****

والذى سطرته الصحيفة الفرنسية من فعال قومها ، لو كان منكراً حدث فى يوم من الأيام ثم انتهى لهـان الخطب ؛ ولكن الداهية التى تضرم الاحزان فى الافئدة ان هذه المآسي تتجدد على الأيام ، وتتغلغل فى الماضي الأسود أكثر من مائة وثلاثين سنة ...

اتون يصلى المسلمون نـاره ، فما تنقلهم الأحداث الرهيبـة من ميدان الا ليدخلوا ميداناً آخر ، وما تندمل جراحهم من مأساة الا نكأت الجراح مأساة اشـــد ، وذلك كله ليكون المسـيح اله الجزائر – كمـا صرحوا – ، ولتكون أرض الجزائر الغنية طعمة للصليبيين الجيـاع الى السحت ، المنهومين الذين لا يشبعون أبداً من سرقة ولا غصب ..!

وقد تحركت بعض الضمائر فى فرنسا نفسها ، واستنكرت هـذه الوحشية فى معاملة المسلمين ، غير أن الذين استحيوا من فعال قومهم قليل لا يؤبه لهم ؛ وكأن هـــذا النفر الغاضب على مصائب الانسـانية المجردة فى القطر البائس انمـا اراد أن يوضح للعالم كله : أن الكثرة الساحقة فى فرنسا ترتضي هذا العذاب وتؤيده ، وترفض التراجع عنه ، او التخفيف منه . وتلك على كل حال هى الحقيقة .

فان النواب الفرنسيين منحوا ثقتهم الحكومة أكثر من ثلاثين مرة كلما طرحت مصيرها بين النواب ، وهى الحكومة التى تباشر هـــذه الأيام حرب الابادة ضد مسلمى الجزائر ، ولا يمر يوم الا وفى طياته

جانب من الأحزان التى تطحن القلوب فى البلد المجاهد المحروب .

ان فرنسا ، بل الاستعمار كله هو الذى يحمل هذا الجرم ، ويطالب ـ وان طال المدى ـ بالقصاص ..!

***

ومن بين الكتاب الفرنسيين الذين حاربوا مظالم قومهم ، وناشدوهم الانصاف ، وتجفيف المآقى الدامية الأديبان « كوليت » و « فرانسيس جانسون » وقد نشرا اخيراً مؤلفاً عن الجزائر الثائرة ترجم الى العربية ، وقدم له وزير الارشاد بمقدمة جاء فيها :

« سيرى القارىء فى هذا الكتاب كل ما اورده المؤلفان من صور يقشعر لها البدن ، بل يجمد لها القلب ؛ وسيسائل نفسه ـ كما ساءلت نفسي ـ عند كل فقرة : هل هذا حدث فعلاً ، او انه خيال قصاص ؟ لكنه سيرى أن التساؤل لا محل له ، فالمؤلفان لا يرويان عن شاهد ؛ انما ينقلان عن تقارير لجان رسمية ، أو من رسائل مكتوبة بخط قادة ، او ضباط ، يتركون انفسهم فيها على سجيتها وهم يتحدثون الى زوجاتهم ، أو ذوى قرباهم ، فقد جاء مثلاً فى أحد التقارير الرسمية :

« بناء على تعليمات الجنرال « روفيجو » ، خرجت قوة من الجنود فى مدينة الجزائر ليلة السادس من ابريل سنة ١٨٣٢ ، وانقضت قبيل الفجر على افراد القبيلة ، وهم نيام تحت خيامهم ، فبغتتهم جميعا دون أن يستطيع احد منهم الدفاع عن نفسه ، وقد لقى الجميع حتفهم بغير ما تمييز بين رجل وطفل ، ولا بين رجل وامرأة ، وعاد الفرنسيون من هذه الحملة وهم يرفعون رؤوس القتلى على أسنة رماحهم ! »

ويقول الجنرال شان جارنييه : « ان رجاله وجدوا التسلية فى جزر رقاب المواطنين من رجال القبائل الثائرة فى بلدتى « الحواش » و « بورقيقة » ، كما جاء فى تقرير رسمى :

« ان كل الماشية قد بيعت الى قنصل الدانمرك ، وعرض باقى الغنيمة فى سوق باب عزون ، حيث كانت ترى أساور النساء محيطة بمعاصم مقطوعة ، واقراط تتدلى من قطع لحم آدمى ، وقد بيعت هذه المصوغات ، ووزع ثمنها على ذابحى اصحابها ؛ وفى ليل ذلك اليوم ، أصدر البوليس أوامره الى أهل المدينة باضاءة الأنوار فى حوانيتهم علامة على الابتهاج ! »

وقالت إحدى اللجان الرسمية الفرنسية فى تقرير لها – كتبته بعد تحقيق اجرته اثر بعض هذه المذابح :

« لقد ذبحنا اناسا كانوا يحملون تراخيص بالتنقل ، كما قضينا على مناطق باكملها ، اتضح فيما بعد أن ضحايانا فيها كانوا أبرياء ، وقد حاكمنا رجالا عرفوا بالقداسة بين عشيرتهم ، وآخرين لا تنقصهم صفة الاحترام بين ذويهم لمجرد انهم مثلوا امامنا سائلين الرحمة بزملائهم ، وقد وجدنا قضاة ليحكموا عليهم ، ورجالا متمدينين ليشنقوهم ! »

وقد كتب الماريشال « سانت أرنو » الى اهله يقول : « ان بلاد « بنى منصر » بديعة ، وهى من أجمل ما رأيت فى افريقية ، فقراها متقاربة ، واهلها متحابون ، لقد احرقنا فيها كل شىء ، ودمرنا كل شىء » .

وقال لزوجته فى خطاب : « انى افكر فيكم جميعا ، واكتب اليك يحيط بى افق من النيران والدخان . لقد تركتنى عند قبيلة البراز ، فاحرقتهم جميعا ، ونشرت حولهم الخراب ، وأنا الآن عند السنجاد ، اعيد فيهم الشىء نفسه ، ولكن على نطاق أوسع » .

وكتب « مونتياك » فى كتاب له أسماه « رسائل جندى » يقول : « لقد كانت مذبحة شنيعة حقا ، كانت المساكن والخيام فى الميادين والشوارع والأفنية التى انتشرت عليها الجثث فى كل مكان ، وقد احصينا فى جو هادىء – بعد الاستيلاء على المدينة – عدد القتلى من النساء والأطفال ، فالفيناهم ألفين وثلاثمائة ، أما عدد الجرحى فلا يكاد يذكر لسبب يسير هو أننا لم نكن نترك جرحاهم على قيد الحياة ... » .

* * *

وقد اشمأز من هذه الجرائم التى تذهل قساة القلوب ، بعض الذين شاركوا فيها ، أو أمروا بتنفيذها ، مثل القائد الفرنسي « الكونت هيريسيون » الذى قال : « فظائع لا مثيل لها ! أوامر بالشنق تصدر من نفوس كالصخر ، يقوم بتنفيذها جلادون قلوبهم كالحجر ، بالرمى بالرصاص احيانا ، وباستعمال السيف احيانا اخرى ، فى اناس مساكين ، جل ذنبهم أنهم لا يستطيعون إرشادنا الى ما نطلب إليهم أن يرشدونا اليه ! »

ومع ذلك فان الميـــل الى ســـفك الدم ، وحب التعذيب بازهاق الأرواح جملة ، وبابادة القرى والقبائل ، وحرق البيـــوت ، والتمثيـــل بالموتى ، والاجهاز على الجرحى ، والفتك بالأطفال والشيوخ والنساء ، والاتجار بأعضائهم المبتورة ، وحليهم ومتاعهم الغارق فى دمائهم ، هذا الميل لم يجد فى كل الذى رويت لك طرفا منه ما يشبعه او يرضيه ، فأخذ الفرنسيون يفتنون فى ابتكار وسائل اخرى لم يسمع بها تاريخ البشرية ، على كثرة ما امتلأ به هذا التاريخ من الفظائع والآثام .

فهدتهم اخيرا غـــريزة التدمير والتخريب الناميـــة عندهم الى طريق أسموها هم انفسهم « بجهنم » ، وخلاصة هذه الطريقة : ان يسد الجنود الفرنسيون باب الكهف او المغارة التى يلجأ اليها الجزائريون بنسائهم واطفالهم ومواشيهم فرارا بانفسهم من الموت والقتل والحرق ، ثم يشعلوا فى بابها نارا كبيرة ، فيختنق القطيع « البشرى » داخل المغارة مع قطعان الماشية التى صاحبته الى جوفها ، فاذا انبلج نور الصبح ، ذهب الفرنسيون ليروا آثار ما قدمت أيديهم .

واليك وصف ما راوه فى احد تلك الكهوف :

« فى مدخل الكهف انتشرت هياكل ثيران وحمير وخراف حدت بها الغريزة صوب مخرج الكهف بحثا عن الهواء الذى عدم فى الداخل، وتكدست بين هذه الحيوانات ومن تحتها جثث رجال ونساء واطفال ، وشوهد رجل ميت وهو جاث على ركبتيه وقد امسكت يداه قرن ثور محترق ، وبجواره امراة تحتضن بين ذراعيها طفلها الميت ، مما يدل على ان هذا الرجل قد اختنق وهو يدافع عن امراته وطفله ـ اللذين اختنقا أيضا ـ شر هجوم الثور عليهما » .

***

● **طبيعة قديمة جديدة :**

هذه الفظائع المروعة ليست فى الصليبية الغربية سجية محدثة ، ان القوم يسيرون على النهج الذى سلكه آباؤهم قبل ، فالخلف والسلف على اختلاف الأمكنة والأزمنة ، تحـــركهم طبائع واحـــدة ، وتحدوهم غاية واحدة ، انهم مع خصومهم لا يعرفون للحرب أدبا ، ولا للرحمة موقعا ، الا اذا تكافأت القوى ، وخافوا الثأر العاجل ، فهم عندئذ يعاملون العدو بحذر ، اتقاء للعقوبة لا اتقاء لله . اما اذا أمنوا الثأر فلن يتوقع منهم الا بطش الجبابرة .

هل استخدام القنبلة الذرية يومىء الى ذرة من الحس الانسانى ؟ ان هذه القنبلة تنزل فتحصد الرجال المقاتلين ، ثم تحصد معهم الشيوخ الفانين ، وجماهير النسوة والأطفال ممن لا شأن لهم بالحرب ابداً ، ثم قطعان البقر والغنم والدواجن التى تعيش لسوء حظها مع هؤلاء ! بل الحشرات ، وانواع النبات ! انها تجتث الحياة اجتثاثاً حيث تنزل بلعنتها الماحقة ؛ ومع هذا الشر المستطير فان الأمريكان انزلوه بمدينتين يابانيتين فى الحرب الأخيرة ، وهو نوع من القتال لم يعرفه أدب الحروب من بدء الخليقة ، ولولا ان سر الذرة فضح ، وعرفه الآخرون لاستخدم هذا التفوق فى قهر الناس ، وتغليب الهوى :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » (١) .

ان وحشية الفرنسيين فى الجزائر لا تزيد ولا تنقص عن وحشية غيرهم فى شتى المستعمرات ، وخاصة التى يعيش فيها مسلمون . وهى تجديد للأساليب القديمة التى اتبعها آباؤهم فى ابادة الأجناس ، واستئصال المخالفين فى الرأى والعقيدة .

وهل محى الاسلام من الأندلس محوا الا بالحديد والنار ، وما سجله التاريخ لمحاكم التفتيش من همجية وعار ؟ ، هل حدث مثل ذلك او بعضه أو شىء منه فى تاريخنا ؟

كتب الاستاذ « محمد شاهين حمزة » يروى مخازى هذه العهود :

« لم تقم فى الشرق محاكم مثل محاكم التفتيش التى قامت فى بلاد عديدة من اوروبا، مثل اسبانيا وايطاليا وفرنسا والبرتغال والمانيا لسجن حرية العقيدة والفكر ، ومطاردة الضمائر والعقول ... » واصدار أحكام تتقزز النفس منها اليوم وهى تقرأها فى صحائف التاريخ السود ، احكام منها الاماتة حرقاً فى احفال عامة يحضرها الملوك والوزراء والأعيان .. ، والدفن بالحياة بوضع المحكوم عليهم فى مقابر تترك فيها فتحات صغيرة ليراهم الناس منها وهم يدنون من الموت رويداً رويداً !. أجل ليتفرج الناس جميعا على أولئك الذين يحرقون ! وهؤلاء الذين يدفنون احياء ، ليعذبوا بهذا الاختناق ! .. والويل لمن ينظر ثم يتأفف أو يتحسر .

فاذا كان المحكوم بموته امرأة ، عريت وشدت الى مقبرة وتركت

---

(١) البقرة : ٢٥١ .

ليلا ونهارا حتى تموت أو تجن .. اما حين تكون فى طور التحقيق فانها تعرض لكلاليب ذات رؤوس حادة تسحب الثديين من الصدر !

كانت هذه المحاكم تستعين فى تحقيقاتها للحصول على اقرارات صحيحة او مزيفة بوسائل عديدة من التعذيب منها :

حرق الأقدام ...

واستعمال السياط فى الأقفية ...

والتعليق فى السقف مع ربط كل يد وكل قدم الى حبل يشدها فى اتجاه مضاد ...

وغرز المسامير فى الرؤوس ...

وسل اللسان من الحلق بآلات خاصة ...

وتهشيم الأسنان بأجهزة معينة ..

ووضع الأقـــدام فى أحذية حديدية عرضت للنـــار حتى حميت واحمرت ..

والكى فى أى مكان من الجسد ..

واستعمال أحذية ذات مسامير داخلية حادة ، يؤمر المتهم بلبسها والمشي فيها ، أو الجرى والسوط من خلفه ..

ومشانق تشنق المتهم نصف شنق ..

وتسديد حربتين الى عينى المتهم تنفذان من مؤخرة الجمجمة .

وتوجيه حربة الى القلب ، واخرى الى المعدة او الأمعاء .

وطىّ الجسم وكسر عظامه بآلات خاصة .

وحلق الراس وتعرضه لآله تسقط الماء البارد عليه نقطة نقطة .

وسلق مواضع من الجسم أو سلخها بوضع اسـفنج مغموس فى ماء مغلى عليها ..

وتعريض الرؤوس لمطارق ثقيلة ساحقة .

وصب الماء فى الجوف من الفم أثنـــاء الوخـــز بالدبابيس فى الأعصاب والشرايين ..

ووضع آلة على فم المعذب حتى لا يخـــرج أنينه ، فاذا أغمى عليه أنعش بشراب معين ، ثم اعيـــد الى التعذيب من جديد ، واذا مات فى أثنـــاء التعـــذيب ألقى به بين المعذبين الآخـــرين زيادة فى ايلامهم وارهابهم .

* * *

هل صنع انسان فى الشرق مثل هذا ؟ ان الانسان لم ينحط فى الشرق قط كما انحط فى الغرب فى ازمنة مختلفة ، وفى دورات متعددة من التاريخ ، ولا علا فيه جانبه الحيوانى المفترس ، كما علا فى ربوع الغرب ، واستبد وسيطر .

كانت سلطة ديوان التحقيق او محاكم التفتيش هذه مطلقة لا حد لبطشها ولا لجبروتها فى كل الأمم التى قامت فيها ، لكنها فى اسبانيا ـ حيث كثر المسلمون ـ كانت أفظع منها فى أى دولة أخرى . وبلغ المنفيون من ارضهم فى بلاد الأندلس مليونى يهودى ، وثلاثة ملايين مسلم ، اما عدد الذين أعدموا والذين سجنوا والذين عذبوا فى معتقلاتهم فقد كانوا مئات الألوف .

ويقرر التاريخ ان هؤلاء المسلمين كانوا نخبة أهل الأندلس مقاما ، وامهرهم صناعة ، واغزرهم علما ، وكان ما حدث لهم سببا من اسباب النكسة التى اصابت الحضارة فى ذلك العصر .

وما يعنى الصليبية من ازدهار الحضارة أو اندثارها ؟ ان الذى يعنيها أولا وآخرا هو التنفيس عن سخائمها الوبيلة ، تلك السخائم التى التقت فيها وحشية الجنس بوحشية المبدأ ، والتى جعلت قتل عداها اجابة لشهوات النفوس ، ووسيلة لمرضاة الله (!) فى وقت واحد ..

وقد تم افناء المسلمين فى « اسبانيا » بهذه الأساليب . واستراحت الصليبية بعد ما خلا لها الجو !! وهى اليوم تكرر المأساة القديمة فى « الجزائر » ، غاية ما هنالك أن محاكم التفتيش كانت السلطات الرسمية تعقدها وتقدم المتهمين اليها ، أما الفرنسيون الذين استوطنوا الجزائر ، فهم يكونون المحاكم من تلقاء أنفسهم ، ثم يصدرون أحكام الاعدام وينفذونها .

* * *

● دم لا ثمن له .. !

فقد حدث فى أعقاب الحرب العالمية الثانية أن ثار الجزائريون مطالبين بحريتهم .

ففى ٨ مايو سنة ١٩٤٥ تبودل اطلاق النيران فى « سطيف » بين المتظاهرين والبوليس الفرنسي اثناء العرض الذى اقيم احتفالا

بالانتصار في الحرب ، واعلنت الأحكام العرفية على اثر ذلك ، واقبل الطراد « ديجواى — تروان » ، فأمطر مدينـــة « خزاطة » وابلا من مدافعه الثقيلة ، وقامت قـــوات الجيش بالحمـــلات التأديبية ، وشنـق الوطنيين من غير محاكمة ، ورأت الحكومة ان تلزم الصمت بازاء هذه الحوادث ، وأوفدت لجنة للتحـــرى سرا عن أســـباب المظـــاهرات ومصدرها ، بيد انها لم تلبث ان اصدرت الاوامر بوقف اعمال اللجنـة بعد مضي ثمان وأربعين ساعة من بدئها .

ولعل مـ حدا بالحكومة الى اصدار اوامرها على هـــذا النحـــو ما أثبتته اللجنة : من أن جماعات المزارعين الفرنسيين كانوا يعطون انفسهم حق محاكمة الوطنيين واعدامهم رميا بالرصاص ، او ما جمعته اللجنة من معلومات عن عدد القتلى من الوطنيين والأجانب ، اذ قالت: « ان عدد القتلى الاوروبيين كان ١٠٢ قتيلا على وجه التحديد ، أما عدد القتلى من العرب فقد قيل اولا بصفة رســـمية : انه ١٥٠٠ ، غير ان الجيش أعلن انه يتراوح بين ٦٠٠٠ و ٨٠٠٠ .

ثم جاءت احصاءات أخرى تقول : ان العدد ٢٠٠٠٠ ، وبعد اعادة النظر فى حقائق الامـــور تبين أن العـــدد الصحيح هو ٤٠٠٠٠ قتيل ، وقد أيده القنصل الامريكى ببيانات من عنده .

أربعون الف قتيل يحصدون هكذا فى غداة واحدة ؟

أربعون الف مسلم يذهبون هكذا بين عشية وضحاها ؟

أربعون الف مسلم يتعاون الفرنسيون على قتلهم جملة واحـــدة فى محاكمات يعقدها السكارى والماجنون والسفلة أو بالافتراس السافر فى وضح النهار ؟

أربعون الفا ؟

أتظن وباء الطاعون لو انتشر بالبلد البائس أكان يغتال هذا العدد بهذه السرعة ؟

ويجىء القساوسة الكاثوليك — بعد هذه المجـــزرة — لينصّروا اليتامى من ابناء وبنات الشهداء ، وليقولوا لهـــم وهم يحشرونهم فى احد الملاجىء : « الله محبة » و « على الأرض الســـلام » و « للناس المسرة » !!!

على ركام من الأشـــلاء ذاهب فى الطول والعرض ، وبعد امواج من الرعب يخلفها هذا السيل المشئوم من الدماء ، يجاء بالاولاد التائهين

فى انحاء الارض ليسمعوا - وقلوبهم قد فطرها الثكل والفزع - ان الله محبة !!!

وتمضي الارساليات التبشيرية تؤدى رسالتها « النبيلة » على ذلك النحو النشيط فى اخراج المسلمين من دينهم ، او اخراجهم من ارض الجزائر ، مثل ما صنع الاسبان قديما بأهل الاندلس !

وفى وسط الضجيج العالى لحضارة الغرب تخترق آذان العالمين صيحات الهول ، يطلب فيها الجزائريون النجدة ؟ ان دماء اربعين الف مسلم لا تطفىء نار الوحش الظامىء الى المزيد ! ويتضاحك الانجليز والامريكان وهم يؤيدون حليفتهم العاهرة وهى تقول : انها ستمضي فى اداء رسالتها بالجزائر الى آخر الشوط ....!

ان ارتقاب العدل من هؤلاء عبث ، فمتى تجىء عدالة السماء ، متى نصر الله .. ؟

***

● مطلوب من المسلمين أن يكفروا بدينهم ..

ونحن نعرف ما يتركه ترادف المآسي والمخازى على النفوس من آثار غائرة ، ونعرف ان هناك من يضعف عن احتمال هذا العذاب الموصول ..

ان النفوس ليست سواء بازاء الضغط الذى يعرض لها ، وكم يختلف رد الفعل للعمل الواحد ! انك تلقى الكرة على الارض بقوة فترتد الى اعلا ، وكلما ازددت شدة فى رجم الارض بها كلما ذهبت فى الجو صعدا ، لكنك تلقى على الارض كوبا من زجاج فيتناثر الف قطعة ، وتنتهى كل قطعة الى مكانها لا تتحرك عنه ..

وجماهير المسلمين تحت ضغط الاستعمار الصليبى العاتى ، تفاوتت معادنهم فى تلقى اوصابه ، وتحمل فتنه ، منهم من زادته البأساء قوة يقين ، ونفخ الاضطهاد فى روحه كما تنفخ الرياح فى الجمر المتقد ، لا تزيده الا لهبا ، واولئك ولله الحمد كثير !

ومنهم من اصابه الوهن ، واخذت شكيمته تنكسر تحت اللطمات التى تناولته من كل جهة ..

ومنهم من رأى الابتعاد عن الاسلام ، ان ظاهرا وان باطنا ، يحسب ان هذا الابتعاد قد يخفف البلاء النازل به ..

وقد اخذ هذا الفريق يحس خطاه ، ويتعلم من سلسلة الاحـداث التى استهدفته ان ذلك ايضا ما يغنيه !

تقول : كيف ؟ وهدف الصليبية القضاء على الاسلام ، وهى قـد بلغته مع هؤلاء الذين نزلوا عند ارادتها ، وبدا فى منطقهم وسيرتهم انهم تركوا الإسلام فعلا ؟ والجواب : انك ذكرت المبدأ ، ونسيت طبيعة اصحابه ! فلأعد بك الى ما قاله ممثل فرنسا ـ وهو يخطب فى المسجد الذى حوله الى كنيسة ! ـ انه يقول : « اما العـــرب فلن يكونوا ملكا لفرنسا الا اذا اصبحوا مسيحيين جميعا .. » !

اى انهم اذا تنصروا فسوف يسمح لهم ان يبقوا فى الجزائر رقيقا لفرنسا ، ان العرب جنس وضيع ، والأجناس المتاخرة الرتبـــة ، او الملونة الجلدة لا ينبغى ان تتآخى ـ ولو تنصرت ـ مع الجنس الابيض ، مع الاوروبيين السادة .

ان الفرنسيين قد يتفضلون على العـــرب ـ اذا تنصروا ـ بان يجعلوهم ملكا لهم ، وهذا شرف عظيم ! وهذا هو منطق الصليبيـــة والصليبيين ! هو منطقها فى كل مكان .

الم يتنصر الزنوج فى أمريكا ومع ذلك يعيشون منبوذين مهانين؟ حسبهم من الشرف ان منحوا حق الحياة ليخدموا الجنس الاعلى !

ومن ثم فنحن نقــول للواهنين المرتدين على اعقابهم ، خـــاب فالكم ! ان ترككم للاسلام ـ فزعا من الأذى النازل بأهله ـ لن يفيـــدكم شيئا ، سيقتلكم الاستعمار المسـعور ان شاء ، او يستحييكم لتعيشوا له هو ، لا لأنفسكم ، ولا لذراريكم .. !!

اثبتوا على عقائدكم خير لكم ، وتأسوا بالسابقين الذين نـــزل فيهم :

« وكاين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لمـا اصـابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين » (١) .

***

ان كثيرا من الكتاب والمفكرين والساسة فكروا فى عزل الاسـلام عن ميادين الكفاح ضد الاستعمار ، يحسبون أن هذا العزل قد يخفف

---

(١) آل عمران : ١٤٦ .

من وطأة الاستعمار عليهم . وهذا افحش خطأ يمكن ان يرتكبه امرؤ ضد ربه ونفسه وبلاده .

انه مع انعدام جدواه ـ كما ابنا ـ انتصار جزئي للصليبية الغازية بل انتصار خطير ، فهو يبعد من ميدان المقاومة أهم سلاح فيها ، سلاح العقيدة الدافعة ، وهو يضيع من أيدينا في التراب انفس الحقائق التى عرفها العالم ـ وهى الايمان بالله واحد حى قيوم ـ وهو قبل ذلك وبعد ذلك يحرمنا من السناد الوحيد الذى نرقب نصره ، ونرمق عونه ، بعد ما تخلى عنا كل شيء ! وهو الله جل جلاله . .

ان القادة الذين يعزلون الاسلام عن ساحة الكفاح العام ، لن يكسبوا خيرا عاجلا ، وسيفقدون كل ربح يمكن أن تفد به الايام .

ولا يجوز ان نستطيل الزمان ، فقد ظلت أوروبا ـ فى العصور الوسطى ـ تلاحقنا بحملاتها مائتى سنة ، وهلك منا نحن المسلمين خلق كثير ، ولكن النبات آتى ثمراته الحلوة ، فارتدت الذئاب مدحورة، وسلم لنا ديننا ، وسلمت لنا بلادنا ، ولقى المعتدون العقاب الذى يستحقون .

وعلى هدى هذا الكلام ندرك الخطل فيما رواه مؤلف « الجزائر الثائرة » من آراء لبعض الثائرين ، لا تعطى صورة صحيحة عن الواقع :

« سألت بعض الجزائريين عن مدى علاقة الاسلام بالكفاح القائم، فاكدوا لى ان الحرب التى يشنها الشعب الجزائرى على الاستعمار الفرنسي انما تجد عاملها المحرك فيما فرضه الاستعمار من أوضاع اضطرتهم الى حمل السلاح . وأن ما بسطته فرنسا عليهم من سيطرة تامة ، وما أوقعته بهم من ظلم وضيم فى كل مكان ، حملهم على مواجهة ذلك العنف الذى كانوا ضحية له منذ سنين طوالا بعنف آخر ، وأن هدفهم الأوحد أن يتولوا زمام امورهم ، ويقرروا بانفسهم الأسس المنظمة لوجودهم الجماعى ، وأن سلوكهم سبيل الكفاح له غايات تحررية ، فهو عمل سياسي لا غير » .

يعنى بذلك أن الثورة ليست حربا دينية ، وأن التعصب للاسلام ليس هو الذى يشعلها .

يقول الكاتب الفرنسي :

« انى اميل الى الأخذ بهذا الرأى ، اذ ليس الكفاح القائم صراعا بين الاسلام والمسيحية — هذا على الرغم من أن المسيو « جورج بيدو » وزير خارجية فرنسا عمل المستحيل لخلق فتنة من هذا القبيل ، عندما اعلن على الملأ ، وفى مناسبات عدة : انه يجب الا يسمح للهلال بالتغلب على الصليب ، فهو ليس نضالا بين دين وآخر ، كما انه ليس حربا بين جنس وجنس آخر ، أو بين مدينة واخرى أو بين الشرق والغرب ، بل هو كفاح مجتمع مظلوم ، ضد المجتمع الذى أوقع عليه هــذا الظلم ، وثورة هذا المجتمع على السيطرة والاستغلال اللذين كان عرضة لهما حتى اليوم .

واذن فان الحرب فى شمالى افريقيا ليست حربا دينية ، ولا حربا بين جنسين ، وانما هى حركة تحرر بحت ، وسواء اكان الجـزائرى المسلم من العرب ، أم من البربر ، فانه لا يلجــا فى مجــاربتنا الى استخدام عامل الدين ، أو عامل الجنس ، ان مشكلاته تشبه مشكلاتنا، وعندما يطلب وسائل مادية تمكنه من الحيــاة ، ويعلن رغبتــه فى الحصول على أيسر الحريات الانسانية والحقوق العامة ، فانه يتعين علينا ساعتئذ أن نكف عن اثارة موضوع الاسلام ، فليس الاسلام ســببا لمــا وصلت اليه الأمور من سوء .

اننا نحن السبب فى ذلك ، وآن لنا أن نعترف بهذه الحقيقـــة ونقرها » .

***

ان النزعة الانسانية فى هذا الكلام ، وصبغة الانصاف التى تترقرق فى صفحته ، أمر يستحق الثناء من الأعماق ، ولنا عليه تعليق يسير .

إن اقتران الثورة الجزائرية بمشاعر اسلامية ليس شيئا يعــاب ! لماذا يعاب امرؤ أن آمن بالله ، وبرسول معين ؟ ولمــاذا تعاب جماعة من الناس اذا اقامت حياتها على تعاليم هذا الايمان ؟ ظهيرا تــرد العدوان اذا شنه البغاة ، وسياجا لحفظ الحقوق اذا امتدت اليها أيدى الطامعين ، فأى شىء يعاب فى هذا ؟

لمــاذا يطلب منا نحن المسلمين أن نتخلى عن صلتنا بالله ، وهى صلة لا عوج فيها ؟

ولماذا نكلف باعلان براءتنا من الاسلام عندما نثور لاسترجــاع

حقوقنا المغصوبة ؟ كان هذا الاسلام معرة ! او كاننا ما بقينا عليه فلن نستحق انصافا ؟؟

ان هذه النسبة الروحية من حقنا ونحن نملأ بها أفواهنا :

انا ابن دارة معروفا بها نسبى وهل بدارة — ياللناس — من عار ؟

حسب هذه النسبة شرفا انها تجعلنى طبيعيا فى معاملة الآخرين، فلست — بسبب اختلاف الدين — اكن حقدا وضيعا على الآخرين ، او اتمنى لهم الشر ، وأتربص بهم الدوائر ..

حسب هذه النسبة شرفا انها تعلمنى بل تلزمنى العدل مع من يخالفنى فى الدين ، وانها تحضنى — الى جانب العدالة الواجبة — ان اكون برا بمن يسالمنى من الكافرين .. مهما شط كفرهم ، وابتعد عما اراه الحق المبين !

لكن الصليبية ترى الفتك دينا ، وترى وجود غيرها الى جوارها منكرا ، وذلك ما اضراها علينا ، واغرى الوحوش من اتباعها باستئصالنا .

والكاتب يقول : ان هناك اتجاها فى الجزائر يرى أن الجزائريين انما احسوا الظلم بوصفهم مسلمين ، فقد كان الاسلام هدفا لهجمات المستعمر منذ اول أيام الغزو ، وذلك ما دعاهم الى اللجوء للاسلام عندما آرادوا أن يتحرروا ثم يقول :

« واقرارا للحق يتعين علينا أن نعترف — نحن الفرنسيين — بأن غزونا للجزائر اتخذ مظهر حرب صليبية » ..!

انه لكذلك ياسيدى ! فلماذا نلام اذا أصررنا على اسلامنا وتشبثنا بالبقاء عليه ؟ ولماذا يستغرب منا أن نستمد من هذا الدين روح الكفاح المر ، او يعاب علينا ان استدفانا بعقيدته فى العراء ، واستلهمناها الحماس والتحمل والمصابرة ، وانسنا بها عندما استوحشنا فى عالم سادته قوانين الغاب ، حتى اذا مات منا مجاهد أو ضرج فى دمائه شهيد قلنا له : اذهب الى جنة عرضها السموات والأرض ، ثم إلتفتنا الى من خلفه فى مكانه لنقول له : اد واجبك كما اداه اخوك ..

هذه طبيعة ديننا .

اما طبائعنا ، فان العالم ما رأى أرحم من حضارة العرب ، او ازكى منهم ضمائر فى معاملة الأجانب ..

* * *

واذا ذكرنا ما فى طباع الترك من جفوة عسكرية ، فلنذكر أن ضوابط الاسلام الدقيقة الزمتها حدود العدل ، ولم تترك مجالا للعصبية الدينية أن تستحمق أو تجور .

لقد كان الترك قادرين ان يستاصلوا اقباط مصر ، بل فكر احد سلاطينهم فى هذا ، بيد أن شيخ الاسلام رفض هذه السياسة رفضا باتا ، فوقف الحاكم المتحمس عند حدود الدين كما بينها له الفقيه المسلم لم يتجاوزها .

وكان الترك قادرين على استئصال نصارى الشام ، كما استؤصل مسلمو الأندلس ، فما فعلوا شيئا من ذلك ، بل دللوهم حتى زادت اموالهم وأولادهم الى حد بعيد ، فأين الثرى من الثريا ؟

ولك ان تسال : بل يجب ان تسال : ماذا فعلت الكنيسة بعد ما افتضحت فى ارجاء الدنيا سلسلة الآثام التى ارتكبها الفرنسيون فى الجزائر ؟

والاجابة الفذة : لا شيء ؟ ! احزابها السياسية هى التى تؤيد السفاحين فى الجمعية الوطنية الفرنسية ، وتناصر غشمهم وقحتهم .

ووعاظها يقولون احقر كلام يمكن أن يقوله انسان فى هذا المجال ، ان الكنيسة تنادى بالمحبة (!) قائلة :

« ان انكار الذات وحب الناس كفيلان بحل كل معضلة كفيلان برفع الظلم عن المظلوم وتوطيد اركان العدالة » هذا صحيح .

يقول المؤلفان الفرنسيان : ولكن كيف يحدث ذلك التبدل العجيب ؟ بالابتهال الى الرب ؟ وهل للجزائريين ان ينتظروا حلول نعمة الله تعالى فى نفوس المستعمرين ؟

انه كان اجدر بالكنيسة ـ بدل ان تنادى بمحبة المغلوبين على امرهم للذين غلبوهم ـ ان تقرر فساد النظم السياسية التى تبقى على الظلم الاقتصادى والاجتماعى .

كان الأجدر بالكنيسة ان تعلن ان ثورتهم الخارجة على القانون ـ كما يقال ـ انما تجد مسوغاتها ومشروعيتها فى بقاء تلك النظم الظالمة .

لكن الكنيسة لا ترى سبيلا لتحقيق ذلك الا بالمحبة وانكار الذات ، وعندما ارادت التقدم بحلول عملية ، طالبت فرنسا بأن تواجه مسئولياتها ـ بعد نوم طال امده ـ فتقدم للجزائر حاجتها من العون المالى لتستطيع رفع مستوى معيشة اهلها .

وكان الكنيسة بذلك تدعو الى سياسة استعمارية من طراز جديد، والمراد بتقديم هذا العون المـالى هو احداث انفعال نفسانى من شانه تهدئة الخواطر ، ضمانا لصيانة المصالح الفرنسية ، وهذه حيلة كانت تصادف نجاحا منذ سنوات مضت ، اما اليوم فهنـاك وعى قومى .. هناك جبهة التحرير الوطنى » .

* * *

(٢) تهـويد وتنصـير

● محو الاسلام من شرق افريقية ووسطها ..

كانت افريقية العربية اسرع من افريقية السوداء الى التخلص من ربقة الاستعمار والفكاك من قيوده .

بل لعلها فى الجملة كانت أعصى على الغـــزو الاجنبى ، واقسى مقاومة وابعد استسلاما .

وذلك ان الاسلام كان فيها انضر ثقافة واشيع معرفة وكانت ملامح الامة فيه من الوضوح والرسوخ بحيث صعب على الغـــزو الأجنبى ان يجد امتداده ، ويرسخ اقدامه ..

اما افريقية الوسطى من شـــواطىء المحيط الهنـــدى شرقا الى شواطىء المحيط الاطلسى غربا ، فان الاستعمار الصليبى ذرعها طولا وعرضا واستطاع أن يجـد المجـــال الرحب لنفث ســـمومه وادراك مراميه .. !

لكن من الظلم القبيح ان نرســل الكلام على عواهنــه فى هـــذا الصدد ..

فان الاسلام دين الكثرة الكبرى فى هذه الارجاء الفيحاء .

والمسلمون الذين نكبوا بالاســـتعمار كما نكبنا ما فرطـــوا فى عقائدهم ، ولا تراخوا فى الذود عن حمـــاهم ، ورد المغيرين بـــكل ما لديهم من طاقة ...

واليوم امكنهم الاستقلال بامورهم من الصومال وتنجانيقا وكينيا الى غينيا والسنغال والنيجر ...

اما الضعف المعنوى الذى غلب على افريقيـــة الوسطى فنحن العرب الذين نسئل عنه ونلام عليه !

ان الاسلام رشح الى هذه الاقطار من خلال الرحلات التجاريـــة او السياحات الصوفية دون ان توضع له خطط منظمة او تتعهده امداد متصلة .

ولولا ان الاسلام دين الحق الذى تتمسك به الفطر ، وتهوى اليه الأفئدة ، ما بقى له اتباع فى هذه الآفاق ، لقلة الدعاة والمعلمين .

ومع ذلك فان المسلمين فى وسط افريقية وشرقها وغربها معتزون بعقائدهم مدافعون عنها .

وربما كان تخلفهم الثقافى والعمرانى سببا فى كلب الاستعمار عليهم ، غير اننا واياهم نحمل اوزار ذلك التخلف المعيب .

ولندع التلاوم على ما مضي ، ونستقرىء ما وقع من احداث نتجت عنه ، كى نستطيع حماية الحاضر وضمان المستقبل ..

لقد اهتبل الاستعمار الفرصة فى تلك الأراضي البكر . وقرر ان يعمل بأقوى واسرع ما يستطيع ليقهر الاسلام فى هذه الأوطان ، وليعوق تقدمه وليدخل الجماهير من الوثنيين فى المسيحية . كى تخدم اغراضه واحقاده ..

وخطط الاستعمار تسير على هذا النحو :

١ - حرمان المسلمين من التعليم العام ، وعزلهم وراء سجن من القصور العقلى يمنعهم من المشاركة فى بناء المجتمع ، وترقية العمران.

ومع هذا الحرمان من فنون الثقافة الانسانية اعلن الغزاة حربا على التعليم الاسلامى الخاص الذى كانت تقدمه مكاتب تحفيظ القرآن.

وبذلك يشب المسلمون بعداء عن كتاب ربهم وعن لغة الوحى الأعلى ، ويفقدون صلاحية البقاء الأدبى من كل ناحية .

٢ - حرمان المسلمين من الوظائف الحكومية صغراها وكبراها ، وتجريدهم من أنواع السلطة التى تمنحهم فضل قوة وبروز ..

فمن اراد تولى منصبا من المسلمين فيجب ان يرتد عن دينه ، حتى يظفر به ..

وللسلطة اغراء يراود نفوسا كثيرة ، وقد باعت أسر شتى ايمانها حتى تبقى لها الامارة وحتى ينال ابناؤها بعض الوظائف .

٣ - لكن جمهرة المسلمين الكبرى بقيت مع هذين الأمرين حريصة على دينها مستمسكة به !

وهنا يلجأ الاستعمار ، والموالون له من الحكام الوطنيين الى القسوة فى فتنة الناس عن دينهم الحبيب ..

وكأن الاستعمار واعوانه فى سباق مع الزمن ، فهم يخشون ان يكون طول الأمد سببا فى انهيار سياستهم الصليبية ، ومن ثم يشتطون فى أخذ المسلمين بالعنف كى يردوهم عن دينهم .

ولا يبالون فى هذا بسفك الدم مهما غزر ، واتلاف النفوس مهما كثرت ٠

ويعتبر حكام الحبشة نموذجا للتنصير المسلح فى شرق افريقيـة ووسطها ٠

لقد تواطأ الاستعمار البرتغالى والفرنسى والانجليزى منـذ قرن على تدويخ الاسلام فى هذه المناطق ، وعلى تحويل اعتلال اهلـه الى موت مؤكد ٠

غير ان المريض غالب الفناء وقاوم ببسالة مشكورة ٠٠

لكن ما يجدى هذا كله مع حرب الابادة الناشبة هناك منـذ زمن طويل ؟

واليك نماذج من الصراع الضارى لحمل المسلمين على ترك دينهم، ننقله مما وقع فى الحبشة خلال ربع القرن الاخير (١) :

١ ـ مذبحة فى مقاطعة القراقى :

بعد عام من عودة هيلاسلاسى ، وبعد ان اتم مبدئيا استـئناف برامجه لتنصير المسلمين ، جاءت الهيئات التبشيرية السويدية بايعـاز منه الى مقاطعة القراقى الاسلامية الصرفة ، فهب الشيخ عبد السلام شيخ المقاطعة يطالب عن طريق القانون ، بمنع دخول المبشرين فى مقاطعتـه الاسلامية تجنبا لمـا قد يحدث من اضرار لأولئك المبشرين ، فاتهمتـه السلطات الحبشية بأنه يبيت نية العـدوان على المبشرين وزجت به فى السجن ٠

وعند ذلك احتشد مسلمو تلك المقاطعة امام بيت الحاكم الأمهرى ، وطلبوا منه الافراج عن الشيخ فأغلظ لهم فى القول وهددهم باطلاق النار عليهم اذا لم يعودوا الى منازلهم ، فرفضوا العودة وطلبوا منه التفاهم ٠

ودخل الى حصنه بعد أن أمر جنوده البرابرة أن يتصرفوا تصرفا حازما ، وعاد الجنود ينزلون على أولئك المسلمين العزل ضربا بكعوب البنادق ، تلاه اطلاق النار ، وما هى الا لحظات حتى تفرق المجتمعـون مخلفين وراءهم ٧٨ رجلا بين قتيل وجريح ٠

---

(١) نحن نستقى أنباءنا مما يكتبه المجاهدون ، ويرسلون به الى المحـافل المحلية والعالمية يطلبون النجدة وهيهات ٠

وقضى على الشيخ فى السجن بطريقة غامضة ، وانتقم الاهــلون باحراق مراكز التبشير ، فانتقم هيلاسلاسي منهم بمنح ٢٥ الف هكتــار من اخصب اراضــيهم الزراعيـــة ـ وهى جـل مـا يملكون ـ للمبشرين السويديين .

وتشرد من نجا من الرصاص بعد أن انتزعت أراضيهم التى هى مصدر حياتهم ، واصبحت تلك القرية اليوم مسيحية بعد أن كانت اسلامية صرفة .

***

٢ ـ ابادة قبائل رايا :

كان ذلك فى اكتوبر فى عام ١٩٤٢ وكانت التهمة هى التعاون مع الايطاليين فى عام ١٩٣٥ عند غزوهم للجبشة ، وهى تهمة لا أساس لها من الصحة اختلقت اختلاقا ليبرر بها ذلك القتل الذريع الذى اوقعتــه القوات الحبشية المسلحة من الابادة والتدمير على قبائل «رايا» الاسلامية .. كان الهجوم فجائيا ومباغتا لقرى مسلمة لم تكن تتوقع ذلك العدوان الأثيم ، وامطرت الطائرات البريطانية التى ساعدت هيلاسلاسي كثيرا فى جرائمه البشعة لتحطيم المسلمين الذين كانوا قد استعادوا قواهم بعــد أيام الحكم الايطالى ـ امطرتهم بوابل من قنابلها المدمرة فحصـــدت الأبرياء من الأطفال والرجال والنساء حصــدا ، وأتت على اليـــابس والأخضر .

ودخلت قوات الحبشة المقاطعة فأمعن البرابرة المعتدون فى الفتك والتدمير ، وأحرقوا المساكن والمساجد وأصبح سكان المقاطعة المسلمون فئة مشردة لا معول لهم ولا مأوى ولا أرض بعــد أن انتزعت أراضــيهم وقسمت على المسيحيين الذين كانوا قطاع الطرق أيام الحكم الايطـالى واطلق عليهم هيلاسلاسي « الربنيوث » اى المكافحون .

وانهبت أراضي الأوقـاف التى هى أملاك مقدســة فى جميــع البلدان ، وترتب على ذلك أن تشرد خمسمائة طالب علم فى المعاهد الدينية كانوا يعتمدون فى معيشتهم على حاصلاتها . ولقد كانت «رايا» قبلة التعاليم الاسلامية فى الحبشة ومنها نبغ علمــاء كثيرون الفـوا الدواوين الشعرية باللغة العربية الفصحى وفى التوحيد وسيرة الرسول ﷺ وعلى اثر هذه الحوادث الرهيبــة اغلقت معظم معاهــدها الدينية وتدهورت حركة التعليم فيها .

وكان السبب الحقيقى لهذا الهجوم الغادر هو القضاء على المالك الاسلامية فى الحبشة ، قبل أن تتمكن من المطالبة بحقوقها الاساسية العادلة ، ويقدر عدد القتلى باكثر من الف شخص بين رجال وأطفال ونساء .. ولم تكن « رايا » وحدها فى هذا المصير المشئوم . فقد حدثت نفس الماساة لسائر الممالك والاقاليم الاسلامية فى الحبشة .

* * *

٣ _ مباغتة سلطنة أوسا :

فى ليلة السبت ٢١ ربيع الثانى ١٣٦٣هـ الموافق ١٩٤٤م تقدم جيش الاحباش البرابرة ليلا والناس نيام ، والسكون مطبق يقودهم خائن واحد من الدناكل كان يعرف مسالك البلاد .

ويقول شاهد عيان عندما يحكى ذكريات تلك الليلة المشؤومة ، انه سمع أصوات السيارات من بعيد فاستيقظ وكانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، وفى نفس الوقت حضر رجل اسمه « الحاج أحمد حسين » وناداه ، فخرج اليه فقال الرجل : « انها الحرب .. لقد باغتنا العدو » وعد الرجلان سبعين سيارة كانت تطفىء أنوارها بعد أن أتصل أماكن التجمع وكان قد وصل قبلها ضعف هذا العدد .

ولم تمر دقائق قليلة الا وأصوات المدافع الرشاشة الكثيرة تحيل الوادى الى بركان والطلقات النارية تخترق الظلام كضوء الشمس الذى يخترق السحب الكثيفة ، وصار الوادى كله جحيما فى لحظات .

وعند الزحف من المطار الى المدينة انقسم الجيش الى قسمين :

قسم اتجه الى مقر السلطان ، وقسم آخر الى بيت ابنه الاكبر ، فالقسم الذى اتجه الى مقر السلطان كان أشد وأعنف فى هجومه واستولى بغتة على مخزن الاسلحة ، فبقى جنود السلطان عزلا لا يحملون سلاحا من الاسلحة الهائلة التى كانت بالمخزن والتى خلفها الطليان ، فهاجم البعض منهم جنود الاحباش بالمدى والاسلحة البيضاء ، غير أن رشاشات الاعداء قضت عليهم قضاء تاما وفر البعض الآخر الى الغابات مع ابن السلطان ، وركز الاحباش بنادقهم ومدافعهم الرشاشة على جميع بيوت رجال السلطان وضباطه ، وفى غمرة المفاجأة والذعر هب كثيرون يفتحون أبواب بيوتهم فالقتهم طلقات العدو مدرجين بدمائهم ، نساء ورجالا واطفالا مزقت أجسادهم قبل أن يغادروا فراشهم ،

وامهات اطاش الفزع والرعب صوابهن ، فهرعن يهربن باطفالهن ولكن نيران العدو عاجلتهم وانتشرت جثثهم على الممرات والطرق وجعلت دماء الاطفال الابرياء تختلط بدماء امهاتهم ، وفيما كانت المعـــركة قائمة كالجحيم خرج رجل من رجال السلطان يسمى « دهرى احمد » من بيت مجاور ودخل الى حيث السلطان المريض راقدا فى فراشـــه وقال له « وصل الضيوف » ثم اخذ بندقية كانت فى غرفة السلطان ، واستقر خلف دولاب بجانب سرير ، وفى نفس الوقت خرجت زوجة السلطان من منزلهـــا الملاصق واسرعت تجرى حيث يرقد زوجهـــا ؛ وعندما وصلت الباب رات جماعة من الجنود يتجهون نحوها ، ثم تقدم بعضهم يزيد ازاحتها من الباب بينما اجتمع البعض الآخر يطلقون مدافعهم على حصن السلطان وقصره من كل جانب . ولكن كانما الرعب والفزع ورؤية الموت عيانا مدها بقوة خارقة فامسكت بمصراعى الباب بشدة ولم تمكن احدا من الدخول رغم ان ثلاثة من الجنود كانوا يجرونها من ذراعها . ثم انهالوا عليها بالضرب والركل الذى لم يزدها الا تشبثا وعنادا . وعند هذا امر الكابتن قائد الفرقة رجاله ان يتركوا المـــراة ويتراجعوا . ثم اخرج مسدسه وافرغ فى صدر المراة كل ما كان فيه من الرصاص ، وعندما كانت المراة منكمشة فى دمائها تخطاها الكابتن ودخل غرفة السلطان ليخـــر فى نفس اللحظـــة صريعا برصاصـــة من « دهرى احمد » خادم السلطان الذى كان قابعا يحمى سيده حتى الموت ؛ ودخل خلف الكابتن الى السلطان جنـــدى برتبة ميجـــر ، وكان هدفا للخادم المخلص الذى الحقه بقائده الكابتن ، ولكنه فى نفس الوقت اصيب برصاصة اخترقته من جانب الى آخر وحمل جنـــود الاحباش السلطان المريض فى ســـيارة من ســـياراتهم وطلع النهار — على بلدة أوسا — التى احترقت اكثر بيوتها . على اكثر من خمسة وتسعين جثة من النساء والاطفال وعدد مضاعف من الرجال منتشرة بين الممرات وفى جوانب البيوت وداخلها ، لقد كانت هذه الحرب خديعة وخيانة دبرت باحكام بالغ ونفذت بدقة ، كانت عملية اريد بها اغتيال خسيس فى حرب خاطفة على رجل كانت نياته دائما صافية يعمل فى النـــور بينما كان اعداؤه الكفرة يكيدون له فى الظلام ، ويظهرون له خلاف ما يبطنون . .

وهكذا تعرضت « اوسا » آخر السلطنات الاسلامية لهجوم غادر ينافي ابسط مبادىء الاتفاقيات والجوار وراح ضحيتها السلطان « محمد يايو » في سجن « الم بقا » باديس ابابا بعد ان قبض عليه غيلة وغدرا، ولكن سلطنة اوسا لم تذهب لقمة سائغة للاحباش لأن احد اقارب السلطان وهو السلطان « على مرح » اخذ الامر بيده وتصدى للاحباش وبدا يناوئهم ، وتراجع الاحباش مؤقتا خشية ان يتصل السلطان الشاب الجديد بالعالم الاسلامى او يخرج القضية الى الراى العام العالمى فيفضح اساليب الاحباش الوحشية وفظائعهم . وهم لم ينجحوا الا بالتستر وراء الستار الحديدى الذى اخفى كل ما فى البلد من فوضى وارهاب . ينال فيه القوى اقصى ما يستطيع من الضعيف بالقوة وبالصورة التى لا يوجد لها مثيل فى عالم اليوم . اما اموال السلطان وهى طائلة جدا فقد نهبتها الحكومة الحبشية وجنودها البرابرة وهى عبارة عن لآلىء وجواهر وفضيات يزيد ثمنها عن مائتين وخمسين الف جنيه استرلينى علاوة على عشرة آلاف من الجنيهات الذهبية ، اما المواشى ما بين ابل وابقار واغنام ويزيد عددها عن خمسين الف راس فقد نهبت عن آخرها ، وقد اثرى الجنود الاحباش الحفاة بما غنموه من الغنائم الطائلة من سلطنة « اوسا » ولا حول ولا قوة الا بالله .

* * *

٤ - مذبحة كمباشا :

وما اسهل ان تنسب الحوادث التى ترتكب ولا يعرف فاعلها الى المسلمين ، وهاكم حادثة وقعت عام ١٩٤٦م فى قرية صغيرة من قرى « كمباشا » ، وجد جندى امهرى قتيلا فبعثت حكومة هيلاسلاسى كتيبة مؤلفة من مائة رجل بكامل اسلحتهم الى القرية ليلا وقتلوا منها اكثر من ثمانين شخصا منهم الشيخ والطفل والمراة ، واحرقوا الاكواخ عن آخرها ، ونهبوا المواشى ، وزجوا بالعشرات فى السجن ، وذلك قبل ان يتحروا عن الحادث .

وهكذا ذهب اولئك المساكين ضحية الخيانة والانتقام والحقد والكراهية ، وهذا واحد من مئات الامثلة التى حدثت ولا زالت تحدث فى كل وقت وحين . وبعد مضى سنتين ظهر ان القاتل كان زميلا للقتيل من القرية نفسها اتهمه بانه على علاقة بامراته .

* * *

٥ - احراق قرية جرسم :

فى «جرسم» - احدى مقاطعات هرر - ثار الشيخ «عبد القادر آدم» عام ١٩٤٧ ضد الضرائب الفادحة التى فرضت على هـذه المديرية ، وضد الاوامر التى كانت تقضى بأن تخبز نساء المركز المسلمات جوالقا من الدقيق كل يوم للعسكر ويحملنه اليهم ، فيلقين الاعتـداء على كرامتهن من الجنود البرابرة .

وبعد أن دخل رجال الثورة الغابات للمقاومة ، جمعت الحكومة الحبشية الشيوخ والاطفال والنساء فى اكواخ كل عشرين أو ثلاثين منهم فى كوخ ، وهو بيت يبنى عادة من الحشيش او القصب وسكبت عليها صفائح البنزين فأحرقت جميعا بمن فيها . والذى أمر بهذه الجريمة المروعة لا يزال موجودا وهو وزير الحربية الرأس « ابيى ارقاى » أما المواشى فقد أبيدت بالسم والرصاص ، وكان هـذا العمـل انتقاما من الرجال الذين لجأوا الى الغابات ، ومن جهة أخـرى لبث الرعب فى القرى المجاورة . ولا يقل ما أبادته الحكومة البربرية فى تلك القرية من الشيوخ والاطفال والنساء عن خمسمائة من الانفس البريئة .

＊＊＊

٦ - تدمير قرية بجوا :

فى سبتمبر سنة ١٩٤٧ جـردت حكومة الحبشة النصرانية ، احدى حملاتها المعتادة على قرية بجوا بمقاطعة (ولو) الاسلامية ، وذلك لرفض المسلمين العمل فى مزارع الحكام بدون أجرة ، ورفضهم دفع ضريبة الكنيسةالعليا (منفسائى قوبائى) ، فقوبل هذا الرفض القانونى بوحشية وفظاعة ، ألم يعتادوا تسخير المسلم فى جميع أمورهم ؟ ألم يبن مجلس الكنيسة كنائسه ومراكزه التبشيرية ضد الاسـلام بأموال المسلمين ؟ فلماذا يرفضون اليوم اذن ؟ أيريدون تدمير الكنيسة ؟ ..

حرام ثم حرام ! ابيدوهم اذن ، هكذا تساءل الامبراطور ثم أصدر اوامره بالابادة المعتـادة ، فأبيدت (بجوا) أسـوأ ابادة واحرقت مساجدها وزج بكثيرين من مشائخها فى السجن المشهور (آلم بقا) أى (نهاية الحياة) الذى هو مأوى الابرياء من المسلمين الاحرار ..

＊＊＊

٧ ـ مأساة هرر :

في عام ١٩٤٧ حاول مسلمو هرر مصادمة الظلم والحد من الوحشية المتمادية والمطالبة بحقوقهم العادلة ومساواتهم بالمسيحيين ، وجن ذلك جنون هيلاسلاسي ، اذ كيف يعقل أن يطالب المسلمون بحقوق عادلة وبمساواة ؟ ان هذا لوقاحة لن تسمح بهـا حكومة جـلالة الامبراطور ، ولذلك جـرد ثلاثة ألوية من الجيش اقتحمت المدينـة وأعملت السلب والنهب والتعذيب .

واستبيحت المدينة ثلاثة أيام متوالية تعرض خلالها الأهلون الى أفظـع أنواع النهب والسـلب وهتـك الأعـراض على مرأى من الآباء والأزواج والعبث على ظهور الأبرياء بالسياط ودق خصيات الرجال ، واستخدمت كل وسائل العنف والتعذيب ، وصودرت المتـاجر والمدارس والمزارع واعتقل الآلاف ووضعوا فى معسكرات التعذيب وأخذت أوقاف المساجد وضمت الى الكنائس وأرسل الزعمـاء الى المناطق النائيـة ، واستخدمت كل وسائل التعذيب فى الاستجواب واستمرت هذه الأعمال الفظيعة سبعة أشهر كاملة قتـل فيها من قتـل وهلك من هلك بسبب الجوع والبرد .

ولاذ بعض الهرريين بأماكن نائية يخفـون أنفسـهم وينكرون الانتماء الى عشيرتهم ويلبسون القبعـة بدلا من طاقيتهم المعتادة التى تميزهم وذلك أملا فى النجاة من التعذيب .

وفى تلك الأيام ، قدم وفد من مسلمى هرر الى القاهرة ليعرضوا شكواهم على العالم الاسلامى . فلم يجدوا سندا ولا نصيرا ،والظروف لم تكن فى صالحهم .

وقد جاء ذكر هذه الحادثة فى كتاب « الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر » من تأليف الدكتور محمد صبرى ـ عام ١٩٤٨ ، قال فيها :

« نشرت جريدة الأساس بتاريخ ٢٩ اغسـطس عام ١٩٤٨ تحت عنوان :« وفد مسلمى الحبشة عند فضيلة الأستاذ الأكبر» مقالا جاء فيه : « استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر فى مكتبه أمس وفـدا من مسلمى الحبشة من أهالى مقاطعة هرر ، وتحدثوا الى فضيلته فى بعض

شئون المسلمين بالحبشة وخاصة من مقاطعة هرر ، وقدموا اليه مذكرة حالتهم الدينية والثقافية فى تلك البلاد » .

« كما قال الكاتب : ان جريدة البلاغ نشرت فى عدد ٧ سبتمبر ١٩٤٨ تحت عنوان : « المسلمون فى هرر يعرضون شكواهم من الحكومة الحبشية » ما يأتى : « جاءنا وفد من مسلمى هرر وقدموا لنا شكوى طويلة ختموها بما يأتى :

« لقد تقدم المسلمون الى حكومة الحبشة عدة مرات بمطالبهم فكان مصيرهم التشريد ولما لم يجد المسلمون من وسائل السلم والتفاهم ما يحقق بعض مطالبهم العادلة ومعاملتهم بالمساواة مع مواطنيهم كابناء بلد واحد حاولوا الدفاع عن حقوقهم المدنية والسياسية امام اللجنة الدولية التى ذهبت الى الصومال لتحقيق امر المستعمرات الايطالية السابقة ،فذهب وفد منهم الى مقديشو عاصمة الصومال ، وكان يمثل جميع المقاطعات التى يسكنها اكثرية مسلمة ، فكان نتيجة هذا العمل ان ازداد اضطهاد الحكومة الحبشية للمسلمين ، وأرسلت جنودها الحربيين المسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة الى ديار المسلمين عامة ، فاخذ الجنود ينهبون اموالهم ويأخذون من امتعة وحلى النساء ، ثم يشبعون الرجال بالضرب ويسوقونهم الى السجون .

وقد قامت مظاهرة فى مدينة هرر يطالب فيها المتظاهرون بالانفصال عن الحبشة والانضمام الى الصومال الكبرى عندما يقرر ذلك ، فاعتقلت الحكومة الحبشية زعماء الحركة تحت ستار التفاهم معهم ، ونقلتهم الى جهة مجهولة ، كما ذهب ضحية هذه الحركة عدد كبير من المسلمين ، واعتقل نحو ثلاثة آلاف تجرى الآن محاكمتهم فى « أديس ابابا » ، ويلاقون الكثير من التعذيب والتنكيل ، كما نفت الحكومة نحو خمسمائة من أبناء هرر الى جهات غير معلومة . وقطعت المواصلات بين الجهات التى يسكنها المسلمون كهرر وعروس وولو .

ونحن مسلمى هرر خبرنا الحكومة الحبشية ، ولاقينا على أيديها أسوأ ما عرفته البشرية من صنوف التعذيب والتنكيل والظلم والاضطهاد وحاولنا أن نصل معها بطريق التفاهم السلمى الى حقوقنا فكان جزاؤنا النفى والتشريد ، لم نجد امامنا بعد هذا كله الا أن نتقدم الى العالم العربى الاسلامى خاصة والانسانى عامة بشكوانا هذه راجين الانصاف .

فى فضيتنا العادلة وذلك لا يكون الا ان نفصل عن حكومة الحبشة ونضم الى الصومال الكبرى عندما يقرر ذلك ان شاء الله .

وغير خاف اننا كنا دولة دام سلطانها خمسمائة عام تقريبا والتاريخ شاهد على ذلك ، ولقد كنا ولا نزال مختلفين عن الشعب الحبشي عامة فى اللغة والدين والادب والاخلاق والعادات ، هذا كله علاوة على سوء معاملة الحكومة الحبشية التى اوضحناها فى هذه المذكرة » .

والى هنا انتهى ما جاء فى كتاب « الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر » للدكتور محمد صبرى وهذه النبذة تعطى صورة واضحة لما حدث هناك من الظلم والابادة والتشريد .

***

٨ ـ قتل أربعين مسلما فى عرقبا :

فى فبراير من عام ١٩٤٩ قام نزاع بين عشيرة اسلامية من قبيلة (عرقبا) بالقرب من (ايفات) فى شكال مديرية (شوا) وبين المسيحيين النازحين هناك سببه اراض زراعية انتزعتها الحكومة من المسلمين ومنحتها للمسيحيين ، فقام المسلمون يدافعون عن املاكهم وبذلك حدث التصادم بينهما .

وتدخلت الحكومة وجردت احدى حملاتها المعتادة لتأديب المسلمين بالطبع . وأبادت الحملة كثيرا من افراد العشيرة الاسلامية وسلمت الاراضي للمسيحيين .

وقد حكى جندى من جنود الجيش لشاب كان يظنه مسيحيا فقال له : « ان اولئك القوم شجعان الى حد كبير فقد قاوموا فرقتنا بالرماح والسيوف وقتلوا منا خمسة جنود ، ولكننا استطعنا ابادتهم فقتلنا منهم اربعين شخصا وفصلنا رؤوسهم عن اجسادهم وتركناهم فى العراء حتى يتعظ كل من تسول له نفسهبمعارضة ارادة الامبراطور المقدسة »!

***

٩ ـ ماساة (داوى) قبلة العلوم الاسلامية بالحبشة :

تمتعت سلطنة (اوسا) بفضل رجالاتها وابنائها المشهورين بالبطولة فى الحرب وبطبيعة اراضيها المنيعة واكثر من أى شىء آخر بالتأييد الادبى من قبلة العلوم الاسلامية فى الحبشة (داوى) ، فقد كان المسلمون جميعا يدركون ان سلطنة (أوسا) هى المعقل الأخير وسلطانها هو الحاكم المسلم الوحيد الباقى فى الحبشة كلها ، وبطبيعة الحال نال تاييد المسلمين عامة و (داوى) خاصة ، وكان السلطان يطبق فى بلاده احكام الشريعة الاسلامية ويتجه الى (داوى) مستوضحا احكام الشريعة ليجد الاجوبة الصحيحة من علمائها ولاسيما من المفتى « محمد امانى » .

وشغل هذا التعاون بال الحكومة الحبشية التى رات فيه شرارة قد تنطلق منها نهضة اسلامية جديدة ، وكان لابد من ايجاد حل . وأكثر الحلول نتائج ـ كما هو فى الحبشة دائما ـ الضربات الشديدة التى تسحق بقوة أى تكتلات اسلامية وتضيع معنويات المسلمين ، وكان تطبيق هذا مع سلطنة أوسا غير مستطاع فى تلك الظروف ، فاذن فلتكن (داوى) الضحية . وبدات الحكومة الحبشية تجس النبض فى (داوى) والبلدان الاسلامية المحيطة بها فأوعزت الى بعض المسيحيين للتحرش بهم ، فاغاروا على بعض القرى والمراعى الاسلامية ، وقتلوا ثلاثة من الشبان ، واستولوا على المواشى ، فهب المسلمون بسرعة الى حمل السلاح وتجمع من الفريقين عدد هائل ، وبدات الاصطدامات التى كان الكل يترقبها ان تتحول الى حرب طاحنة .

وفى نفس الوقت والاصطدامات مستمرة أقبلت قافلة من سيارات الحكومة متجهة الى (ديسي) فظنها المسلمون مددا وعونا للمسيحيين ، فبدا بعض الشبان اطلاق النار عليها ، وكادوا يقضون على القافلة لولا أن قام رجل من تلك الجهات واسمه « دجياش يوسف » ووجه نداء الى المسلمين المهاجمين صائحا فيهم : ان أوقفوا اطلاق النار والا هلكتم جميعا ، فهذا ابن الملك وولى عهده ، ذاهب الى مقره وما جاء لحربكم ، فأوقفوا هجومهم فى الحال .

وتفرق المهجمون ونجا الامير الحبشي بحسن حظه ، ولكن ما ان انتشر الخبر حتى تحركت فرق الجيش من جهات العاصمة وديسى تشن هجوم على المسلمين ، وانتشر الخبر بسرعة مذهلة ، وتحدث عنه المسلمون في كل مكان واستولى الذعر على الامبراطور . فأمر بايقاف الجيش عاجلا وطلب ان يعمل شيوخ المسلمين وقساوسة المسيحيين على ايجاد صلح بالطرق السلمية .

واجتمع الشيوخ والقساوسة وأعيان الطائفتين وعقد صلح سمى صلح (غدم) نسبة الى مكان الاجتماع الذى يقع فى جهات (جمزا) واتفق الجانبان على ان يفرض ٥٠،٠٠٠ دولار حبشي على اى من الجانبين يخرق الصلح ، وكان ذلك فى ابريل من عام ١٩٥٣ .

واستمرت الحال فى هدوء نسبى مدة ، ثم تسلل بعض الاحباش الى قرية اسلامية وقتلوا فتاة وجرحوا صبيا آخر واستولوا على بعض المواشى وأصبح المسلمون فى خطر ، وابلغوا السلطات الحبشية بما حدث ، ولكنهم لم يجدوا أى جواب ، واخيرا رأى رؤساء المسلمين ومشايخهم أن يدعوا الازمة تمر بدون تشدد لأن حالتهم لا تسمح ببدء القتال الا فى حالة دفاع لا مفر منه اذا قام المسيحيون بهجوم منظم .

ثم حدثت فترة من الهدوء والسلام ، وبدأت الاحداث الخارجية تحظى باهتمام زائد فى الحبشة بصورة لم يسبق لها مثيل ، فقد كانت الدعوة الى (صوماليا الكبرى) فى أقوى مراحلها ، وكان تجاوب المسلمين مع هذه الدعوة يتجلى فى صورة نشوة غامرة لا تحفظ فيها ، وصار رجل الشارع المسلم يبدى سخطه وتذمره ويتوعد السلطات الحبشية مما ينالها على أيدى الصوماليين ومسلمى الحبشة عندما يبدأ الزحف المقدس ، وكانت الكلمات والشتائم والسباب هى الوسيلة الوحيدة للتنفيس عن النفس والتعبير عن السخط وذلك بالنسبة لرجل الشارع المسلم .

وكان رد الفعل عند الاحباش يظهر فى صورة هستيرية مجنونة تخيل لهم أن كل من فى الحبشة يعمل على هلاكهم والفتك بهم ، وزاد الطين بلة أن اذاعة القاهرة كانت تدعو الصوماليين الى الاتحاد والعمل بجد ليتبوأوا مقعدهم بين الامم ، وينالوا مكانتهم بين الشعوب الحرة سيما وقد أوشكت وصاية ايطاليا باسم الامم المتحدة أن تنتهى .

وبدأت السلطات الحبشية تتودد الى المسلمين وتعمل جاهدة ضد

ما اسمته « الدعاية المغرضة الخارجية التى تهدف الى خلق الفتن وتمزيق وحدة الامبراطورية » وبدات ظاهرة غريبة هى اغداق الالقاب على اشخاص نكرات من المسلمين ، وخلق زعامات مهلهلة ، وتعيين عدة رؤساء فى اصغر القبائل والوحدات مما ساعد على خلق الحزازات والتنافس على لا شىء . وجعل الناس يتذمرون والرؤساء انفسهم يطالبون بالاعفاء من مناصبهم والتنازل على القابهم بعد أن ظهر لهم ما خسروه بسبب هذه التوافه .

وفى نفس الوقت بدأ فصل جديد فى تاريخ الاضطهاد والتعذيب لمسلمى هذه المنطقة من الحبشة ، فعلى حين غرة وبلا مقدمات — كالعادة — توغلت فرقة من رجال الجيش الى داخل البلاد وحاصرت بيت ابن زعيم مسلم يسمى « حسن آمى » ، ولكن الفرصة مكنته من الهرب فاعتصم بجبل قريب تغطيه اجمة كثيفة فأطلق جنود الاحباش النيران على زوجته ، وجروا جثتها العارية المضرجة بالدماء الى الخارج واشعلوا النار فى البيت .

وهرع الشاب الى البيت المشتعل فوجد الجنود البرابرة قد غادروه ، ووجد زوجته جثة هامدة عارية ، فتتبع الفرقة سريعا ولحق بهم وبدأ فى اطلاق النار ، وفجاة وتحت ستار الظلام انضم ستة من زملائه الشبان وقتلوا الضابط الذى كان يقود الفرقة واسمه (شامل) وتمكنوا من اسكات المدفع الرشاش ، وتملك الفرقة الفزع واضطربت قيادتها فهجم عليها الشبان المسلمون وكان عددهم قد زاد أثناء المعركة الى عشرين ومزقوها شر ممزق .

وفى اثناء تراجع البقية الباقية من الفرقة استمرت المطاردة ثلاثة أيام ، وكان الاحباش قد توغلوا فى داخل البلاد فى جهات لا يعرفون مسالكها اعتمادا على قدرتهم وسمعتهم التى توهموا أنها تجعل اشجع المسلمين يرتجف وينفطر قلبه هلعا وخوفا منهم ، وفى اليوم الثالث قضى على الفرقة الحبشية ، الا ان افرادا قلائل تمكنوا من النجاة بالهرب ، واستولى المسلمون على اسلحة العدو واعتصموا بالجبال وتوغلوا فى الغابات .

وتحرك الجيش الحبشي من أديس ابابا و « دبرى برهان » وذهب الملك بذاته لمقابلة الضباط فى تلك المنطقة ولاعطائهم الاوامر النهائية ثم انقض الجيش على البلاد بقيادة الكولونيل — جنرال حاليا — « ابى

جمدا » فاحتل القرى الاسلامية بسهولة واستباح كل بيت ونهب كل شيء واعتــدى على كل امراة سريفة ، وكان الجنــود الاحباش يعبثون مع الفتيات امام ابائهن وامهاتهن المفيدين حتى هلك الكثيرات منهن ، واخذوا كثيرا من المشايخ والعلماء من خلواتهم ومعابدهم ، ثم جردوهم من ثيابهم والقوا بهم فى الحفر ، ووضعوا عليهم الشوك ثم ساروا عليهم باحذيتهم العسكرية ، وما زال الكثيرون منهم لا يستطيعون استعمال ايديهم الى اليوم لما نالها من عطب . ولم ينج من التعذيب احــد حتى الاطفال قضت عليهــم الركلات بالاحذية وهلك الكثيرون من جــراء العطش والجوع فى معسكرات التعذيب .

وفى تلك الايام ظهرت صور من التعذيب تفــوق ما يتصـــوره العقل .

فقد حصل ان هرب شاب من ابناء الزعماء واسمه محمد عبده الى حدود سلطنة (اوسا) حيث يستحيل على الاحباش ارجاعه من هناك. فقبضوا على والده وربطوا منفذ بوله بالاسلاك الى ان مات بعـــد ان انتزعوا اظافره وهشموا ذراعيه وفقأوا عينيه مقدما ، وتحولت المقاطعة الى معسكرات للتعذيب . لعدة ايام ، ومحيت قرى كثيرة من الوجود كما التهمت النيران كل ما رأى الاحباش تحويله الى رماد ، ولم يكن الهجوم فى اول الامر باقل فظاعة من التعذيب الذى تلى فيما بعد .

لقد هجم الاحباش على القرى والمزارع بسرعة بينما كان الناس يترقبون منهم ان يتعقبوا الذين حملوا السلاح فى الجبال ، واستعملوا قاذفات اللهب ضد المشايخ والنساء والاطفال الذين اختبأوا بين الصخور والاشجار ، وطحنوا الاكواخ والبيوت بمن فيها بالدبابات والسيارات المصفحة ، ولم يكفهم هذا بل حولوا المجزرة الى لعبة صيد يتلذذون بها فكانوا يوقفون اطلاق النار ثم يطاردون فرائسهم عبر الحقول بسياراتهم حتى يسحقوهم واحدا واحدا عنــدما يتعثرون او يكلون ويقعون على الارض ، وكان بعض الاطفال يتسلقون الاشجار املا فى النجــاة ولكن جنــود الاحباش البرابرة كانوا يصيدونهم كالعصافير جاعلين منهم — اهدافا فى مباراة الرمى يتسابقون اليهم ويقتلونهم كالعصافير .

ومرت اربعة ايام ومعسكرات التعذيب تجرى بافظع واقذر عمليات التنكيل والاذلال ، فبكى الرجال وتضرعوا الى الله ، ثم طلب العلماء واعيان البلد ان يبحثوا عن « الحاج على » ذلك الرجــل الطيب الذى

ذنو ينظرون اليه في وقت المحنة ولذى كان لسان حالهم لدى الامهريين القساة .

وكان الحاج على بن الحج يحيى غدا يحد على عاتقه مهمة الاتصال بالسلطات فيما يختص بالضرائب فيجمعها ويدفعها للامهريين ، ويقبض على المجرمين ويسلمهم الى المختصين ، وذلك حسب الاتفاق القديم الذى يترك للمسلمين ادارة شئونهم الداخلية ولا يسمح للجيش او البوليس الحبشى بالدخول الى البلاد ابدا . والحاج على هذا واحد من الرجال القلائل الذين كانوا يجيدون اللغة الامهرية لغة الاحباش المسيحيين فى تلك المنطقة ، اما شعب هـذا البلد فكانوا على العموم مغايرين للاحباش فى كل شىء : فى اللغة والدين ، وفى طريقة المعيشة والعبادة ، بل ان مشايخ هـذا البلد وعلماءه لم يروا بأعينهم كافرا ابدا .

وقال الكولونيل « ابى جمدا » : ان أحضرت لكم هذا الرجـل فهل تسلمون أولادكم الثائرين ؟ فقالوا له : آت به ونحن نتفاهم معه ، وسأل عنه الكولونيل الجيش فقيل له انه فى (دلتا) ولكنه لم يكن هناك وسألوا عنه فى (ديسي) ثم علموا أنه فى اديس أبابا ، اذ كان قد هرع الى العاصمة عندما سمع أن الجيش هجم على البلاد ، ووصلت برقية الى اديس أبابا واتصل وزير الداخلية « أتو مكنن هبنى ولدى » بالامبراطور حالا فى نفس الليلة ، وفى الصباح استدعى الامبراطور الشيخ وقال له :

« كيف يعذب الشعب وأمثالكم موجودون ؟ اعملوا شيئا لان البلاد كانت ولا زالت تحت ايديكم » .

ورد عليه الشيخ : اعطنى الأمان لأسوى الأمور .. أعطنى عفوا شاملا وساجعل الثوار يرمون أسلحتهم ويعودون .

وتم كل شىء على وجه السرعة وتسلم الشيخ من يد الامبراطور مرسوما يعلن فيه العفو الشامل ويدعو الى تسليم الاسلحة والعودة الى المدن ، واستقل احدى سيارات الجيش بصحبة ضابط خاص واتجه الى البلاد . وبوصوله اجتاحت البـلاد موجة من الامل وتنفس المسلمون الصعداء ، وبداوا يرهفون آذانهم يترقبون الفـرج على يديه ، ودعا الشيخ كل من حمل سلاحه ، وخرج الى الغابات : أن يعود الى البلاد ويسلم أسلحته ، وطمأنهم بعفو شامل من الامبراطور فعاد الهاربون .

واقبل الشبان من كل جانب واضعين ثقتهم فى الشيخ ، وسلموا اسلحتهم . ومن اوائل من استجاب لنداء الحاج على « محسن امى » ذلك الشاب الذى ابتدأت المأساة بمحاولة القبض عليه ، وسلم الاسلحة والخيمة التى استولى عليها فى المعركة ، فكيف قابل الاحباش هـذا العمـل ؟

نقـد جمعت السلطات كل الذين سلموا اسلحتهم والقوا بهم فى السجن وفجأة وصل ثلاثة اشخاص من الاحباش قيل انهم من كبـار القضاة فى المحكمة العليا ، وأسرع الحاج على الى العاصمة ليطلب من الملك ان يبر بوعده ويطبق العفو الشامل حسب ما أعلنه رسميا ، ولكنه قال للشيخ البرىء انه حاكم دستورى لا يستطيع ان يبت فى مثل هـذه الامور التى هى من اختصاص العدالة والقانون . كأن عندهم عدالة وقانونا !!

وبدأ الاحباش يلصقون التهم بواسـطة بوليس خاص وفرق من الجيش والحرس الامبراطـورى ، وكان المترجـم والدفاع منهـم ، والمتهمون كلهم مكبلون بالسلاسل ، ولم تأخذ المهـزلة وقتا طويلا : استجواب سريع ثم الحكم بالموت — بالموت — بالموت — انت شاركت .. أنت عاونت — فلا دفاع ، ولا استئناف بل شنق سريع ، وتجددت موجة التعذيب باقصي مما كانت عليه من قبل .

استشهد الكثيرون من الشبان المسلمين فى الظلام قبل أن يقدموا حتى للمحاكمة الصورية ، واعلن البعض من الابرياء أنهـم مجرمون عندما اشتد عليهم التعذيب ، وكان يسمح لافراد الجيش والبوليس الذين ادعوا أنهم فقدوا اقاربهم واصدقاءهم أن يتسللوا فى الليل الى حيث كبل الابرياء وأن ينتقموا بايديهم قبل أن تسقيهم العدالة الحبشية كأس المنـون .

ومن بين اكثر من ٥٠٠ شاب نقلوا الى السجن في أديس أبابا أعاد الاحباش ٥٥٪ الى بلادهم ليشنقوهم على الاخشاب كل اربعة او خمسة على خشبة فى نحو اثنى عشر قرية ، وعروهم من الملابس عدا ما يستر عوراتهم للتحقير والتقليل من قيمتهم والصاق الهمجية بهم .

كان هذا فى الوقت الذى زار فيه الامبراطور الجمهورية العربية المتحدة وحين كان يبتسم ويتودد الى الرئيس جمال عبد الناصر باسم

للاخوة الافريقية وباسم فضل الحبشه على الاسلام فى عهد الرسـول صلى الله عليه وسلم .

ولا يدرى احد ماذا حصل لبقية الشبان الذين القوا فى السجون ، ولو ان المرجح انهم ابيدوا بالجملة وبمختلف الطرق ، وكان الاحباش انتهازيين بكل ما فى هذه الكلمة من قذارة ، فقد اتهموا المسلمين بخرق صلح (غدم) وأجبروهم على دفع الخمسين الف ريال المتفق عليها . وبعد ان تسلموا المبلغ أجروا المحاكمات الصورية وأعدموا الشبان مع انهم هم البادئون بالعدوان والبادىء اظلم .

هذا والضابط الذى كان يحمل وثيقة الصلح « كابتن ورقنه » لم يظهرها بل اظهر رسالة أخرى تتضمن اتخاذ خطـوات تساعد على السرعة والانتهاء مهمة القبض على أكبر عدد ممكن من الذين يستطيعون حمل السلاح بين المسلمين ، وبتنفيذ احكام الاعدام انتهى الفصل الاول من المأساة ، وبدأ الفصل الثانى الذى لا يقـل عنه وحشية وفظاعة ، والذى لا زال مستمرا الى هـــذا اليوم ، ولا احد يدرى متى يكـون الخلاص منه .

استولى الجنود الاحباش على الاراضي وعلى بيـوت المسـلمين وزوجاتهم بل وعلى الرجال انفســهم فى كثير من الحالات ، احدى وعشرون امرأة وفتاة مسلمات سباهن جنود الاحباش ونصروهن قهرا ولا زالوا يعاشروهن الى اليوم فوق أراضي استولوا عليها من آبائهن وأزواجهن .

وأكثر من ثلاثمائة بيت سخر المسلمون رجالا ونساء فى بنائها ، بعـــد أن أجبروا على قطـــع الاخشاب من غابات قرب (سمبتى) وحملوها على اكتافهم ورؤوسهم الى (كرافودى) (ودااوى) حيث تم الاستيلاء على اراضيها لحساب افراد الجيش الحبشي . ومـا زال المسلمون حتى اليـــوم فى تلك المنطقة يجلدون ويجبرون على خدمة هؤلاء السادة البرابرة فى قطع الاخشاب والحشائش وبناء الاســـوار وشـــق الطرق وتعبيدها . وما زالوا الى اليوم يقبضون على اى رجل مسلم ويقولون له كنت كذا وكذا حتى فى أيام الاحتلال الايطالى تملك بندقية أو مسدسا فسلمها والا فادفع قيمتها ، والويل له ان تأخر .

* * *

وبعد ، انك نكتب هذه الصور وهى جزء من الواقع حتى يعلم المسلمون وكل ضمير فى العالم عنا بعض الشىء وان الناس هناك يمنعون من القوت الضرورى ، وأن الجوع والموت يغشاهم . والحالة لم تعد مستطاعة والانفجار محتمل فى اى لحظة والوقت ضيق ، فلتبادروا أيها المسلمون فى كل مكان بسرعة معاونة اخوانكم ان اردتم بقاء الاسلام فى الحبشة .

***

١٠ — حكومة الحبشة تحاول ابادة القبائل الصومالية فى منطقة (أوجادين) :

اعطى احد المجاهدين صورة عن هذه المحاولات فقال :

« جمعتنى الصدفة يوما فى غرفة واحدة فى قطار اديس ابابا — جيبوتى مع ضابط حبشي من ضباط الحدود . فحدثنى كثيرا عن مغامراته مع القبائل الصومالية فى أوجادين ، وكان يظننى مسيحيا مثله مما جعله يرفع الكلفة بيننا ويطلق العنان للسانه مطريا رجال الحدود وعظائم اعمالهم الوحشية . ، وقال ان الصوماليين قوم شديدو المراس متهورون فى شجاعتهم ولديهم كثير من الاسلحة النارية الحديثة التى نالوها من الايطاليين مما جعل كسر شوكتهم مغامرة خطيرة على رجال الحدود الذين ينتصرون عليهم احيانا بشق الانفس ، بالحيل والخداع تارة ، والاطماع والتساهل تارة أخرى ، وبالقوة واستعمال الاسلحة الفتاكة احيانا كثيرة ، فتقتل ابلهم ومواشيهم التى هى عماد حياتهم كى يستسلموا ولكنهم لا يستسلمون . ، واحيانا تحرق بيوتهم وتدمر مساجدهم بالمدافع فيستسلم بعض منهم عندما تضيق عليه الحياة .

فقلت له متصنعا العجب من اعماله البطولية : لماذا تبذل حكومتنا النفس والنفيس فى مقاتلة هؤلاء الصوماليين ؟

فاجاب القائد بغرور ظاهر قائلا « ان ما تنفقه الحكومة من الاموال الطائلة وما تبذله من نفوس جنودها راضية فى قتال الصوماليين لا يساوى شيئا بجانب استيلائنا على هذا البلد الذى اكتشف فيه كنوز من البترول والذهب والحديد والكبريت والملح الجبلى الذى سيدر ارباحا طائلة على الدولة عندما يتم استغلاله » .

وهذه المحادثة القصيرة بين مجاهد مسلم وضابط مسيحى مستعمر

تلقى ضوءا على ظلم حكومة الحبشة واعتداءاتها المتكررة على القبائل الصومالية فى منطقة اوجادين التى استولت عليها بمساعدة الفرنسيين والبريطانيين تحقيقا لاحلامها الاستعمارية وطمعها فى نهب مواردها الطبيعية .

وفى السنوات العشرين الاخيرة حدثت على القبائل الصومالية اعتداءات وحشية من برابرة الاحباش ، أبيدت فيها عشائر وقرى باكملها ، وهذه الحوادث كثيرة يصعب ذكرها جميعا هنا ولكننا نورد ثلاث حوادث على سبيل المثال .

١ — فى سنة ١٩٥٠م علق بعض المشايخ راية دينية فى مسجد (جقجقا) بمناسبة دينية كما هو معتاد فى كثير من البلدان الاسلامية ، وتدخل البوليس الحبشي وامر بانزال الراية وتعليق العلم الاثيوبى المسيحى فى المسجد ، ورفض الصوماليون بحجة ان المسجد ليس مقرا حكوميا ، وبدأ بذلك الاشتباك الذى راحت ضحيته عشرات من الارواح وسجن الكثيرون من المشايخ .

٢ — وفى اواخر عام ١٣٧٥هـ الموافق عام ١٩٥٦م هاجمت القوات الحبشية المسلحة قبيلة (عيسى) الصومالية وقتلت منهم عددا كبيرا من رجال واطفال ونساء وشيوخ بقصد انتزاع الاسلحة منهم .

واذاعت محطة لندن نبأ هذا العمل الوحشي الذى قصد به الابادة والتشتيت ، ولم تخجل اذاعة اديس ابابا من ترديده وذكرت ان قبائل عيسي كانت هى المعتدية .

٣ — وفى يوم ٢٩ رمضان ١٣٧٨ هـ والمسلمون يستقبلون عيد الفطر المبارك والزحام مشتد حول الآبار تعطلت آلات رفع المياه الخاصة بأفراد الجيش فى قرية (قبر دهر) بالقرب من حدود الصومال البريطانى (سابقا) فورد جنود الاحباش على الآبار الخاصة بالصوماليين المسلمين فطردوا الفتيات والنساء واعتدوا عليهن بالضرب ، وكان بالقرب منهن بعض الشبان الصوماليين الذين لم يستطيعوا ان يتحملوا منظر هؤلاء الجنود وهم يعتدون على النساء ، فاشتبكوا معهم بالايدى والعصى ، وهرب الجنود الى ثكناتهم وعادوا بأسلحتهم الفتاكة وقاموا بهجوم مفاجىء على القرية باكملها ، مستعملين المدافع الرشاشة وانواع الأسلحة الاخرى ، وبطبيعة الحال لم تقع معركة يتقابل فيها فريقان بل مطاردة اشبه ما تكون بصيد

الحيوانات فى الغابات لان الصوماليين لم يسعهم الا الفرار امام زحف الجيش المسلح ٠

وفر الصوماليون رجالا ونساء وأطفالا مسافة تزيد على ٢٠ كيلو مترا حتى وصلوا الى غابة على الجانب الآخر من حدود الصومال البريطانى (سابقا) واحتموا فيها بعد ان سقط منهم ٣٦ قتيلا وجرح كثيرون ٠

وعاد الفارون بعد ثلاثة أيام الى منازلهم بعد أن تفاهمت السلطات البريطانية مع حكومة اديس ابابا بشأنهم لا ليحتفلوا بالعيد ، ولكن ليشيعوا جنائز شهدائهم التى تعفنت ، وخيم على المنطقة جو مظلم يسوده القلق والتوتر ، ولن ينتهى هذا ما لم تفصل منطقة أوجادين خاصة والمناطق الاسلامية فى الحبشة عامة عن الاستعمار الامهرى الغاشم وتصبح جزءا من صوماليا الكبرى أو تصبح صوماليا الكبرى جزءا منها ٠

***

● مجازر أوجادين :

كتب شاهد عيان عن الحوادث الاخيرة فى منطقة أوجادين قال :

« وقعت على قبائل (عيسي) مصائب كبيرة فى الاسابيع القليلة الماضية وسالت دماء الابرياء من الرجال والنساء والاطفال أنهارا فى مناطق (أوجادين) والاضطرابات على قدم وساق ، ففى كل ليلة يرفع الشباب اعلاما صومالية كثيرة وتنزلها القوات الحبشية فى الصباح ، حصل ذلك حتى فى منطقة (ديرداوا) وارتكبت القوات الحبشية جرائم وحشية ضد القبائل الصومالية ، واقامت المجازر والمشانق بالجملة ٠

« وقد أوقفت قبائل عيسي القطار بين جيبوتى وديرداوا وغنموا حمولته كما قطعوا الاسلاك الكهربائية والتليفونية انتقاما لما حل بهم من المجازر البشعة من القوات الحبشية ، ويقال ان اكثر من خمسمائة شخص بين جريح وطريد اخترقوا الحدود الى جمهورية صوماليا ، وقد رفعت حكومة صوماليا احتجاجا رسميا الى حكومة الحبشة وهددت برفع شكوى الى هيئة الامم المتحدة ٠

« وبعد استقلال صوماليا فى ١٩٦٠/٧/١ الغت الحكومة الحبشية

اتفاقية عام ١٩٤٨م مع المحمية البريطانية بصدد المراعى ، ومعنى هـــذا ان القبائل الصومالية الرحل لا تستطيع دخول المنطقة الرعوية التى تسمى (المنطقة الاحتياطية) ومن جانب حكومة صوماليا الغت معاهدة سـنة ١٩٠٨ وما قبلها ، والتى ابرمتها السـلطات الاستعمارية مع الحـكومة الحبشية . وهذا معناه ان صوماليا لا تعترف بحدودها ، وعلى العموم فان الحالة جد متوترة فى هذه المنطقة » .

هـــذا ما كتبـه شـاهد عيان ، ونضيف الى ذلك ما كتبته صحيفه (الجمهورية القاهرية ، فى عددها رقم ٢٦٨٩٩ والصادر فى ١٣٨٠/٢/١٢هـ الموافـــق ١٩٦٠/٨/٥م) ، قالت بالحـــرف الواحد تحت عنـــوان « اشتباكات عنيفة بين القوات الصومالية والاثيوبية » ما يلى :

« مقديشو فى ٤ - ا.س.ا - وقعت اشتباكات عنيفة بين بعض القبائل الصومالية ووحدات من الجيش الاثيوبى على الخط الحديدى بين جيبوتى وديراداو . ولا تزال هذه الاشتباكات مستمرة » .

« وتقول المصادر الموثوق بها ان هـــذه الاشتباكات بدات منـــذ اسابيع ، ثم ازدادت حدتها واشتركت فيها قبائل أخرى وأدت الى قتل ٨٠٠ صومالى و ١٠٠٠ اثيوبى . ويرجع سبب هـــذه الاشتباكات الى اعتراف هذه القبائل بجمهورية صوماليا » وكتبت جريدة (قرن افريقيا) الصومالية فى عددها رقم ٥٦ الصادر فى ١٩٦٠/٩/٣م ما يلى :

« غزت قوات هيلاسلاسي عدة قـــرى ومدن صـومالية فى غرب الجمهورية ، وقامت بعملية قتل ونهب وارهاب كما قتلت مئـات من الاطفال والنساء والرجال ونهبت آلاف الحيوانات ، واشتركت ايضا الطائرات الحبشية فى عملية الابادة التى قامت بها القوات الباغية ، وفى (دجحبور) استدعى الحاكم الحبشي بعض زعماء قبائل الصومال وقال لهم بالحرف الواحد ما يلى :

« ان حكومة الامبراطور العظيم هيلاسـلاسي النجاشي قـــررت ما يلى :

١ - طـــرد جميـع رعـــايا الجمهـــورية الصـومالية من أراضي الامبراطورية وحرمانهم من حقوق المراعى .

٢ - تاميم البرك الواقعة على هذا الجانب من الحدود وتوزيعها على رعايا الامبراطور » واستمر يقول « ان الامبراطور الذى يعطف

عى شعبه ويريد له الخير والسعادة اتخذ هــذه القــرارات ويرجو موافقتكم عنيها » وفى (قبر دهر) ، وزع المواطنـون منشــورات يطالبون فيها بانجلاء عن منطقة (أوجادين) وأعلن المواطنــون عن عرمهم للتخلص من الاستعمار والسيطرة الاجنبية ، وتفيد الانباء ان السلطات الحبشية هناك القت القبض على ٢٥ مواطنا بتهمة تحريض الشعب ضد الحكومة . ومن هنا يتضح لك ايها القارىء الكريم ما يقاسيه ابناء الصومال المسلمون الذين يطالبون بحقهم العـادل فى الحــرية والانضمام الى اخوانهم فى جمهورية صوماليا ، وفى الغد القريب ان شاء الله يتحقق هذا الامل وتقوم جمهورية صومانيا الكبرى شاملة تحت لوائها لا منطقة (أوجادين) فحسب بل سائر المناطق الاسلامية الرازحة تحت نير الصليبية الحبشية ، وتتحقق بذلك الامانى التى يصبو اليها المؤمنون بالعزة والكرامة ، ويتحقق وعد اللهالذى وعد به عباده المؤمنين **« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهــم وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا »(١) .**

***

(١) النور : ٥٥

استقلال مزيف .. يقوم على اضطهاد الاسلام والمسلمين...

فى السنين الاخيرة انتفضت الشعوب الافريقية انتفاضة الحياة ، وبدت كراهيتها الواضحة للاستعمار الغربى الذى جثم على صدرها دهرا طويلا .

وقررت هذه الشعوب أن تسترد حرياتها المسروقة وخيراتها المنهوبة ، وأن تعيش سيدة نفسها دون تبعية سافرة أو مقنعة للرجل الابيض القادم من وراء البحار ...

والمستعمرون لا ينقصهم الخبث كى يواجهوا هذه الحركة بالتفاف ماكر .

انهم حراص على استنفاد كل خير ، فى كل شبر ، من أرض القارة البكر لصالحهم الخاص .

وعندما تطلب ذلك قديما أن يحتلوا البلاد احتلالا مباشرا ، وأن يقتلوا جماهير السكان بالجملة او بالتجزئة ، وأن ينصبوا حكاما من بنى جلدتهم لاقرار نفوذهم ، لم يتورعوا عن شيء من هذا كله !!

لكن الزمن تغير والعصر تطور .

ولابد أن يجرب الاستعمار أسلوبا آخر يضمن به مغانمه ويخفف مغارمه !!

واذن فمن المفيد تكوين حكومات أوروبية النزعة وان كانت افريقية الجنس !

وهنا يجدر بنا أن نتفرس فى ملامح هذه الحكومات التى أذن الاستعمار بوجودها ، ونغلغل البصر فى الملابسات التى اكتنفت ميلادها وصاحبت سلوكها .

هناك استقلال أسوأ من الاستعمار ، وأشد وطأة منه على الافريقيين التعساء .

اتظن جنوب أفريقيا المستقل دولة افريقية مستقلة تعد بين دول القارة التى ظفرت بحريتها ؟

عندما كنا طلابا فى المراحل الابتدائية منذ أربعين سنة كان يقال لنا : ان الدول المستقلة فى افريقيا مصر ، وجنوب افريقيا ، وليبريا ..

ولا أدرى كيف اعتبروا جنوب افريقيا دولة مستقلة ؟

ان الانجليز المحليين ، وشركاؤهم من الأوروبيين المغامرين هم صحاب السلطة فى هذه البقعة المحروبة .

اما أصحاب البلاد الاصلاء فغرباء مطاردون فى وطنهم ...

والتسمية الصحيحة ان مستعمرة جنوب افريقيا انتقل اليها حكامها الأوروبيون ، فبدل أن يعيشوا فى لندن وامستردام عاشوا فوق ترابها المنكود ، يستذلون أهلها عن قرب ، ويسنون لهم القوانين المهينة ، ويجعلون أنفسهم ملوك البلاد وملاكها .

أما أصحاب البلاد الحقيقيون فهم أجراء طارئون لا وزن لهم ولا شرف ...

والغريب أن هناك خطة لتستقل روديسيا ، على هذا الغرار ، فيملك الجنس الابيض نواصى الامور ، ويشتغل الوطنيون بالخدمة .

ثم يقال : ان دولة مستقلة جديدة ولدت على الصعيد الدولى ، وان افريقيا التى كانت مستعمرات كلها وليست بها الا ثلاث دول مستقلة قد أصبحت دولا مستقلة كلها وليس بها الا جيوب من الاستعمار البرتغالى فى أنجولا ينتظر أن تنتهى !!

وبديهى أن هذا طراز من الاستقلال لا يقبله عاقل ، فهو تخليد للهوان البشرى ، واضفاء صورة قانونية مزورة عليه كى يمر ..

واذا كانت التفرقة العنصرية تهدر كل قيمة لهذا الاستقلال المنتحل ، فان التفرقة الدينية لها هذا الحكم نفسه ..

لقد لاحظنا ان الاستعمار الغربى عندما يشكل الحكومات التى تخلفه فى ادارة البلاد التى نالت « استقلالها » يجتهد فى محاربة الدين الذى تعتنقه الكثرة وفى سلب أنصاره كل طريق الى السلطة .

ان الحكام الذين رباهم فى جامعاته أو فى كنائسه هم وحدهم موضع الثقة ، ومناط الكفاية ، وهم وحدهم بيئة الحكم ، ومصدر التشريع .

وقبل أن نعرض النماذج من القارة التى نعيش فيها نلفت النظر الى حالة فيتنام الجنوبية .

فان البوذية هناك دين اربعة اخماس السكان ، ولكن القلة الكاثوليكية هى التى تستبد بالدولة وتفرض عليها صبغتها ، وتعامل جماهير البوذيين معاملة شائنة .

ان الحريات الدينية مختنقة فى هذه البلاد .

وعندما شرع الرهبان البوذيون يحرقون أنفسهم فى الميادين العامة كى يستصرخوا الضمائر لنجدتهم ، كانت زوجة الحاكم الكاثوليكى تعدهم قطيعا من الدواب ، وتقول : انها تشم عند احتراقهم رائحة الشواء !! فاى استقلال هذا الذى يسمح لقلة ـ مهما كان شانها ـ أن تبطش بسواد الامة على هذا النحو ؟

انه للاسف الاستقلال الذى تسمح به دول الغرب لكثير من الحكومات فى العالم القديم !

استقلال لا يسمح للامم ان تفكر كما تحب ولا ان تعتنق ما تهوى، ولا أن تتبع ما تعتقد ...

لقد تغير شكل الحكم وبقى موضوعه ، او تغيرت الادوات الفاعلة بعد الاطمئنان الى النتيجة المنشودة .

أى أن الاستعمار الخارجى ولى وقفاه استعمار داخلى فى صورة استقلال تام .

ان الحرية الحقيقية هى أن تستطيع جماهير الملونين فى وطنها ووطن آبائها أن تسود وتعز ، فلا يكون للتفرقة العنصرية أى ظل .

وان الحرية الحقيقية أن تستطيع جماهير المتدينين بأى دين ، سواء أكان الاسلام أم غير الاسلام أن تحيا وفق عقائدها دون مصادرة أو افتئات او غربة !

وأى استقلال يقوم على الاضطهاد الجنسي أو الدينى فهو استقلال مفتعل أو هو امتداد للاستعمار القديم .

***

قلنا أن افريقيا العربية كانت أسبق الى استرداد حريتها من أفريقيا السوداء .

بل كانت فى الجملة أعصى على أحقاد الغرب واهوائه من بقية أجزاء القارة .

والفضل فى ذلك للاسلام الذى جعل الشعوب العربية اعز نفسا واشمخ انفا من ان تقبل الاحتلال الاجنبى أو ترضى بالهزيمة الطارئة .

من اجل ذلك نشبت ثورات التحرير فى افريقيا العربية من اول يوم هبطت فيه قوات الغزو .

قاتل المصريون انجلترا ، وقاتل الليبيون ايطاليا ، وقاتل ابناء المغرب الكبير فرنسا .

وظلت نيران المقاومة الباسلة مشتعلة حتى اضطر المهاجمون آخر الامر الى الانسحاب وهم كارهون .

وكان العرب الثائرون فى وادى النيل والشمال الافريقى كله يشعرون أنهم ابناء حضارة أرقى ، ولغة أشرف ، وديانة هى الحق كله .

ومن ثم فقد ابوا بجفاء وكبرياء ان يهجروا لغتهم العربية ، أو ينسوا تاريخهم العريق ، او يفرطوا فى دينهم الطهور .

وعجز الاستعمار مع طول محاولاته أن يقتل لغتنا او ديننا ... وان كانت له ذيول نعمل بعد اجلائه على ايرادها ذات المصير حتى تخلص لنا مواريثنا المادية والروحية دون شوائب ..

اما افريقيا السوداء فقد كانت حالتها على العكس من ذلك .

ولنرجع قرونا الى الوراء لنرى جذور مشكلتها .

لقد استطاع المتطوعون من العباد والتجار أن ينشروا الاسلام فى ارجاء الصحراء الكبرى ، وان يسيروا مع مجرى النيجر والكونغو والنيل حاملين دعوتهم الكبرى ومدخلين افواجا من الزنوج فى الاسلام .

الا أن هذه الدعاية الناشطة لم تمض فى الطريق حتى نهايته .

وذلك لأنه لم تكن للدعوة اجهزة منظمة تتابع تقدمها وتزيح العوائق من أمامها ..

ثم أن الأمة العربية التى كان يجب أن تغذى جهود المتطوعين سقطت هى نفسها فى حوزة السلطان التركى ، فبقى الاسلام وحده فى احشاء القارة السوداء ينمو كما تنمو الزراعات البدائية فى الاقطار المتخلفة .

ومتى حدث ذلك ؟ فى الوقت الذى شرع فيه الأوروبيون يكتشفون المجاهل ، ويبعثون الرواد ليعرفوا حقيقة هذه الاجزاء المبهمة من أرض الله ، وليضعوا ايديهم عليها كى تكون لهم ملكا خالصا ..

ولا شك ان اكتشاف افريقيا السوداء اخر اهلها اكثر مما نفعهم ،

خصوصا فى القرون الخمسة الاخيرة ، فان الأوروبيين لم تكن لهم وظيفة الا خطف الانسان الافريقى وبيعه فى الاسواق وتشغيله بأعمال السخرة.

والعشرون مليونا من زنوج أمريكا هم احفاد من بقى حيـا من آثار هذه المأساة المزعجة .

ووسط هـذه الاحداث وفى أعقابها اخذت الدول الغربية تبعث بالمبشرين ، سواء من الكاثوليك أو البروتستانت لنشر المسيحية ، ونشر اللغات الأوروبية .

ويجب أن نعترف بأن الاسلام لم يكن قد صفى الوثنيـة من قلب القارة ولا من أطرافها الاخرى ....

نعم لقد دخل فى الاسلام كثيرون ، ولكن جماهير كثيفة ظلت على وثنيتها لا لشىء الا لان الحـق لم يلـح لعينهـا ، فهى لا تدرى شيئا ...

واستطاعت المسيحية أن تنشر تعاليمها فى دائرة محـدودة ، واستطاعت — وهو المهم — أن تلحق نفـرا من اذكياء الزنوج بمعاهد أوروبا ليكونوا بعد تثقفهم اولياء للغرب ومعابر لرغباته .

لكن تاريخ الرجل الابيض ، وجشعه الموصول لم يعينا على نجاح خطته ، فاستيقظت روح التمرد فى جنبات القارة السوداء ، وقررت ان تكسر قيودها وأن تستعيد كرامتها مهما كان الثمن .

***

واسعف الاوروبيين مكرهم للخلاص من هذا المأزق ، فتركوا أغلب دول افريقيا ينال استقلاله بعد أن اتخذوا الضمانات لامور ذات بال .

ان الاسلام هو الدين الاول فى افريقيا ، واتباعه يكونون ثلاثة ارباع القارة ، وزحفه الهادىء على حساب الوثنيات القديمة يضاعف رقعته ويزيد قوته .

والأوربيون يكرهون الاسلام أشد الكره ، ويتعصبون ضده اقبـح التعصب .

انهـم يسـالمون الشيوعية ولا يسـالمونه ، ويقبلون الوثنيـة ولا يقبلونه !

واذن فلابد من صياغة الاوضاع السياسية الجديدة للقارة بحيث تجمد النشاط الاسلامى ان لم تستطع سحقه..

ومن ثم رأينا الكثرة المسلمة فى كثير من دول القارة محرومة من الحكم ، كما رأينا الكثرة السوداء فى روديسيا وافريقيا الجنوبية محرومة من الحكم !

لماذا ؟ لان المستعمرين البيض يكرهون الاسلام واهله ، ويحبون انفسهم ومنافعهم فقط .

***

نريد بصراحة حاسمة ان نقول : لن تستقل شعوب أفريقيا استقلالا صحيحا الا اذا كانت حكوماتها صورة صادقة لشعوبها وتعبيرا واضحا عن ارادتها وأملها .

أما ان تفتح الشعوب اعينها على حكم يزدرى لونها او دينها فليس هذا الحكم منها ، وانما هو عليها .. ان التفرقة العنصرية والدينية امتداد للسيطرة الاستعمارية القديمة وليست بشيرا أبدا بعهد استقرار وطمأنينة ..

ان جهود دول غرب أوروبا ومن ورائها العون الامريكى المادى والادبى — دائبة على تدويخ الاسلام واذلال أهله فى افريقيا كلها .

وقد دخلت اسرائيل هى الاخرى فى هذا المضمار الخسيس وشرعت بأساليب الختل والمكر تكيد للعرب ، وللرسالة العظمى التى حملوها .

وبين يدى وانا اخط هذه السطور تقرير لطبيبة مسلمة غيور ، شاهدت طرفا من المأساة التى يصنعها الاستعمار من وراء ستار ، ثم عادت لتقص علينا بعض ما رأت .. قالت الدكتورة زهيرة عابدين :

دعتنى هيئة الصحة العالمية بالاشتراك مع هيئة اغاثة الطفولة الدولية ضمن ستة أطباء أطفال من جامعات مختلفة لزيارة بعض دول شرق واواسط أفريقيا للاطلاع على ما يبذل من جهود صحية واجتماعية فى هذه البقاع . اذ يقوم المستعمر الآن بالتعاون مع هذه الهيئات وغيرها بنشاط متسع فى هذه الميادين خصوصا فى السنوات الاخيرة . وكأنه أراد أن يستبدل بالاستعمار العسكرى غزوا من نوع آخر تحت ستار العلم والخدمات — ولقد اثرت هذه السياسة فى القادة والشعب

عموما وبات ينظر الى مستعمر الامس على انه كصديق اليـــوم الذى لا غنى عنه ٠

نقد زرت اثيوبيا ثم كينيا ثم تنجانيقا ثم زنزبار ثم اوغندا وكلها دول نالت استقلالها حديثا تتطلع للنهـوض وتحتـــاج الى كثير من العون والارشاد ٠

فماذا وجدت ؟

هب المستعمر ولبى وهبت اسرائيـــل التى لم يكن لهـــا اى اثر ولا نفوذ منذ عامين ونشطت وعملت جاهدة بشتى الاساليب الممكنة على التغلغل فى هذه الشعوب بأساليب اجمل منها الآتى :

١ ــ الاكثار من دعوة الوزراء والقادة السياسيين واصحاب النفوذ والسلطان الافريقيين غالبا فى اثناء عودتهم من الخارج حتى لا تتحمل نفقات السفر الى اسرائيل ثم تعمل جاهدة على تشبيعهم بفكرة عبقريتها وقدرتها الانتاجية وتقدمها ونشاطها فى مختلف الميـــادين وغير ذلك مما يشجعهم على فتح الباب للصهيونية بين جماهير الافريقيين ٠

٢ ــ المبادرة بعرض خدماتها لكل مشروع تشتم رغبة الحكومة فيه او حاجة البلاد اليه ٠

والواقع ان الانجليز والغرب عموما ما زالوا قابضين على السلطة الحقيقية حتى فى البلاد التى نالت استقلالها ، فمثلا وزير الصحة هو وزير سياسى واسمى ، فى حين أن مدير الصحة وهو انجليزى يسيطر على معظم شئون الصحة وهكذا ٠٠٠ وهؤلاء المستعمرون يمهـــدون لتغلغل اسرائيل ويسهلون لها الامر بكافة الطرق ٠

٣ ــ الاكثار من دعوة المبعوثين من أهل البـــلاد الافريقية الى برامج ثقافية (فى الغالب قصيرة) ليرجعوا ويقبضوا على السلطات المختلفة ويكونوا اداة لتنفيذ رغبات اسرائيل او سياستها ٠

واذا كانت هذه البلاد مفتقرة عموما الى معونات كثيرة للارتقاء بالتعليم على اختلاف انواعه والنواحى الاجتماعية والصحية واستصلاح الاراضي وزيادة الدخل ٠٠ الخ فان مسلمى هذه البلاد خصوصا يقاسون ظلما اجتماعيا يدعو للاسف والحسرة ٠

حتى فى البلاد التى تتمتع بأكثرية مسلمة كتنجانيقا وتعـدادها حوالى ١١ مليون منهم اكثر من ٦٥٪ من المسلمين ٠

الحاكم مسيحى وجل الوظائف الحكومية يشغلها مسيحيون ٠

اما المسلمون فهم فى جهل وفقر وذل اجتماعى .

ويرجع ذلك لسياسة المستعمر وأساليبه فمنذ دخل المستعمر هذه البلاد دأب على نشر المسيحية والقضاء على الاسلام (سواء لاغراض دينية بحتة بالرغبة فى الانتقام للحروب الصليبية او لأغراض دينية ممتزجة بأغراض سياسية وهو الغالب) وذلك على النحو الآتى :

تقوم بالتعليم مدارس تبشيرية يتجنبها عادة المسلمون الذين لبثوا فى حالة جهل فى حين تخرج من هذه المدارس طائفة الافريقين الذين اعتنقوا المسيحية وأسندت اليهم القيادات وشتى الوظائف الهامة .

وضع القيادات العليا فى يد افريقى مسيحى حتى فى البلاد التى يكون المسلمون فيها الاغلبية كما قلت .

ولقد علمت أنه أول ما دخل الانجليز أوغندا عزلوا الحاكم المسلم ووضعوا قانونا بألا يتولى الحكم الا مسيحى .

الى جانب هذا تغلغلت البعثات التبشيرية فى كافة انحاء هذه البلاد تشيد المدارس ودور الحضانة (تربى الايتام وأولاد الفقراء على المسيحية) والمستوصفات وتساندها الآن الهيئات المختلفة (هيئة اغاثة الطفولة الدولية ، هيئة نافيلد وروكفلر .. الخ) والجامعات وأهل العلم (أطباء ، وعلماء ...) .

كل هؤلاء يعملون على نشر المسيحية تحت ستار العلم ويساندون الهيئات التبشيرية بشتى الطرق المدروسة المنظمة وهكذا نجح المستعمر فى تحويل جل بل كل القبائل اللادينية الى المسيحية (فى اوغندا وتعدادها ٨ ملايين اكثر من ٨٥٪ مسيحيون الآن ، وفى كينيا وتعدادها ٨ ملايين اكثر من ٦٥٪ مسيحيون) ولم يبق سوى قبائل قليلة لا تعتنق ديانات سماوية .

وهنا اريد ان أوضح أن المجهود التبشيرى مركز على بث روح تعصب وكراهية للمسلمين وكبرياء عليهم لا على روح دينية وخلق سليم فى مسيحية اسمية يسمح فيها بتعدد الزوجات ... الخ مادام الشخص مسيحيا بالاسم ويذهب الى الكنيسة ويحقد ويتعصب ضد المسلم ويشعر بأفضلية عليه .

هذا وقد اتخذت أساليب شتى لاشعال روح الكراهية بين الافريقيين المسيحيين والافريقيين المسلمين من ناحية وبين الافريقيين عموما والعرب المسلمين من ناحية أخرى .

فنشطت دعاية كبيرة ، اساسها استعباد وتسخير العرب للافريقيين فى الماضى ٠

فمثلا فى صالة الاجتماعات الشهيرة بأديس ابابا أول ما يسترعى النظر فى شباك زجاجى كبير بجوار السلم الداخلى رسومات ملونة تمثل العربى بعقاله يقود جماعة من الزنوج الافريقيين مربوطا بعضهم ببعض بالسلاسل ٠

وصورة أخرى تمثل هؤلاء الزنوج وهم يفكون عنهم هذه القيود ويتخلصون من هذا العربى الظالم العاتى ٠٠

وحوالى نصف متحف تنجانيقا بدار السلام عبارة عن صور فوتوغرافية ورسومات تصور هذا المعنى ٠

ولقد قيل لى ان الافريقى الآن يتعلم ويشبع بخطر المسلم (والمصرى خصوصا) ويقال له ان خطر المسلم والعربى أكبر من الخطر الشيوعى ٠

اما الاقلية من الافريقيين المسلمين الذى ينالون قدرا من التعليم العالى (ثانوى أو جامعى) فالجهود منصبة على افسادهم خلقيا ٠

يوحون اليهم أن المدنية فى شرب الخمر والعرى والتسابق على المادة وغير ذلك مما يجعل تعاليم الاسلام فى الواقع اقرب للخيال منها للواقع ويجعل المسلم مسلما بالاسم لا غير ٠

اما المسلمون الفقراء والجهلاء ، فقد بدأ بعضهم بالاغراء وتحت ضغط الفاقة يتحول فعلا للمسيحية (كما علمت أن نسبة المسلمين فى تنجانيقا كانت حوالى ٨٥٪ والآن هى حوالى ٦٥٪ فقط) ٠

فالمسلم الافريقى عموما معرفته بدينه سطحية بالنسبة لجهله باللغة والدين وسأعرض بشىء من التفصيل الى التعليم والنشاط الموجود حاليا فى أوغندا حيال المسلمين :

المدارس التى يرتادها المسلم هى :

١ — اما كتاتيب بتحفيظ بعض آيات قرآنية للاطفال يجهل معناها التلميذ والاستاذ على السواء (اذ كلاهما يجهل اللغة العربية وثقافته بدائية) ٠ ويكتفى بحفظ الصلاة وبعض الآيات عن ظهرت قلب ٠ ولا تعلم أيا من العلوم الكونية ، واغلبية المسلمين الذين يتلقون العلم يذهب الى هذه الكتاتيب ٠

٢ ــ مدارس ابتدائية أهلية (اقامتها هيئات اسلامية خاصة) وهى تحت اشراف رابطة التعليم الاسلامية وبعضها يتبع الطائفة الاسماعيلية ويعلم مذهبهم وبعضهم الطائفة الاحمدية وبعضهم السنية وبعضهم مدارس الشيعة . ولما كان اغلبية الافريقيين المسلمين هم من السنة فلا يغشون الا مدارس السنه . وتدرس هذه المدارس البرنامج الحكومى للمدارس الابتدائية ولا تدرس المسيحية (وهذا هو مايميزها عن مثيلاتها من المدارس الحكومية) ولكن لسوء الحظ فهى لا تدرس ايضا الدين الاسلامى او اللغة العربية (فهناك مثلا مدرسة اسمها مدرسة البنات الاسلامية وفيها حوالى ٤٠٠ بنت) وللاسف ليس فيها دراسة اسلامية او لغة عربية ولقد سألت المختصين عن ذلك فقالوا انهم لا يجدون المدرس الذى يمكنه القيام بهذه الدراسة . وهناك عدد محدود جدا من المدارس المماثلة الثانوية . وكل من المدارس الابتدائية او الثانوية بمصروفات ومن المتعسر على أكثرية المسلمين الافريقيين الانتفاع بها نظرا لفقرهم وصعوبة المواصلات اليها .

وهناك المدارس الحكومية بمصروفات ايضا وتدرس الدين المسيحى ولا يتمتع بها الا القليل من المسلمين . وأخيرا المدارس التبشيرية وهى الأغلبية وبمصروفات وتدرس العلوم الكونية وبجانبها تهتم كثيرا بتدريس الدين المسيحى ، وبالطبع لا يكاد يرتادها المسلمون .

ان اهتمامنا ببلاد متاخمة لنا ويستولى بعضها على منابع النيل أمر حيوى لا يحتاج الى تبيان وان التعجيل بالحد من نشاط اسرائيل وعدم توسعها وقبضها على زمام كل الامور ضرورة لا مراء فيها وهذا كله لا يتأتى الا اذا حاولنا ان نوثق روابطنا بهذه البلاد بمعاونتها فى نهضتها فى ميدان الخدمات الاجتماعية والصحية ونشر العلم والثقافة وشتى نواحى التقدم الاقتصادى (زراعى وصناعى وفنى .. الخ) .

***

(٣) القتل أو الاستغلال

احسب تاريخ العالم لا يعرف فى سجله الطويل أسوأ من مدنية الغرب فى معاملة الآخرين ، وتجاهل مصالحهم ، ومصادرة حقوقهم ؛

بل انه لا يعرف أسوأ من هذه المدنية فى اراقة الدماء بغزارة ، والنهم لحرمات بنهم ، وتجسيم الاثرة الباغية تجسيما يحجب كل ما وراءه من خير وعدل ، لا ، بل ان هـــذه المدنية تتميز ببراعتها الفائقة فى فرض اثمها على انه شرف ، وابراز شهواتها وكأنها قوانين نزيهـــة !

فالخير ما عد عليها وحدها بالنفع وان كسر قلوب الآخـــرين ، والعدل ما سوغ حيفها وان شاء وجه الحق واستخفت معـــالمه تحت ركام من الاقذار ..!

الطابع الغالب على ابنـــاء « اوروبا » انهم قســـاة القلوب ، وأن بطشـــهم بأعدائهم ـ اعنى من يرونهـــم اعداءهم ـ يتســـم بالجبروت والفظاظة ، وأن تدمير المدن ، وازهاق الارواح ، واهلاك الحـــرث والنســـل ، اعمال ترتكب وكأنها مســـلاة هينـــة ، أو عبث مأمون الجزاء ..!

عندما غزا الانجليز « استراليا » اخذوا ينزلون بالبقاع الخصـــبة منها ، ورسموا سياسة دقيقة لمنع سكانها الاصلاء أن يشركوهم فيها .

وكلما تكاثر الغزاة اشـــتد دفع الاهلين عن الموارد العامرة الى الصحارى المتلفة كى ينقرضوا فى صمت !

وليتهم ينقرضون فى صمت يحسه المجرم وهو يواقع المنكر ! ان المستعمر المجرم هنا ـ وهو يفعل فى الخفاء فعلته ـ يملأ الدنيا ادعاء بأنه رسول الحضارة والارتقاء والسلام !

والذى فعلته « انجلترا » فى « استراليا » فعلت مثله « ايطاليا » فى « طرابلس » .

فقد نزل المستعمرون الغرباء على الســـواحل النقيـــة ، وشرعوا يقاتلون العرب عليها ، ويذودونهم عنها ، فاذا رضيت بعض القبائل أن تعيش خدما للفاتح الغالب انتهزوا لهـــا أول خطأ ـ أو اختلقوه ـ ثم حكموا على شباب القبيلة بالموت رميا بالرصاص ، وطاردوا البقية الى الصحراء ، نساء وأطفالا وشيوخا ، لتجد فى الرمال الغـــبراء قبرا يواريها ان لم تجد صدرا يستقبلها ..!

ولا شك ان فى الامم من يسخط لهذا المصير ، ومن يقاوم القتلة وهم يجذبونه اليه .

وهنا تقع الطامة ، فان اطفـاء ثورات التحرر تلقى اسلوبا من القمع والتمزيق يثير الرعب ، اسلوبا انفرد به الاستعمار الغربى عن اعصار التاريخ كلها .

نعم ، نحن نعلـم أن الرومان كانوا يرمون خصومهم للوحـوش الجائعة تنهش لحومهم وتهشم أعضاءهم ! ولكن من الخطأ ان نحسب زبانية الاستعمار الحديث اقل سفالة من قدماء الرومان . ففى اخمـاد الثورات المتكررة التى اندلعت نارها فى « فلسطين » ضـد الحـكم الانجليزى ارتكب ما هو أقسى من ذلك وانكى .

ربما لم تستجلب سباع من الغابات لالتهام المعذبين المحكوم عليهم بالموت لا لشىء الا لان آلات التعذيب المستحدثة تسد مسدها ، وبخاصة اذا اشرف على ادارتها رجال غاضت من قلوبهم معانى الرحمة ، فهم ذئاب مسعورة فى صور اناسي !

الم تكن القرى الآهلة تسوى بالتراب اذا عثر فى بيت منها على رصاصة او مسدس ؟ ثم ألم يكن الشباب النضر يقاد الى الموت إقبـح قود ، وبعد طرق من التنكيل والاذلال طافحة بالهول ؟ بلى !

ولقد كان الموت يجىء بعد هذا الشقاء المر اختصارا لآلام فـوق طاقة البشر ، فهو امنية . كما قال ابو الطيب :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا
وحسب المنـايا ان يكن امانيـا ..!

والاستعمار الغربى يستبد به جنون القتل كلما كان المسلمون هم ضحاياه ، وكلما كانت بلادهم هى هدفه .

انه فى هذه الاحوال يستمرىء العدوان ، وينتشي بالدم المسفوك ؟ اليست شهوة الفتك والحالة هذه تحسب عبادة وقربة الى الله ؟ لذلك كانت ضراوة الانجليز فى « فلسطين » ، والطليان فى « طرابلس » والفرنسيين فى « الجزائر » متشابهة تنبع كلها من عين حمئة ، عين تفور بالضغائن والثارات . وتذهل عن الحقوق والواجبات .

وانى — ساعة كتابة هذه السطور — أستمع الى رواية شاهد عيان يصف غزو الحلفاء الثلاثة ، انجلترا وفرنسا واسرائيـل ، لمدينـة « بورسعيد » . قال :

بذل الآهلون قصاراهم فى رد الجنود الهابطين بالمظلات ، واستطاعوا مغالبة الافواج الاولى منهم ، بيد انهم بوغتوا بمئات الطيارات ترجم المدينة بقذائفها الحارقة ، وكان الأفق مليئا بهذه الأسراب المغيرة تغدو وتروح وهى تفرغ الهلاك فى كل مكان !

خمسمائة غارة فى هذا اليوم الاغبر ــ كما نطقت بذلك بلاغات العدو !!

وانضمت سفن الاسطول الى هذا الهجوم ، فاخذت تطلق مدافعها على المدينة اللاغبة ، فرئيت القصور والنار تخرج من نوافذها ، ثم ما هى الا لحظات حتى تندك فوق رؤوس ساكنيها .

وسرى الرعب الى الحيوانات التى تقطن المدينة ، فانسابت تجرى فى شوارعها على غير هدى ، غير ان الرصاص المنهمر لا يدعها تصل الى مهرب ! فأين المهرب للانسان والحيوان فى هذا البلاء المحيط ؟ ولذلك تجاورت فى الميادين والازقة جثة كلب شارد ، وانسان بائس ..

وكانت الجثث المتناثرة كأوراق الشجر الساقطة فى فصل الخريف تكسو الارض المخضبة فى منظر يثير اللوعة .

وأحيانا تجد كوما من الموتى وقع بعضهم على بعض فتساءل : اركموا هكذا بفعل فاعل ؟

والظاهر ان يدا لم تمتد اليهم بعد مصارعهم ! وانما هى طبيعة البشر ساعة الروع ، ان كلا منهم جرى الى اخيه ليأنس به ، او يتعاون معه على مواجهة الصواعق النازلة من الجو ، او القادمة من البحر ، فيدهمهم الموت وهم جميع على هذا النحو .

لله كم هى رخيصة دماء أولئك المسلمين ؟

وحاول أبطال المقاومة الشعبية ان يوقفوا السيل ! فانطلقوا شبه مجانين يدافعون ببنادقهم هنا وهناك . ولكن الاجانب من سكان « بور سعيد » واشباه الاجانب من المحسوبين على مصر ، انضموا الى الغزاة ، واختبأوا فى مساكنهم يتصيدون برصاص مسدساتهم ارواح الرجال الذين انتصبوا للدفاع عن بلادهم ...!

وكان بلاء المسلمين من هذه الخيانات فاجعا .

اهكذا ينسى الجميل على عجل ؟ اولئك الذين عاملناهم بتقاليد

الضيافة والسماحة ، يستديرون لنا فى المحنة ليقاتلونا مع اخوانهم الصليبيين الغزاة ؟

ان بقايا طعامنا لا تزال فى بطونهم ، وآثار كرمنا لا تزال بين ايديهم ومن خلفهم . وها نحن اولاء نتلقى الجزاء العدل منهم !.

فلا غرو اذا احس المسلم وهو يلفظ انفاسه على طوار ، او يسلم روحه تحت ردم ، أن الدنيا تآمرت عليه وشاركت فى قتله ..!

قال امام المسجد الذى يروى هذه المأساة : ولقد دخل الانجليز والفرنسيون المسجد العباسي وشرعوا يحصدون المصلين حصدا ، واظن الجثث التى تراكمت في المسجد تربو على مائتين !

على انه من الرحمة التى تسجل لهم ، انهم بعدما دخلوا البلد المهيض وجدوا رب اسرة يشتد مع زوجه واولاده يلتمس النجاة ، فقتلوا الرجل وحده ، وتركوا المراة التى عجزت عن الحركة ، لان صغارها تشبثوا بجثة ابيهم ينادونه لعله يجيب !

***

ان حضارة الغرب لا ضمير لها ولا قلب ، انها حضارة قطعان استغلت تفوقها العسكرى لتملأ الحياة فسادا ونذالة .

وقد منحت « أوروبا » حق الحياة لبعض الاقطار المتخلفة ، فهل منحتها هذا الحق لتسعد به ؟ كلا !

انه كما استبقى فرعون نساء بنى اسرائيل بعد أن قتل ذكرانهم .

انه استبقاء لمصلحة السادة ومتعتهم لا خير فيه للعبيد أبدا .

وستطالعك انباء هذا الاستحياء فترى فيه ظاهرتين مقترنتين .

الاولى ، الاثرة الشرهة الماكرة المشربة بالفظاظة ، والذاهلة عن حقوق الآخرين ، بل عن وجودهم ، فهى تنظر الى الاقطار الخصبة لا على انها ملك اصحابها ، بل كما ينظر اللص الى متاع اعجبه ، فأول ما يفكر فيه : كيف يسطو عليه ؛ ليستأثر به ؟

وربما لم تكن للاستعمار حاجة عاجلة الى هذه الصفقة الحرام . ومع ذلك يختلسها ويدخرها للمستقبل !

وضعف المالك هو وجده الذى يحرك شهيته للغصب والنهب ، على

حد ما جاء فى امثال العامة : « من اعتـــاد اكلك ، ساعة يشـــوفك يجوع » .

والغزو الأوروبى يتسم دائما بهذا الجوع الى التهام السحت ، وواود اصحابه الاول .

وقد نبه القران الى ذلك بوصيته للمسلمين أن لا يكونوا « **كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم ، وكثير منهـــم فاسقون** »(١) .

والظاهرة الاخرى ، الباس هـــذه القذارة النفسية ثوب العفـــة والترفع ، ومداراة البراثن الملوثة فى قفازات من الحرير .

وقد كنت استغرب كيف يرزق بعض الناس هذه الصفاقة فى فعل المنـكر ، والخروج على الناس فى ثيـاب الواعظين الأشراف ! حتى وجدت أن من يستسهل المناكر لا يعجزه التزوير ولا استحسان السوء .

وقديما كان فرعون يقتل ويستذل ويدعى الالوهية ، ثم يقول فى موسى الذى ينصحه : « **أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهـر فى الأرض الفساد** »(٢) !

والانجليز الذين قتلوا الالوف فى « بور سعيد » لم يروا فى عملهم هذا نكرا . فلما اضطرت حكومة « مصر » الى اخراج الرعايا الانجليز من البـــلاد ، قـال وزير خارجية « بريطانيا » : ان مصر تعاملنـــا بقذارة (!) وبهذا الاسلوب الوقح الصفيق فى قلب الحقائق يسمى عمل أوروبا فى افريقيا « استعمارا » ، وهو أخطر ما عرفتـه البشرية من ضروب الاسترقاق والتخريب .

واليـك خلاصات من كتاب « افريقيـا الامبراطورية البريطانية الثالثة » تصف صنع الانجليز بهذه القارة المظلمة أو المظلومة .

ولنبدأ بجنوب افريقيا :

يتكون اتحاد جنوب افريقيا من اربع مقاطعات خاضعة لنظـام الحكم الذى وضع فى ٣١ مايو سنة ١٩١٥ ، والذى خول سلطة الحكم للبريطانيين والبوير ، وقد منحت الحكومات البريطانية بعض الحقوق السياسية للافريقيين والملونين ؛ وكذلك حق الانتخاب .

---

(١) الحديد : ١٦ .　　(٢) غافر : ٢٦ .

غير ان الذين قيدوا فى جداول الانتخاب ١٢ر٠٠٠ فقط من عدد الافريقيين البالغ ١٥٠٠ر٠٠٠ ٠

وفى « ناتال » توجد حقوق انتخاب صورية للسود ، لم يمارسها فى الواقع سوى القليلين ، هذا مع العلم بأن السكان الوطنيين يربون على تسعة ملايين نسمة ٠٠٠

ومنذ عام ١٩١٣ وأجود الاراضى يمتلكها الفلاحون الاوروبيون والشركات المتحدة ، وتبلغ مساحة الاراضى التى يحويها اتحاد جنوب افريقيا ٤٦٢ر٣٤٧ من الأميال المربعة ؛ قد وزع حوالى ٨٨٪ منها بين ما يزيد على ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ أوروبى ، بينما هناك ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ ــ افريقى وآخرون من غير الاوروبيين يشغلون ما تبقى وقدره ١٢ ٪ من المساحة الكلية للارض ٠

والغريب أنه قبل انحلال النظام القبلى كانت الارض ملكا لجميع الافريقيين ، فلم يكن هناك نظام الملكية الفردية ؛ بل كان ينظر للارض باعتبارها هبة الطبيعة للجميع ؛ يقوم رئيس القبيلة بالنظر فى جميع امورها ، وحل مشاكلها ، ولم تكن الارض تباع ولا تشترى ٠٠٠

وبصدور القانون الوطنى للاراضى عام ١٩١٣ ؛ قضى قضاء تاما على نظام الحياة الاقتصادية الكريمة للافريقيين ٠ كما أصبحت السيطرة على الافريقيين فى يد وزير أجنبى يسمى وزير الاعمال الوطنية ٠

ولقد كان هذا القانون حجر الاساس للناحية الاقتصادية وعليه بنى نظام التقسيم فى اتحاد جنوب أفريقيا ٠

ومنذ ذلك الحين والافريقيون يضطرون للعمل بالقوة ، فى نظام من السخرة يوجب أن يقضى تسعة أعشار السود حياتهم فى عمل جسمانى، أو يدوى ، يستغرق يومهم بأكمله ٠

ويلاحظ أن الكثير من الاراضى المحلية المخصصة للافريقيين غير صالحة للزراعة أو الرى ؛ ومع ذلك يحرم القانون عليهم امتلاك أراضي اخرى ؛ كما يقضي بغرامة قدرها مائة جنيه أو السجن مدة ستة أشهر للأوروبى الذى يسمح لأى أفريقى يرعى قطيعه فى أراضيه الخاصة به !!

وكان من نتائج هــذا النظام الاقتصــادى أن بلغ فقــر الافريقيين اشده ، فشكلت حكومة برئاسة « وليم بيومنت » لبحث الحالة ، وأوصت بتخصيص ٨ر٠٠٠ر٠٠٠ فدان لصالح الملايين المشردة من الافريقيين ٠ ولكن هذه التوصية لم تنفذ ؛ بل صدر قانون سنة ١٩٣٢ واعتبر تأجير

للافريقى لارض خارج نطاق المنطقة المخصصة لبنى جنسه جريمة يعاقب عليها بالجلد او السجن .

والغرض من ذلك الا تسنح الفرصة للافريقى بتحسين حالته المادية .

وعلى العموم كانت القوانين تفرق دائما بين البيض والسود ؛ وتعاقب من يخالفها بالسجن او الغرامة .

وترتب على ذلك الظلم وتلك المعاملة القاسية أن هرب الكثيرون من الافريقيين الى المدن ، وتملك اليأس الآخرين ، وهم حوالى ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ فعاشوا عبيدا للارض التى حرمت عليهم القوانين امتلاكها .

ولابد لكل افريقى يعمل بأرض أوروبى أن يشتغل مدة ١٨٠ يوما فى العام ؛ يحددها السيد كما يشاء ليربطه بالارض طوال العام .

ويفضل السيد ان يصطحب الأسود افراد أسرته للعمل معه ؛ وبعض هذه الاسر يتقاضي أجورا زهيدة جدا ؛ أما الكثرة فلا تتقاضي شيئا .

وليس للافريقى حق مغادرة الحقل الذى يعمل به ، الا بأمر سيده ؛ ومن يهرب يقبض عليه ؛ ثم يرد الى سيده بعد توقيع العقوبة عليه اما جلدا واما سجنا .

وفى حالة بيع الارض تنتقل بما فيها من عمال الى السيد الجديد ؛ ومن هذا يتضح أن كل القوانين توضع لصالح الرجل الابيض .

وفى حكومة « أورنج » الحرة ، يعاقب العامل الذى يفسخ العقد مع سيده بحرمانه من محصول البقعة الخاصة به من الارض . .

وتدل الابحاث والاحصاءات على أن الامراض متفشية بين أغلب الوطنيين ، وأن نسبة الوفيات مرتفعة جدا بينهم .

وتفكير الوطنيين بدائى ، ولا يوجد اتجاه نحو تعليم أطفالهم ، بل ان بعض البيض يمنعون هؤلاء الاطفال من التعليم .

واذا كان هناك وجود للمدارس بالنسبة للسود ، فانهم سوف يعجزون عن شراء اتفه الضرورات لدخولها .

والعجيب أنه يتحتم على جميع السود سداد المصروفات المدرسية اذا رغبوا فى التعلم ، بينما يعفى منها جميع البيض .

وحالة الفقر المدقع بالاضافة الى ضرورة تسديد الضرائب المقررة

تدفعهم الى العمل لدى البريطانيين بأجور زهيدة لا يكاد يتصورها العقل .

* * *

وعلى كل افريقى من الذكور بين الثانية عشرة والخامسة والستين — سواء أكان يؤدى عملا ام لا عمل له — أن يدفع ضريبة الراس ، وقدرها « شلن » ، وضريبة الكوخ ، وقدرها عشرة « شلنات » سنويا ..!

وللصبية الذين يرعون الاغنام نظير اجور زهيدة قدرها خمسة شلنات شهريا . ويدل مظهرهم على انهم قد بلغوا الثامنة عشرة ، يتحتم عليهم دفع ضريبة الرأس ؛ وهذا يكون ٥٠ ٪ من الضرائب ؛ فى الوقت الذى يعفى فيه فقراء البيض من أية ضريبة مباشرة .

وقبل الحرب الاخيرة كان الاوربيون الذين يبلغ دخل الواحد منهم ٥٠٠ جنيه أو اقل لا يدفع شيئا ؛ كما أن الاوربى لا يطالب بالضريبة قبل الحادية والعشرين من عمره .

وتستعمل عادة طرق وحشية فى جمع الضرائب ، كأن تحاط مساكن السود بالجنود فى أوقات متأخرة من الليل ، أو فى الصباح الباكر ؛ ثم تطلب ايصالات السداد ؛ فاذا لم تحضر فورا ضربوا وركلوا ؛ ثم قذفوا فى عربات البوليس حيث يودعون السجون ، ويسخرون فى رصف الطرقات ، واداء الاعمال الاخرى .

ويتضح ان كثيرا من جرائم الافريقيين ترتكب نتيجة للبطالة التى تواجههم عقب خروجهم من السجن ؛ وشدة الحاجة للمال اللازم لقضاء ضرورات الحياة ، كما أن الجهل عامل آخر للجرائم ، ولكن الحكومة لا تحاول بناء مدارس لتحارب الجهل ، بدلا من بناء السجون لهؤلاء التعساء ..!

وينص القانون على ألا ينتقل الافريقى من بلدة الى أخرى لأى سبب من الاسباب دون تصريح خاص .

ويحتم نظام التفرقة فى جنوب أفريقيا : أن تحكم القلة من البيض الكثرة من السود .

وقد أدى ازدياد مساحة الاراضي الزراعية الى زيادة الحاجة للايدى العاملة من الافريقيين ، وترتب على هذا حدوث صدام بين ملاك الاراضي من ناحية ، واصحاب المناجم من ناحية أخرى ، اذ كلاهما

يريد احتكار السود له ، ونتيجة لذلك وضع نظام خاص لتوزيع العمال حسب الحاجة كما يقررها السادة ، اما الزائدون فيردون للعمل من حيث اتوا ! .

لقد ادى التقدم الصناعى الى القضاء على مجتمع « البانتو » القبلى ؛ وفى خلال السنين العشر الاخيرة كثرت هجرة الافريقيين الى المدن حتى اصبح من يقطنها منهم يزيدون على مليونين ؛ وهم يقومون بخدمة الأوروبيين نهارا ، ثم يعودون للجهات المخصصة لهم فى المساء ، بوسائل النقل التى اعدت لهم وحدهم ! فالقانون يحرم عليهم الوسائل الخاصة بالبيض .

كذلك تخصص للسود والكلاب مصاعد فى العمارات الكبيرة .

ويحرم القانون السود من الجلوس على مقاعد البيض بجوار البحيرة ، ومن يخالف القانون يجلد أو يزج فى السجن .

والاحياء الوطنية قذرة للغاية ؛ والبيوت لا تتعدى أن تكون اكواخا من الطوب القديم ، يعيش فيها الاصحاء من الصبية ، يأكلون وينامون فى نفس المكان مع المرضي بالسل .

وقلما توجد أسرة لم يمرض احد افرادها منه ! والمرض عموما منتشر بين الوطنيين بنسبة كبيرة ، والعلاج يكاد يكون منعدما .

ففى بعض الاحياء يوجد طبيب واحد لعلاج أربعين ألفا من السكان . ولا يوجد علاج بالمجان ؛ لذلك نجد أن ٦٥ ٪ من الاطفال يموتون قبل ان يصلوا الى سن الثانية من عمرهم ، وتصل نسبة الوفيات عادة الى ٥٠ ٪

وتظهر التفرقة بين البيض والسود حتى فى الموت ، اذ يخصص للاخيرين مدافن بعيدة .

انه لمن العسير ان يتصور من لم ير بنفسه الحياة فى جنوب افريقيا ما يجرى هناك من عنف وتعسف فى المعاملة .

وحدث عن قسوة رجال البوليس وكبتهم للحريات ، وكيف تنهب الاموال التى كسبت بعرق ودماء الملايين من السود ، بدلا من استغلالها فى تحسين حالهم .

واذا جرؤ افريقى على نقد هذا النظام ، وقف عند حده ، بالزج فى السجن ، أو النفى دون محاكمة ...

***

ويعمل بمناجم الذهب « بالترنسـفال » ما يقرب من ٤٠٠ر٠٠٠ افريقى و ٢٠ر٠٠٠ اوربى ، ويعمل حوالى نصف الافريقيين بالقـوة ؛ كما يرحل حوالى ٦٣ر٠٠٠ بالقوة ايضا الى عدة جهات، مثل«نيوزيلندا» و « روديسـيا » الشماليـة ، و « تنجانيقـا » ، كذلك يمكن احضـار ١٠٠ر٠٠٠ عامـل سنويا من مقاطعة جنوب شرق افريقيـا البرتغالية « بموزمبيق » للعمل بالمناجم .

ويمكن القول بأن جميع هؤلاء العمال مسخرون ، لأن ما يصرف من اجور لهم ضئيل جدا ؛ فبينما يتقاضى الأوربى عشرين شلنا يوميا، يتقاضى الافريقى ٢ر٨ من الشلنات مضافا اليها الغذاء .

ويصل متوسط ما يتقاضاه الاوربى خمسة وأربعين جنيها شهريا ، اما السود فليس لهم متوسط يذكر .

ومن العجيب ان أرباح شركات التعـدين باهظـة ، وتزيد على خمسين مليونا من الجنيهات سنويا ، حصة الحكومة منها ٢٧ر٥٠٠ر٠٠٠ جنيه ، ويوزع على أعضـاء الشركة ما ينوف على ١٧ر٠٠٠ر٠٠٠ من الجنيهات .

ورغم ان هـذه الثروة انما يأتى بها العمـال الأفريقيون ، لم تزد اجورهم منذ عام ١٩١٤ حتى اليوم .

ولقد كان مستوى المعيشة فى جنوب افريقيا قبل الحرب العالمية الثانية اكثر جهات العالم ارتفاعا ؛ وما زال كذلك حتى اليوم ؛ ويضطر العامل الافريقى الى شراء ضروراته من الاسواق الاوربية ؛ ومع ذلك لا يتقاضي أجورا أوربية .

وليس هناك قانون يمنع الافريقيين من تكوين الجمعيات التجارية أو الصناعية ؛ غير انهم لا ينتفعون بمثل هذه المشروعات أمام البيض الذين تعمـل القوانين على حمـاية منتجاتهم وتجارتهم ؛ وعلى دوام استيطانهم للبلاد التى غلبوا عليها ..

***

وينشر البريطانيون نظمهم فى المقاطعات التابعة لهم فى هـذه الجهات بسرعة ، حيث يحلمون بتكوين حكومة « دومنيون » جديدة للبيض هناك ؛ وتقع مسئولية الحكم حاليا بأيدى الموظفين الانجليز ، كما يرتبط الافريقيون الى حد كبير بروديسيا الجنوبية ، ويخشون أن

يسمح هذا الارتباط فيشمل تطبيق النظم المتبعة فى الجنوب ؛ وهم محقون فى هذا ؛ فلقد اصبح ٢٠٫٠٠٠ — أوربى يسيطرون فعلا على أجود الاراضي فى روديسيا الشمالية ، بينما تسيطر الشركات الاجنبية على السكك الحديدية ، وطرق المواصلات الرئيسية ، وجميع منابع الثروة .

ويعيش المليون ونصف من السود فى المنطقة الموبوءة بذباب « التسى تسى » ، مما يضطر الاهالى الى الهجرة بحثا عن العمل فى مناجم النحاس ، بينما يرحل آخرون الى روديسيا الجنوبية واتحاد جنوب أفريقيا للعمل لتسديد الضرائب ، وتتبع فى « روديسيا » الشمالية نفس نظم التفرقة بين البيض والسود المتبعة فى روديسيا الجنوبية وجنوب افريقيا .

***

ان استغلال الاراضي الافريقية هو الدافع الاول للاستعمار الاوربى ؛ ولولا هذا الغرض لما تمكن البيض من استيطان هذه المناطق الحارة ، مهما عظم الامل فى كثرة الارباح .

فمثلا فى روديسيا الشمالية يملك ٢٠٫٠٠٠ من المستوطنين مساحة قدرها ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ فدان من الاراضي الزراعية يزرع منها فعلا ١٠٠٫٠٠٠ فدان فحسب .

وقد أخذ فى اعداد مليونين من الافدنة للاعمال الخاصة بالمناجم ، بينما تسيطر شركة اتحاد جنوب أفريقية البريطانية وفروعها على ما يقرب من ٦٫٢٥٠٫٠٠٠ فدان تحتوى على مراكز التعدين .

والنحاس هو « الملك » فى شمال روديسيا حيث يكون ٩٠ ٪ من صادرات المستعمرة ، ويقدر الصادر منه فى النصف الاول من عام ١٩٤٠ بما قيمته ستة ملايين من الجنيهات ، وقد اكتشف النحاس عام ١٩٢٥ فقط ، ولكن ايراده خطا خطوات واسعة .

ففى عام ١٩٣٥ قدر الصادر منه ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه زادت عام ١٩٣٧ فبلغت ١١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، ولقد بلغ الصادر منذ الحرب الاخيرة ٣٠٠٫٠٠٠ طن فى العام ، فلحقت بذلك الحمولات الكندية التى كانت اعلى حمولات العالم الى مدى قريب .

والرصيد فى المقاطعة حوالى ٧٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ طن ، ويستخدم فى

الصناعــة عــدد من الافريقيين يتراوح بين ٠٠٠ ر٢٦ و ٠٠٠ر٢٨ ومن الاوربيين ما بين ٣٥٠٠ و ٣٨٠٠ ٠

واغلب الاوربيين ياتون من جنوب أفريقيا وروديسيا ، ويتقاضون مرتبت بين اربعين وسبعين جنيها شهريا ٠

بينما متوسط ما يتقاضاه الافريقى من العمل مدة ثلاثين يومـــا ستين شلنا فقط ، والكثيرون يتقاضون ما يزيد قليلا على تسعة واربعين شلنا شهريا ، اذ أن الأجور تزداد حسب نوع العمـــل : فوق الأرض أو تحتها ٠

ويصرف حوالى مليون جنيه سنويا للموظفين الأوربيين ، بينما عشرة اضعافهم من الأفريقيين يتقاضون ٠٠٠ر٢٥٠ جنيه فقط ٠

* * *

ويحتج الاوربيون المستوطنون شمال روديسيا غالبـــا عــلى شركة جنوب أفريقيا البريطانية التى تفرض ســلطانها على المناجم ، فتصل ارباحهــا حوالى ٠٠٠ر٥٠٠ جنيه سنويا وأكثر ، وتتحــكم فى ٧٠٨ر٢ ـ أميال من السكك الحديدية ـ كما يخشون قوة الانجليز الذين يعملون لصالح بلادهم ، والذين قد يندمجون فى الشمال والجنوب ، وتصبح امور التعدين كلها فى أيديهم (١) ٠

* * *

اقرات هذه الحقائق كلها ؟

هذا هو مسلك حضـــارة الغرب الصليبى نحـــو الأقــطار التى نزلت بها ٠

لو ان افناء أهل البلاد الأصلاء كان أجدى على الفاتحين لأفنوهم جميعا ٠

اما وهذا الافناء السريع يحرمهم الألوف المؤلفة من الرقيق الكادح الذليل ، فلا حرج من اســتحيائهم ، على أن لا يتجاوز محياهم هــذا النطاق المهين ٠٠٠

* * *

---

(١) هذا المرجع للكاتب الانجليزى « جورج باديمور » والترجمة لمحـرر صحيفة الجمهورية السيـاسي ٠ وقد أطلنا الاسـتشهاد ليطلع القـارىء العربى على مآس بعيدة عن عينه وعن علمه !٠٠

ولا جدال فى ان الدين الذى يملى هذا السلوك ليس النصرانية ، أو غيرها من شرائع الله ، انما هو دين الهوى وحده ، الهوى الذى قال الله فى عبيده :

« افرايت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله » (١) ...

« ارايت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » (٢) ...

هذا الهوى الجامح الظلوم هو سر المآسي التى قارفتها أوربا عندما مال ميزان القوى الى جانبها ، وملكها زمام الغزو والفتح فى آفاق العالمين ...

نحن نغرب مع ذلك لا يزعم أنه مسيحى فحسب ، بل انه ليحتضن هذه المسيحية ، ويستصحب رجال الكنيسة معه وهو يخترق أعماء القارات المظلمة ، فما مبعث تلك الهمجية التى تقارن زحف الصليبيين حيث كان ؟

مبعث ذلك أن الدين لدى « الأوربيين » عصبية محركة ، لا عقيدة واعية

والدين عندما يكون عصبية يكون أول شيء يتحمس له الانسان ، وآخر شيء يعمل به !

ولا قيمة لعاطفة التدين — ولو كانت بأرقى الأديان وأصحها اذا قامت فى النفس على هذا النحو المبهم .

ان الدين علاقة بين الانسان والرحمن ، تزكو بها النفس وتستنير. وهو لذلك علاقة بين الانسان والانسان ، اساسها التآخى والتراحم ، علاقة ان لم تصل الى قمة الفضل ، فلا يجوز أن تهبط عن مستوى العدل .

واذا قام دين ما بعيدا فى هديه العام عن معانى العدل والفضل جميعا ، فهو ليس بدين ، ولكنه لعنة ماحقة ، وأتباعه لن يكونوا رسل رحمة ، بل زبانية عذاب ...

والصليبية للأسف كانت محور عصبيات غاشمة ، اتخذت الدين

---

(١) الجاثية : ٢٣ .

(٢) الفرقان : ٤٣ ، ٤٤ .

سار لمطامع شتى ، ولذلك لم يجن العالم منها منذ اتقدت جذوتها الا لدمار والبوار .

وفساد الديانة اليهودية يرجع ايضا الى هذه الحقيقة ، اذ انها حولت عن اصلها السماوى الى عصبية جنسية ، يتعارف أبناؤها عليها ، كما يتعارف اللصوص على كلمة السر .

وكراهيـــة الناس طرا لليهود مبعثها احساســـهم بهذه الأثـرة الجنسية ، وما تطفح به من حقد ودناءة .

وفى عصرنا هذا التقت النصرانية واليهودية على محاربة الاسلام ، وحصار أهله ، وتمزيق شمله ، ترى ماذا جمع بين النقيضين ؟ اهـــو لعامل المشـترك فى كلتـا العصبيتين ؟ انه هو . ! عصبية تتوارى فى مسوح الدين ، ولبابها الهوى والظلم .

يضاف الى ذلك ان طبيعة النصرانيــة باعـــدت بينها وبين الامتزاج بالعقل والضمير .

ان الانسان عندما يحقن بسائل ما ينساب هذا السائل فى دمـائه كلها ، لكن هل يمكن أن يحقن الانسان بمـــادة صلبة ؟ ان دخولها فى عروقه مستحيل !

كذلك استحال على العقل أن يقبل كون الله ثلاثة ، واستحال على الضمير أن يقبل التضحية برجل فداء غيره من المذنبين ، فبقيت هذه التعاليم خارج الانسان الأوربى الذى بقى يتصرف بمشـــاعره وأفكاره الخاصة ، دون التقيد بدين لم تمتزج أسسه بنفسه الا زعما أو وهما .

وذاك سر ما تنطوى عليه الحضارة الغربية من مآثم ومظالم ،وسر انهيارها بالحروب المدمرة كلما قامت فى فترة سلام .

وقد الف الاستاذ « جودا » أستاذ الفلسفة الانجليزية كاتبا قيمـــا سماه : « سخافات المدنية الحديثة » قال فيه :

« ان المدنية الحديثة ليس فيهـا توازن بين القـــوة والأخلاق ، فالأخلاق متأخرة جدا عن العلم ، ومنذ النهضة ظل العلم فى ارتقـاء ، والأخلاق فى انحطاط ، حتى بعدت المسافـة بينهما ، وبينمـا يتراءى الجيل الجديد للناظر فتعجبه خوارقه الصناعية ، وتسخير المادة والقوى الطبيعية لمصالحة وأغراضه ، اذ هـو لا يمتـــاز فى أخـــلاقه ، فى شرهه وطمعه ، وفى طيشه ونزقه ، وفى قسوته وظلمـــه عن غيره ، وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة اذ هو لا يدرى كيف يعيش ، وتوالى

الحروب الفظيعة الهائلة دليل على افلاسه ، وانه يربى نشأه لتموت ، وقد خولت له العلوم الطبيعية قوة قاهرة ، ولكنه لم يحسن استعمالها ، فكان كطفل صغير او سفيه أو مجنون ، يملكون زمام الامور ، ويؤتون مفاتيح الخـزائن ، فهم لا يزيدون على أن يلعبوا بمـا فيهـا من جواهر » ...

وقال فى موضع آخـر : « ان فيلسـوفا هنديا سمعنى أطرى حضارتنا ، وأقول ان احد سائقى السيارات قطع ثلاثمائة أو أربعمائة ميل فى ساعة واحدة على الرمل ، وطارت طائرة من موسكو الى نيويورك فى عشرين أو خمسين ساعة ، فقال ذلك الفيلسوف الهندى : « انكم تستطيعون ان تطيروا فى الهواء كالطير ، وأن تسبحوا فى الماء كالسمك ، ولكنكم الى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الارض » ..

وقال فى موضع ثالث من هذا الكتاب :

« انظـر الى الطيارة التى تحلق فى السماء ، يخيـل اليك ان صانعيها فى علمهم ولباقتهم فوق البشر ، والذين طاروا بها أولا كانوا فى علو عزمهم وجراتهم ابطالا ، ولكن انظر الآن الى المقاصد السيئة التى استخدمت لها الطيارة ، وتستعمل لها فى المستقبل .. انما هى قذف القنابل خصوصا الذرية ، وتمزيق جثث الانسان ، وخنق الأحياء ، واحراق الأجساد ، والقاء الغازات السامة ، وتقطيع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشر اربا اربا .

وهذه اما مقاصد الحمقى ، أو مقاصد الشياطين (١) .

أن الفلسفة المادية هى دين الغزو الأوربى فى القديم والحديث ، والقوم على اختلاف مواطنهم وحكوماتهم تجمعهم فكرة السطو على أموال الآخرين ، وهم يخرجون من بلادهم يراودهم حلم واحد ، كيف يثرون من أقصر طريق ؟ كيف يجمعون الثروات الضخمة ؟ كيف يرضون أطماعهم فى التشبع من هذه الدنيا ، والامتلاء منها الى حد البطنـة المردية ؟

وليس فى حسابهم أبدا أنهم واجدون فى هذه المحاولات اقواما لهم حقوق يجب احترامها ، كما انه ليس فى حسابهم أن للسلوك الانسانى حدودا يجب التزامهـا ، والدين الذى يعتنقون لا يفهم الا أنه ذريعـة لتقريب مآربهم ، واستباحة خصومهم ، لا وظيفة له الا هذا .

---

(١) الترجمة للأستاذ احمد أمين .

ولو تتبعت احوال « المستعمرين » حيث حلوا ، من اعصار خلت او فى هذه الأيام ، لوجدت الهدف هو الهدف ، ما تتغير من سياستهم الا الأساليب والاسماء ، اما الحقائق والغايات فهى هى ...

* * *

عندما دخل نابليون بجنوده مدينة القاهرة اتخذ هو وقومه سياسة جديدة اجتهدوا أن يكفكفوا فيها لصوصيتهم المأثورة ، وأن يلبسوا زيا يخدعون فيه الناس عن حقيقتهم ، فادعى نابليون الاسلام ، ثم زعم أنه هو وجيشه ما جاءوا الا ليردوا للشعب حقوقه التى غصبها المماليك . فماذا كان من امرهم ؟

كان من أمرهم أن قاموا من كبيرهم الى صغيرهم ، بأخس أعمال اللصوص ... ابتداء من نابليون الى احقر جندى ، انهم لم يستطيعوا أن يتخلوا عن طباعهم مهما حاولوا .

لقد وجدوا امامهم قصور المماليك والأغنياء بعد ان تركها اصحابها وفروا هاربين بأنفسهم . وكانت تلك القصور تحوى الأموال الطائلة ، والجواهر الثمينة ، والتحف النادرة ، والمصوغات الغالية ، والأمتعة النفيسة ، ومختلف انواع الفرش والاثاث والأوانى ، عدا السيوف والدروع وادوات الحرب .

فماذا فعل الشرفاء ، الذين جاءوا ليردوا الى الشعب حقوقه المغصوبة ؟ . كان من أمرهم أن انطلق الجميع الى هذه القصور بحجة البحث عن السلاح فنهبوها ، واخذوا ما فيها من الأموال والجواهر ، والمصوغات والنفائس الغالية ، بل انهم فعلوا اكثر من ذلك ، فقد كانوا يدخلون البيوت المسكونة بأفراد الشعب الذين لم يهاجروا ، بحجة البحث عن السلاح أيضا ، فيسرقون كل ما يجدون عند هؤلاء المساكين من مال قليل ، أو مصوغات متواضعة .

* * *

ولم تقف نذالة هؤلاء الحقراء عند هذا الحد ، فانهم قد علموا أن بعض زوجات الامراء ، ونساء كبار المماليك ، لم يستطعن الهرب مع أزواجهن ، فاضطررن الى الاستخفاء فى أماكن مجهولة خوفا على حياتهن ... فأمر نابليون الهمام أن ينادى بالأمان لهؤلاء النساء الضعيفات ، ولكن عليهن أن يدفعن ثمن هذا الامان ... على كل منهن

ان نصالح على نفسها بمبلغ من المال ، لكى تعود الى قصرها أو بيتها .

ولم ير الناس فى تاريخ الهمج أو اللصوص نذالة مثـــل هـذه النذالة ! ..

واخذ النساء يظهرن ، ويصالحن على انفسهن بأموال طائلة ...

ولكن هل وقفت الخسة مع النساء عند هذا الحد ؟.

ذكر الجبرتى ان زوجة رضوان بك ـ احد كبار المماليك ـ ظهرت من مكانها الذى كانت تختبىء فيه ... وصالحت على نفســها وبيتها بثلاثمائة وألف ريال فرنسي ، وأخذت منهم ورقة بهذا الامان ، ... ولم تكتف بذلك بل الصقتها على باب بيتها ، ليعرف الجنود الشرفاء انهـا دفعت الضريبة فيكفوا عنها ... ولكن ذلك لم يفدها بشيء ... فبينما هى فى منزلها آمنة مطمئنة ، فاجأها جماعة من العســكر ومعهــم ترجمان . فقالوا لها : لقد بلغنا أن عنـــدك أســلحة ، ونريد البحث عنها ... فأخبرتهم انه ليس عندها سلاح ...

فقالوا : لا بد من التفتيش ... ففتشوا ، ووجدوا ملابس ثمينة جدا لزوجها وأمتعة غالية .. قال الجبرتى : « ثم نزلوا الى تحت السلالم ، وحفروا الأرض ، واخرجوا منهـــا دراهم كثيرة ، وحجاب ذهب فى داخله دنانير » .

وكان هذا كله هو المطلوب ، فأخذه لصوص الاحتلال واخذوا معهم السيدة المسكينة وانصرفوا ، وهم يسخرون بورقة الامان التى علقتهـا على باب بيتها ...

ومكثت عندهم فى الاعتقال هى وجواريها ثلاثة أيام ، ولم تعد الا بعد ان اشترت لنفسها منهم أمانا جديدا بالمال .

وذكر الجبرتى أيضـا أن « الست نفيسة » زوجـــة مراد بك ، ظهرت وصدقتهم ، وصالحت على نفسها وأتباعها بمبلغ قدره عشرون ومائة الف ريال فرنسي . ومضت الى بيتها مطمئنة الى الأمـــان الذى أمضاه لها نابليون قائد القوات الفاتحة ..

وما لها لا تطمئن وهى زوجة الفارس القائد الذى كان يقود جيوش مصر فى وجه نابليون ... الفارس القـــائد الذى عرفت عنه أن من تقاليد الفروسية احترام النساء .

نعم ذهبت مطمئنة ، وهى تعلم أن تقاليد الفروســية تأبى على أربابها الامان للنساء بالمال ... وأن ذلك القائد الفرنسي النذل ، اذا

رضي لنفسه أن يبيع الامان للنساء ، فقد يكون له بقية من شرف الجندية تابى عليه ان يعود فيه مرة أخرى .

ذهبت الى بيتها وهى مطمئنة على نفسها من اجل هـــذه المعانى كلها ، ولكن هل كان هؤلاء الانذال عند ظن النساء بهم ؟ .

لقد ارسلوا اليهـا يطلبون منها احضـار زوجـة عثمـــان بك الطنبرجى .. ، ويتهمونهـــا أنهـا تخفيهـــا فى منزلها ، او فى مكان ما ..

وهكذا انقلبت مهمة جنود الجمهورية الفرنسية لا الى البحث عن جنود المقاومة السرية ، او البحث عن القواد المختفين ، بل الى البحث عن النساء ، لكى يرغموهن على شراء الامان لانفسهن بالمال ... فهل وجد انسان احط من هذه المروءة ؟!

وذعرت السيدة الفاضلة من هذا الطلب ، وقررت انهـــا لا تعرف مكان السيدة المطلوبة ... ولكنهم رفضـوا تصـــديقها ، وأبوا الا أن يفتشوا البيت ، بحثا عن المال ، تحت ستار البحث عن السيدة ...

فأرسلت فورا تستنجد بشيوخ الازهر ، فحضر لها بعض الشيوخ على عجل ... ولم يتمكن الجنود اللصوص ـ أمام الشيوخ ـ أن ينهبوا شيئا مما وجدوه فى القصر ، ولم يجدوا السيدة المزعومة ، فاغتاظوا ، وقرروا أن يعتقلوا صاحبة القصر ، التى صالحت على أمانها بالمال من قبل ... فحاول الشيوخ أن يمنعوا هذا الاعتقال ، فأبوا وأصروا على أخذها ...

وهنا لم يجد الشيوخ الفضلاء بدا من مرافقة السيدة الكريمة الى معتقلها ، وهم مذهولون من أن يروا النساء يعتقلن لأن مرة فى تاريخ مصر بدون سبب وعلى هذه الصورة المهينة ...

ونظر القائمقام « دبوى » قصتها ، فلم يثبت عليها شىء ممـــا اتهمت به ... فطلب الشيوخ اطلاق سراحها ، ولكن القائمقام رفض أن يفرج عنها ، ولفق لها تهمة جديدة ، هى أنها ارسلت أحـد الخدم الى زوجها بملابس وأمتعة ، ووعدته اذا نجح فى الوصول اليه أن تكافئـه مكافأة حسنة ، ولكن الجنود قبضوا على الخادم قبل أن يؤدى مهمته ، واعترف لهم بكل شيء ...

فأنكرت السيدة ذلك الاتهام الجديد بشدة ، وطلبت مواجهتها بهذا

الخادم ، فوعدوها بذلك .. ومضت الســاعات وانتهى النهار ، ولم يحضر الخادم المزعوم ...

وهنا طلب المشايخ اطلاق سراحها ... ولكن القائمقام « دبوى » رفض ذلك بشدة .

وعاد المشايخ الى طلب الافراج ، على ان تحضر اليهم فى اليوم التالى ، وضمنوا له ذلك .

ولكن القائد الشهم رفض رجاءهم مرة أخرى .

وعز على المشايخ ان تهان سيدات مصر هذه الاهانة البالغــة ، فعرضوا على القائد أن تذهب هى لتبيت فى بيتها ، ويبيتوا هم عنده عوضا عنها ، وضمانا لها ...

ولكن الضابط الذى يمثل شهامة الفرنسيين ، رفض ان يقبل هــذا العرض النبيل .

وظل المشايخ يعالجون الأمر معه بكل وسيلة ، ولكن نذالته أبت عليه ان يستجيب لأى مكرمة ... فلما يئسوا منه ، تركوها ومضوا ، وارسلوا اليها بعض كرائم السيدات المسلمات ليقضين الليل معها ... وسمع نساء الفرنج المقيمــات بمصر بهذا التصرف الدنىء ، فذهب بعضهن وانضممن مع النساء المسلمات فى المبيت مع السيدة الكبيرة فى معتقلها ...

ولما اصبح الصباح ذهب كبــار المشايخ الى نابليــون بونابرت نفسه ، وكلموه فى الافراج عن السيدة التى باع لها الأمان بالمــال من قبل ... فرضى قائد فرنسا العظيم ان يطلق سراحها ، ولكن بعــد أن يبيع لها الامان مرة أخرى بالمال ! ..

وحدد بنفسه المبـلغ : ثلاثة آلاف ريال ، فدفعتهــا الســيدة وانصرفت ... قال الجبرتى : « وذهبت الى بيت لها مجــاور لبيت القاضى ؛ واقامت فيه ، لتكون فى حمايته » .

***

ولا شك أن القارىء فى دهشة مما يقرأ ، فانه اعتــاد ان يرى نابليون فى هالة من المجد والعظمة ، كلما قرأ عنه كتــابا من كتب التاريخ .. لا شك انه فى دهشة بالغة لا يكاد يصدق معها ان هذا الرجل الذى يجعله الفرنسيون مصدر فخرهم ، وعنوان مجدهم ، ينحط فى انسانيته ومروءته الى هذا الدرك المعيب ... ولكن مع الأسف الشديد

هذا هو الواقع المر الذى نجده فى مذكرات الجبرتى التى كان يكتبها يوما بيوم يسجل فيها ما رآى من حوادث تلك الأيام ، وهو عالم ثقة ، ومؤرخ صدق ...

ولا ندرى لماذا اجتنب المؤرخون أن ينقلوا للناس ما ذكره هذا المؤرخ فى مذكراته اليومية عن هذا الرجل وجنوده من صور عجيبة .. نعم صور عجيبة لم يقف فيها العجب عند بيع الامان للنساء مرة ومرة ، بل تعدى ذلك الى بيع الأمان للخيول والثيران ! ..

فهذا المحارب العجيب ، يطلب الى الناس ان يقدموا له كل ما يمنكون من خيل وجمال ، وأبقار وثيران ... ومن عز عليه ان يقدم ذلك فعليه ان يشترى الامان لمشيئته ، اى أن يصالح عليها بالمال ، وفى ذلك يقول الجبرتى بالحرف الواحد :

« وفى يوم الأحد طلبوا الخيول والجمال ، والسلاح ، فكان شيئا كثيرا ... وكذلك الابقار والأثوار فحصل فيها أيضا مصالحات ... وأشاعوا التفتيش على ذلك وكسروا عدة دكاكين بجهة سوق السلاح وغيرها ، وأخذوا ما وجدوه فيها ... وفى كل يوم ينقلون على الجمال والحمير من الامتعة والفرش والصناديق ما لا يحصى » . ولا نريد أن نعلق على تلك المخازى ، فان خير تعليق عليها هو ان نسردها كما هى .

* * *

لم يقنع نابليون ورجاله بالأموال الطائلة التى نهبوها من بيوت الامراء ، وغصبوها من ضعاف النساء ، ولا بما فرضوه للمصالحة على الخيول والثيران ؛ بل لجأوا الى امتصاص دماء الأهالى بأسلوب يدعو الى السخرية والمهانة ... كان نابليون قد ألف مجلسا من الأهالى والشيوخ ليحكم به البلاد ، يسمى الديوان .. فدعا أعضاء الديوان يوما ، وطلب منهم أن يجمعوا له خمسمائة ألف ريال « **سلفة** » من التجار ..

وهذه السلفة على هذا النحو تبين لك أن القوم وعلى رأسهم نابليون ، لم يكن لهم اقل احساس بالكرامة ، فراحوا يستجدون الناس ، أو يتسولون باسم « السلفة » .

وليت هؤلاء المتسولين كانوا مهذبين فى طلبهم بل كانوا فى منتهى الصفاقة وقلة الحياء ، فان التجار حين ضجوا منها ، فرضوها عليهم بقوة الحديد والنار ... فتوسلوا وتضرعوا لكى يخففوا عنهم « سلفتهم » المشئومة ، فرفض المتسولون وأبوا الا أن يأخذوا « السلفة » كاملة غير منقوصة ..

ولكن هل وقف امر السلفة عند هذا الحد .. لا ، فانهم بعد ما قبضوها لم يلبثوا ان طلبوا سلفة جديدة ... طلبوها بعد الأولى بيومين اثنين فقط ، مما لم يسمع بمثله فى التاريخ ، فقد كانت الأولى يوم سبت ، قال الجبرتى : « وفى يوم الثلاثاء طلبوا اهل الحرف من التجار بالأسواق ، وقرروا عليهم دراهم على سبيل السلفة ... مبلغا يعجزون عنه ... وحددوا لهم وقتا مقداره ستون يوما يدفعونه فيه ، فضجوا ! واستغاثوا ؟ وذهبوا الى الجامع الأزهر ، والمشهد الحسينى ، وتشفعوا بالمشايخ ، فتكلم المشايخ لهم ، ولطفوا السلفة الى نصف المطلوب » .

* * *

واستمر الفرنسيون على هذه « البلطجة » ، يأخذون المال من الناس جبرا باسم السلفة تارة ... وغصبا وسلبا تارة اخرى .. وكانت جنودهم قد تفرقت فى قرى الريف ومدن الأقاليم ؛ فكانوا يصنعون مع اهل القرى ما يصنعه زملاؤهم مع أهل القاهرة ، من اخذ المال بأساليب « البلطجية » الذين يعيشون « تلقيحة » على عباد الله ، يغتصبون أموالهم بكل وسيلة من وسائل القوة والتهديد ..

ويطول بنا القول اذا رحنا نسرد كل ما كان منهم ، فنكتفى بذكر حادث واحد هو صورة مكررة لما كان يحدث فى ذلك الوقت ..

نزلوا بجهة الخانكة وأبى زعبل بعساكرهم وضباطهم ؛ قال الجبرتى : « وطلبوا من الأهالى (كلفة) فامتنعوا » ..

والكلفة هى الاسم الذى تستروا به للغصب والنهب فى الريف كما تستر زملاؤهم بمهزلة « السلفة » فى القاهرة .

ورفض الأهالى هذه « التلقيحة » وسخروا من هذه « الكلفة » وأبوا ان يدفعوا شيئا لهؤلاء البلطجية .. فما كان من اللصوص الأخساء ـ ضباطهم وجنودهم ـ الا أن اعلنوا القتال على القرية الآمنة ، وسلطوا عليها مدافعهم ، وانزلوا بها الخراب والدمار ، وأشعلوا فيها الحرائق ، ونهبوا ما استطاعوا منها ، وارتحلوا ..

* * *

ولم يقف جشع هؤلاء فى سلب المال عند حد ، ففكر نابليون فى مصادرة أملاك الناس ، وابتزاز أموالهم ، ولكن باسم القانون ، وتحت ستار النظام .

لم يكن للدولة فى ذلك العهد البعيد دواوين ، ولا سجلات تضبط للناس ما يملكون من البيوت والأراضى ... وما وجد من تلك السجلات كان على حال غير منظمة ، علاوة على أن الأهالى لم يكونوا يهتمون فى تلك الأيام البعيدة بتسجيل ما يملكون فى تلك السجلات ... وانتهز نابليون تلك الفرصة ، واصدر قانونا للغصب والنهب ، نكتفى بذكر مضمونه دون التعليق عليه :

أولا : على اصحاب الأملاك أن يقدموا حججهم التى تثبت ملكيتهم لما يضعون عليه أيديهم ... فاذا لم يستطع المالك ان يقدم تلك الحجج ، صودرت أملاكه فورا .

واذا علمنا أن الأهالى فى الأزمنة البعيدة ما كانوا يهتمون بحفظ تلك الحجج لديهم ، أدركنا مبلغ ما صادر نابليون من أملاك الناس واراضيهم ..

ثانيا : اذا قدم المالك ما لديه من الحجج ، لا يكتفون بها ، بل يؤمر بالكشف عليها فى السجلات ، نظير ضريبة يدفعها .

فاذا دفع الضريبة ، ولم توجد الأملاك مقيدة بالسجلات ، صودرت أملاكه فورا .

ثالثا : اذا وجدت الأملاك مقيدة فى السجلات ، لا يكتفون بذلك ، بل يطلبون اليه أن يحضر الشهود الذين يشهدون بأن المالك يملك هذه الأملاك بطريق البيع أو الميراث ، ويلزمونه دفع ضريبة لسماع هؤلاء الشهود .

فاذا لم يستطع المالك احضار الشهود لوفاتهم أو لوجودهم فى اقطار بعيدة ، صودرت أملاكه فورا .

رابعا : اذا حضر الشهود ، كانت شهادتهم ترد فى الغالب ، وتصادر الأملاك !

* * *

● **واليك قانونا آخر :**

أولا : اذا مات شخص ما ، وجب على أهله أن يدفعوا على موته ضريبة ... ونحن نورد لك نص ما قاله الجبرتى فى ذلك ، فانه أمر لا يكاد يصدق : « اذا مات الميت يشاورون عليه (أى يخبرون عنه) ويدفعون (معلوما) لذلك » .

ثانيا : تفتح تركة الميت فى ظرف أربع وعشرين ساعة ، فاذا

مضت تلك المدة ، وتم فتح التركة ، صودرت فورا « ولا حق لورثة فيها » على ما قاله الجبرتى ..

واذا علمت أن تقاليد بلادنا الشرقية كانت تتشبث باقامة المآتم فى تلك الأيام البعيدة لمدة سبعة أيام أو ثلاثة على الأقل ، وأنه كان لهؤلاء الأجداد من الأنفة ما يصرفهم عن تعجل النظر فى تركة المتوفى ... اذا علمت ذلك ادركت مبلغ التركات التى صادرها هؤلاء بقوانينهم الهمجية .

ثالثا : اذا فتحت التركة فى الموعد المقرر ، يجب أن يكون فتحها باذن رسمى ، ويدفع على ذلك الاذن ضريبة مقررة .

رابعا : على كل وارث للتركة ان يثبت وراثته ، وأن يدفع على ذلك الاثبات ضريبة ..

خامسا : اذا قبض كل وارث ما يخصه ، يجب أن يدفع عنه ضريبة مقررة .

سادسا : اذا كان الميت مدينا ، وجب على الدائن أن يثبت دينه ، وان يدفع على هذا الاثبات ضريبة ، ويأخذ ورقة يتسلم بها الدين .. فاذا تسلم الدين دفع عليه ضريبة أخرى .

وكذلك قرروا ضريبة على من يريد ان يسافر من مكان الى آخر ، لا أجرا للركوب ، فان المسكين كان يسافر على دابته أو جمله او على سفينة من سفن النيل ، بل يدفع تلك الضريبة مقابل الاذن له بالسفر .

وكما فرضوا على الموت ضريبة فرضوا للحياة ضريبة أخرى ، فعلى كل من يولد له ولد أن يدفع عليه مبلغا « معلوما » .

ولندع الجبرتى يحدثنا عن تلك العجائب بأسلوبه الرائع : « والمسافر كذلك لا يسافر الا بورقة ويدفع عليها قدرا ؛ وكذلك المولود اذا ولد ، ويقال له : « اثبات الحياة » .

ويطول بنا القول اذا رحنا نستقصى الوسائل التى ابتدعوها لاستنزاف أموال الشعب ، ويكفى أن نعلم أنهم كانوا يفرضون الضرائب – كما يقول الجبرتى – « على المبايعات ، والدعاوى ، والمنازعات ، والمشاجرات ، والاشهادات ، والمؤجرات وقبض أجر الأملاك » وغير ذلك مما يطول استقصاؤه ..

فلندع هذا الاستقصاء ، فان ما ذكرناه كاف للدلالة على أن ما ارتكبوه اليوم فى بورسعيد من السلب والنهب انما هو امتداد لما

ارتكبوه من قبل فى القاهرة ، منذ مائة وستين عاما ، وهو فى الحالين وحى خصوصية النذالة فيهم ، وتوجيه دواعى الطبع الخسيس ..

* * *

لا ادرى لماذا لم تنشر هـذه الصحائف السود عند دراسـة الحملة الفرنسية على مصر ؟ ان المعلومات التى تحشي بها اذهان التلامذة تغاير هذه الحقائق المخزية ! حتى ليظن القارىء ان غـزو فرنسـا لمصر كان بركة علمية وشعلة ثقافيـة ! ولا شـك ان ذلك التـاريخ المزور هـو اثر الاحتلال البريطانى فى صياغة العقول الجديدة وتكوين افكار معينة بها والظالمون بعضهم لبعض ظهير ...

والحق ان ما اثبتناه هنا قل من كثر من فظائع الفرنسـيين بمصر يوم احتلوها حتى تم جلاؤهم عنها بعد مقاومة شعبية عامة . وقد تناول الاستاذ ساطع الحصرى هذا الوضوح كاشفا جوانب مما اسـتخفى من هذه المآسي . فقال : « اخذت قيادة الحملة تفرض على الأهالى ـ على الدوام ـ انواعا شتى من الضرائب والقروض والغرامات ، وصارت تكثر من مصادرة الأموال والذخائر ومن تسخير الدواب والجمـال ، ومن ارهاق كواهل الناس بسلسلة طويلة من التكاليف .

وكان قواد الحملة يقدمون ـ من وقت الى آخر ـ على هدم عـدد كبير من المبانى ـ بين دور وحوانيت ومسـاجد ومدارس وقصور ، لغايات عسكرية بحتة . لأنهم كانوا يجدون ذلك ضروريا ، تارة لتسهيل المراقبة على الاهالى مع منعهم من التترس والتحصن فى الازقـة ، وطورا لحفر الخنادق ، وتشييد القلاع ، وتعبئة المدافع .

كما انهم كانوا لا ينقطعون عن قطع الاشجار وتخريب البساتين ، لتسهيل اعمال الضبط والمراقبـة من جهـة ، وللحصول على الاحطاب الضرورية لصنع المراكب وتشـييد الحصون وتقوية الخنادق من جهـة أخـرى .

ويجد الباحث فى اليوميات التى كتبها الجبرتى من تلك الحقبة من الزمن كثيرا من الصحائف التى تصف هذه التخريبات ، وتذكر أسماء أهم القصور والمساجد والمدارس والحارات التى ذهبت ضحية لأمثال هذه الأعمال والتدابير العسكرية .

غير ان تخريبات الجيش الفرنسي فى مصر لم تقتصر على الأموال والاشجار والمبانى وحدها ، بل تعدت كل ذلك الى النفوس ايضا . فان قواد الحملة عندما لاحظوا عدم انخداع الناس بالدعايات الساذجة التى كانوا قاموا بها تحت ستار الدين ، اخذوا يسلكون مسالك القسوة والاعتساف ، وصاروا يكثرون من اخذ الرهائن واعتقال الناس ، واقدموا على اعدام الكثيرين منهم لاتفه الأسباب ، عقابا لهم او تخويفا لأمثالهم ، وقاموا غير مرة باعمال تعذيبية وارهابية فظيعة ، لا تختلف كثيرا عن همجية القرون الأولى .

وقد قابل الفرنسيون الثورات التى قامت فى البلاد على حكمهم الجائر ، بمنتهى الصرامة والوحشية : انهم صوبوا نيران مدافعهم على مختلف احياء المدينة ، وازهقوا ارواح الآلاف من الاشخاص ، وسببوا حرائق كثيرة ، واسترسلوا فى التعذيب والتخريب والسلب والنهب ، بشتى الصور والأساليب .

يقول الجبرتى عن احوال البلد عند بدء الاحتلال الفرنسي : « انها كانت فى غاية الشناعة . جرى فيها ما لم يتفق مثله فى مصر ، ولا سمعنا ما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين » .

كما انه يصف الفظائع التى ارتكبها الفرنسيون — من قتل ونهب وسلب عند ثورة القاهرة الثانية بقوله : « فعلوا بالأهالى ما يشيب من هوله النواصي ، وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة ، واحترقت الأبنية والدور والقصور . ثم انهم استولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع ، وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال ... وما لم تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور » .

ويصرح الجبرتى بأنهم لم يستثنوا من هذه الفظائع حتى العجزة والمسالمين قائلا : « والذى وجدوه منعطفا فى داره او طبقته ولم يحارب ، ولم يجدوا عنده سلاحا نهبوا متاعه وعروه من ثيابه » . واصبح من بقى هناك على قيد الحياة « فقراء لا يملكون ما يستر عوراتهم » .

ويعترف المؤرخون الفرنسيون أن نابليون كان يصدر اوامر يومية كثيرة « توصى القواد بالاكثار من اعدام الأشخاص على أن تقطع رؤوسهم بعد ذلك ، ويطاف بها فى الشوارع ارهابا للناس » ، لأنه كان

يرى ان هذه « الطريقة الوحيدة لفرض الطاعة على هؤلاء » . وكان يضرب لهم مثلا بما يفعله هو فى القاهرة ، ليقتدوا به فى مناطق حكمهم .

وقد قال نابليون فى احد أوامره اليومية : نحن نقطع كل ليلة ثلاثين راسا . وكتب مرة الى احد القواد يبلغه بوجوب قطع رؤوس ما لا يقل عن تسعة أو عشرة أشخاص .

ان امثال هذه الأوامر كثرت بوجه خاص بعد عودة نابليون من بر الشام خائبا مقهورا ، حتى ان قائد حامية العاصمة رأى ان يقترح عليه تغيير طريقة الاعدام بغية « الاقتصاد فى الرصاص » !

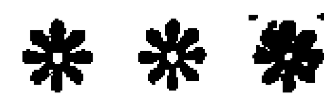
ويعترف المؤرخون الفرنسيون انفسهم بأن نابليون أمر بقتل الجنود الذين كانوا استسلموا خلال حملته على بر الشام – خلافا لأبسط قواعد الحقوق الدولية – وكان عدد هؤلاء الأسرى يزيد على ثلاثة آلاف .

كما انهم لا ينكرون ان الجنود كانوا يسترسلون فى السلب والنهب والتدمير دون ان يبالوا بنصائح ضباطهم وأوامر قوادهم فى هذا المضمار .

ومن المفيد ان نرجع الى نتائج محاكمة سليمان الحلبى – الذى قتل القائد العام كليبر – لنستدل منها على « العقلية » التى كانت سائدة بين ضباط الحملة وقوادها .

وقد طلب النائب العام الحكم بـ « تحريق يده اليمنى ، وتخزيقه (خوزقته) حتى يموت فوق خازوقه ، وتظل جيفته باقية فوق الخازوق حتى تأكل رمته الطيور » .

ونفذ هذا الحكم – بحذافيره – على يد جنود الثورة الفرنسية الكبرى !



(٤) سماحة وجود

الاسلام يسعه ان تقوم الى جانبه ديانات اخرى يتشبث بها ابناؤها ، ويحيون ويموتون عليها . ومع ذلك لا يلقون منه عنتا ، ولا ينالهم اضطهاد او افتيات !

ذلك ان اختلاف الدين ليس عنده مثار بغضاء او علة اجتراء .

كلا . فليخالف من يشاء ! وليبق على يهوديته أو نصرانيته من يحب ! بيد ان المطلوب منه اكنان المسالة لغيره ، والابتعاد عن اسباب الجور والتحدى . فاذا فعل ذلك فحقه المقرر له ان يلقى الود مضاعفا ، والأمان مبذولا ، والايناس والترحيب حيث يحل ...

اجل لقد شرع الاسلام فى معاملة أهل الأديان الأخرى قواعد العدالة ، ومعالم المرحمة والتلطف !

والفقه فى كتاب الله وسنة رسوله هو الذى جعل ابن حزم امام الأندلس يقول : « ان من واجب المسلم للذميين الرفق بضعفائهم ، وسد خلة فقرائهم ، واطعام جائعهم ، والباس عاريهم ، ومخاطبتهم بلين القول ، واحتمال اذى الجار منهم ـ مع القدرة على دفعه ـ رفقا بهم ، لا خوفا ولا تعظيما ، واخلاص النصح لهم فى جميع امورهم ، ومدافعة من يتعرض لايذائهم ، وصون اموالهم وعيالهم واعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم ، وان يفعل معه كل ما يحسن بكريم الاخلاق ان يفعله .. » !

وقد كان لهذه الوصايا السمحة آثرها فى اعزاز غير المسلمين وسط ديار الاسلام ، فلم تبق القلة المحافظة على يهوديتها ونصرانيتها فحسب ، بل دعمت كيانها ، وزادت ثراءها ، ورفعتها الى مكان مرموق من الناحيتين المادية والأدبية معا .

وبلغ من سناء الدرجات التى وصل اليها هؤلاء المجدودون أن كان بعض علماء المسلمين يكتب اليهم يرجوهم البر بالرعية المسلمة (!) ، ويناشدهم الا يستغلوا وظائفهم فى ايذاء المسلمين والتشديد عليهم (!) .

قال الشعرانى ـ وهو من اقطاب المتصوفة فى القرن العاشر ـ : « كثيرا ما كاتبت اليهود والنصارى أصحاب المكوس فى تخفيف المظالم عن المسلمين ! واقول فى كتابى لهم : أسالَ الله للمعلم فلان أنَ يرضي عنه

ويدخله الجنة مع الصديقين والشهداء والصالحين ؟ واضـــمر له سؤال التوبة عن الكفر ليصح دخوله الجنة !

وربما انكر ذلك من لا علم له بطرق السياسة ؟ فلو انى قلت له : اسال الله للمعلم فلان ان يتوفاه على الاسلام لنفر خاطـــره منى ، ولم يقبل شفاعتى ، كما ينفر المسلم لو قيل له : اســال الله ان يموت البعيـد على غير الاسلام ! .

قال الله عز وجل : « كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » (١) .

ثم يستأنف الشعرانى نصحه للمسلم قائلا « فاعرف يا اخى طرق السياسة ، وعود نفســك طيب الكلام ، ســواء أكان المخاطب صالحا او طالحا والله عليم حكيم » .

هذا اسلوب عالم مصرى مسلم ، فى وطن ، المسلمون فيه كثرة ظاهرة ، وغيرهم فيه قلة ظاهرة .

وفى بلد الدولة فيه للاسلام ، والحكم لأهله !.

فانظـر الى روح الخطاب الموجـه الى موظفى الجمارك غير المسلمين ، انك تحسب الرقة فيه ذلة ، والاستشفاع بلغ حد الملق .

ولعل مجتمعا تثبت فيه هذه الأحوال هو ابعـــد المجتمعات عن ظنون التعصب واوهام الغلو .

اللهم الا ان يكون تعصب القلة وغلوها !.

اما الكثرة السائدة الحاكمة فهى لا تفكر البتة فى اضــطهاد أو افتيات ، بل لا تقيم شئونها أبدا على جعل الخلاف الدينى ذريعة الى غمص فرد ، او اهـــانة طائفـــة او اثارة بلبلة فى موازين الكفـــاية والانصاف ...

وما نراه سر هذه السماحة الرائعة ؟ والاعتدال الفذ ؟ انه الاسلام ! الاسلام وحده ... ! الاسلام المحسن المجحود ! ..

* * *

ولكنك تغص بالحسرة عندما تلمح موقف « الآخرين » من هذا الدين واهله .

ان النصرانية لا تحسب محمدا الا اعرابيا مفتريا ، ولا تتحـرك

---

(١) الانعام : ١٠٨ .

قيد أنملة عن سياسة النيل منه ، والعـداوة لرســالته ، والازراء على اتباعه ٠

ويؤسفنا ان هذه السياسة العتيدة لم تقر للاسلام بحق الحياة الا عن عجز ، او على غش ٠

فاذا واتتها فرصة للاجهاز عليه لم تضعها !

وهذه محادة لم ينفرد الاسلام بها ، فعندمــا كانت النصرانيــة لا تعنى الا الكثلكة ضنت على المذاهب الكنسية الأخرى بحق الحياة الى جوارها ، وحكمت عليها بالموت ، فما نجت الا على كره من الجلادين ٠

وقد تقــول : ان ذلك ديدن صــاحب الحق ، فهو لا يطيق رؤية الضلال الى جواره ! والنصرانية ترى الاسلام ضلالة ، ومن ثم فهى تبغى القضاء عليه ، وانقاذ الحياة منه !

ونقول : انه قلما يوجد صاحب مذهب لا يرى الحــق مقصورا عليه ، والباطل محصورا فى خلافه ٠ واذا كان ذلك رأى النصرانية فى الاسلام ، فراى اليهودية فيها نفسها أسوأ من ذلك وأدنى ٠

ولو أخـذت به لوجب أن تمحى من الوجود محــوا ٠ « وقالت اليهود ليست النصــارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهــود على شىء وهـم يتلون الكتــاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثـل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » (١) ٠

اجل سيحكم الله بين أولئك المختلفين يوم القيامة ! اما فى هذه الدنيا فما يجوز استخدام القوة لاكراه قوم على اعتناق ملة يرفضونها ، ولا استخدام القوة ــ كما تفعل النصرانية ــ لتعويق سير الاســلام ، وطمس شعائره ، واخماد منائره ٠

ولذلك يقول الله بعد الآية السابقة التى حكت مزاعم كل فريق فى صاحبه :

« ومن اظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وســعى فى خرابها ، اولئك ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين ، لهم فى الدنيــا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (٢) ٠

ان الاسلام دعــوة الى الله تتميز بالاخلاص الشديد له ، والحفاظ البالغ على توحيده ، والاحترام الواضح لجميع انبيائه ٠

ولو كان رجــال النصرانيــة أهل كياســة وبصر لعدوا محمدا

---

(١) البقــرة : ١١٣

(٢) البقــرة : ١١٤ ٠

- على الأقــل - واحــدا من المصلحين الـذين يسـتحقون التوقير والاعجاب !! حتى لو كان مرسلا من عند نفسه وليس نبيا من لدن الله !!

خصوصا وهم ينسبون « البابوات » الى درجــة من القداســة والعصمة والالهام الأعلى لم يدعها محمد لنفسه ، وان كان هو فى تراثه الانســانى البحت اعلى من هؤلاء قــدرا ، واولى بمزيد من الحفــاوة والاجلال ...

لم يرزق قادة النصرانية هذه المرونة ، بل على العكس التزموا وضعا واحدا لا يتغير كر الدهور واختلاف العصور ، وهو الانكار المستمر على الاسلام ، والطعن القاسي فى اصوله وفروعه ...

ان امكنهم الاجهاز عليه فلا معنى لبقائه .

وان بقى لظروف عصية فليس لأهله حقوق تقام .

حتى حقوق الانسان العادى ، انها تستكثر عليهم اســتكثارا ، ويحرمون منها حرمانا ...!

وها قد مضت اربعة عشر قرنا على هذا الصراع العنيــد دون ان تبدو له نهاية تؤذن بسلام .

أما لهذه المآسي من آخر ؟ اما للصلح من موضع !.

ان له مواضع شتى لو ارادت الصليبية ، وآثرت المودة بعد طول جفاء .

ان الكلمة ليست لنا ، وعبء اقرار السلم لا يقع علينا . فالتبعــة الكبرى تحملها اقطار الغرب الصليبى ، هذا الغرب الذى يعبث اليوم بمصاير البشر عبثا لم تعرفه القرون الأولى .

ويستحيل أن تدعه السماء من غير عقوبة تكسر غروره ، وتعدل صعره ..!

والمسلمون اليوم فى اعقاب فترة كلية من تاريخهم الطويل ، لم ينفضوا بعد غبار الذل الـذى لحقهم عقيب انهيــار حكمهم ، وطى لوائهم ، أو هم يتهيأون لهذه الانتفاضة المرموقة ، ويستعدون لما تفرضه من مغارم وضحايا .

وحال المسلمين مع دينهم تستدعى كثيرا من التأمل .

فهم خلوف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات .

وهم أوزاع تنميهم قوميات شتى ، يقدمون النسبة اليها على نسب الاسلام العريق .

وهم مشتتو الأهـواء والآراء امام العواصف الفكرية والعـاطفية الهابة من الغرب .

وهم يخلطـون بين التخلص من التقـاليد الرديئة التى اذوت حضارتهم والتخلص من بعض تعاليم الاسلام نفسه !

وهم يخلطون كذلك بين الافادة من نتاج الحضارة الحديثة ، او الانغماس فى متاعها ، والانسراب مع نزواتها ...

على ان الحقيقة المخزية وسط هذه الحيرة النفسـية والعقليـة ان الاستعمار الغربى ماض فى طريقه بقسوة وصرامة ، يجتث أصـولهم ، ويجتـاح بقيتهم ، ويرسـم المؤامرات المهولة لابقائهم الى الأبد عبيـد جبروته ..!

والحيوان فى هذه المآزق يستقتل للنجاة بنفسه ، والافلات من صياديه .

فكيف بانسان لا تزال على حياته مسحة من نضـــارة الايمان القديم ، والاصل الكريم ؟

لذلك اضطرمت معارك المقاومـــة ، ونشبت فى كل قطر حروب التحرير .

وقد بدات هذه الحركات المحنقة ثورات متفرقة لا يربطها نظام محكم ، ولا تقيمها خطة موضوعة .

كانت أشبه بدفاع الافراد عن حياتهم خلال مدينة امتلأت باللصوص فجـــأة .

واندلاع المقاومة على هذا النحو سـهل على الغزاة ان يغلبوا كل فريق وحده .

ومن ثم تمكن الاستعمار الغربى من احتلال اجـــزاء المغرب ، واجزاء وادى النيل ، واجزاء الجزيرة والشام والاناضول .. الخ .

الا ان الايام قاربت بين الاوصال المقطعة ، والآلام وحدت صراخ المكلومين ..

فاتسقت الخطة لطرد الاسـتعمار ، وتعاطف المصـابون يحمـل بعضهم بعضا ، ويظاهره ضد العدو المشترك ، وابتغاء النجاة من ظلمه وغشمه .

والى هذه المرحلة من الخصومة القائمة لم يسمع احـد فى العالم

كلمة صدرت عن معسكر المدافعين تشير من قرب أو من بعــد الى ان حروب التحرير هى حروب ضد النصرانية نفسها .

بل ان ذلك لم يخطر ببال احد ، فقد كان « الماو ماو » فى كينيا و « البراهمة » فى الهند و « البوذيون » فى الصين ، كان هؤلاء جميعا كالمسلمين فى بلادهم ، يقاتلون دون حقوق الانســــان التى اهدرها الاستعمار الصليبى . ويدافعون عن أموالهم واعراضهم التى استباحها زبانيته !

فما الذى جعل الصليبية الغربيــة تستجيش احقادهــا الأولى ، وتضرمها مرة اخرى ضد الاسلام واهله .

ما الذى جعلها تعتبر يقظتنا الأبية حركة ضد النصرانية .

وعلام يدل هذا الاعتبار الآثم ؟

انه يدل على معنى كريه قاتم ، يدل على أن التعصب الأعمى ملأ على القوم أقطار انفسهم ، وأغلق منافذ أفكارهم ، فهم لا يعقلون الا شيئا واحدا : أن يحرموا الاسلام حق الحياة ، وان يسلبوا أتباعه كل كرامة مادية وادبية ينشدها البشر على ظهر الارض ...

ولقد رأيت ان الاسلام منذ بدأ لم يفكر فى حرب النصرانية لاكراه اهلها على ترك عقيدتهم ، ولو كانت فى نظره خرافة .. وان المسلمين اليوم ما يدور فى خلدهم شيء من هذا .

فما الذى الب الصليبية الغربية والهب ظهرها ، فجعلهــا تستأنف حرب الابادة ضدنا ، وجعلها تشن عدوانهـــا الرهيب فى صميم بلادنا واطرافها على سواء .. !

لو ان قادة النصرانية عقلاء معتدلون لجعلوا من مطالبة المسلمين بحقوقهم البشرية فرصة لارســاء العلاقات بين الدينين على قواعد من العدالة والمرحمة ، ولبرهنوا بهذا على رغبتهم فى السلام ، واحترامهم لعقائد الآخرين ...

لكننا نسجل فى حفيظة وغضب ، ان شيئا من ذلك لم يحدث ، بل حدث نقيضه .

فكانت السخائم الصليبية وراء مذابح المغرب وفلسطين ، ووراء اهانه المسلمين حيث كانوا ...

***

وسمعت وزيرا مصريا يتحدث عن الصليبية الغربية التى شرعت تجند رجالها ضد قضايانا فقال : ان الحرب الدينيـة لم تخطر لنا على بال ، وان هذه الصيحات المغرضة التى انطلقت فى اوربا تحرض على اغتصابنا هى صيحات عفنة منافقة .

ثم استانف كلامه ، وكانما يوجهه الى أقباط مصر ونصارى الشرق عموما : ان الرجل الأبيض فى اوربا يحرم اخوانه النصارى من الملونين والزنوج حقوقهم العامة ، ويحرص دائما على امتهان كرامتهم وانكار مصالحهم ...

فاذا ثار الملونـون والزنوج على هـذه المعاملة ، فهى ليست ثورة ضد المسيح وكنائسـه ، ولكنهـا ثورة على التفريق الجائر ، والغرور الكاذب .

وثورة المسلمين على الاستعمار الغربى لا تعـدو هـذا المنحى العادل .

فاذا احتشدت الصليبية الغربية لقمعها ، واذا تنادت باسم الدين لاطفائها ، فلا يسوغ لأتباع المسيح فى بلاد الاسـلام أن ينخدعوا ، ولا أن يزلوا ..!

واتباع المسيح فى بلاد الاسلام ينبغى أن يكونوا آخر من يصـدق هذه المفتريات ، فان البحبوحة المتاحة لهم فى كنفنـا تفرض عليهم أن يعرضـوا عن اضاليل هـذه الصليبية المعتدية المتحدرة من دول الغرب ...

واشتراكهم مع اوربا فى دين لا يسـوغ اشـتراكهم معهـا فى عدوان .

ومع التفسير المتانى الواضح الذى القـاه وزير مسئول عن سياسة مصر فى صراعها مع انجلترا وفرنسا .

ومع ما اظهرتـه الأحداث المتوالية من ان المسـلمين ابرياء من التعصب الأعمى ، فان اصحاب القلوب المريضة لا يزالون ينظرون على احن تستدعى الحذر .

وبين آونة واخرى تقرع آذاننا انباء مثيرة عن اعداد صليبى واسع النطاق لا يرى متنفس ضغنه الا فى انتكاث شـملنا ، وانفراط عقـدنا ، وذهاب ريحنا آخر الدهر .

واذا كانت تصريحات الوزير السابقة عن طبيعة النزاع بيننا وبين

الاستعمار الغربى قد كشفت عن حقيقة مشاعرنا وافكارنا ، فان تصريحات الجانب الآخر اماطت اللثام عن تعصب كالح ، وحقد دينى غريب ؟

فوزراء فرنسا لا يسمون اهل « الجزائر » المكافحة الا « المسلمين » وهم بهذه التسمية يسوغون حملات الفتك والافناء المسلطة على هؤلاء المكافحين البائسين .

وعندما غزا المعتدون الانجليز والفرنسيون واليهود « بور سعيد » وانزلوا جنود المظلات على الشاطىء ، وشرعت الطيارات والسفن تدك المدينة الأبية ، وتنقص اطرافها ، قال المذيع فى صوت « بريطانيا » : « اننا استولينا على كذا وكذا من احياء المدينة ، وبقيت نقطتان فى ايدى المسلمين » !

المراد اذن اجتياح المسلمين - بهذا الوصف - واستئصال شأفتهم ... !

والبواعث الكامنة وراء هذا التهجم لا يجوز تجاهلها ، فظاهر أن ايقاد العداوة الدينية جزء خطير فى الحملة التى تشن علينا ، والتى قد تتحول الى حرب شاملة ضد القومية العربية .

تلك القومية التى يراها الصليبيون طليعة يقظة للاسلام الذى يكرهون .

وسرنى أن وزارة التربية والتعليم شرعت تلفت الأنظار الى ذلك فى رسالة اصدرتها ادارة الشئون العامة بها جاء فيها :

ان الدول الاستعمارية تهددنا وتتوعدنا ... وتحشد لنا جيوشها فى البر والبحر والجو ، وتحبس عنا اموالنا المودعة امانة فى خزائن بنوكها ... وتحاول أن تقفل الأسواق التجارية فى وجه منتجاتنا الزراعية والصناعية . وتغرى بنا اتباعها من الدول التى لا رأى لها ولا ارادة ... وتعقد المؤتمرات ، وتدير المؤامرات ، وترسل الجواسيس ، وتحاول الوقيعة بيننا وبين كل من يريد ان يساعدنا ... لأن ... لأن للاستعمار فى بلادنا مطامع قديمة ، وثارا موروثا ، ومعارك متصلة منذ مئات السنين .

فلم يزل الاستعمار منذ التاريخ البعيد يحاول محاولاته للسيطرة على بلادنا ، واغتصاب اوطاننا ، وانتهاب خيراتنا واستذلال احرارنا ، وامتلاك ارضنا ، لتكون ثمراتها له . واهلها عبيده .

ليس هذا التهديد والوعيد من اجل تاميمنا لقناة السويس ، وانما هى حجة يحتجون بها ليحققوا مطامع ، ويدركوا ثارا ، وينشئوا معركة جديدة ، يأملون ان ينتصروا فيها على العرب ، فيحققوا حلم لويس التاسع ملك فرنسا ، وريتشارد ملك بريطانيا فى التاريخ القديم . وهيهات .. !

ان الحرب الدائرة بيننا وبين الاستعمار الصليبى منذ التاريخ القديم لم تهدأ بعد ولن تهدأ حتى يقضي علينا ذلك الاستعمار ، أو نقضي عليه .. وهيهات ان يقضي علينا ، واننا لقادرون بحول الله أن نقضي عليه ... لابد أن نقضي على الاستعمار ، ليعيش العالم كله فى أمن وحرية وسلام .. اننا هنا ، فى مكاننا هذا من العالم قوة ذات خطر ، انشانا الله فى هذا المكان المتوسط بين القارات لتنبعث من بلادنا رسالات السلام والأمن والحرية للعالم كله ، للانسانية جمعاء .

لقد آن الأوان ليؤمن الاستعمار بهذه الحقيقة ، وما نراه يؤمن بها الا اذا اشعرناه بقوتنا .

ان القوة وحدها هى التى تقنع بالحق .. الحق وحده لا يمكن ان ينتصر بغير قوة تسنده .

وان هذه الحرب التى يحاول الاستعمار الصليبى ان يشنها على بلادنا ، هى حلقة جديدة من سلسلة قديمة متصلة الحلقات منذ ثمانية قرون او اكثر من ثمانية قرون منذ بدأ يجمع جموعه تحت راية الصليب ليغزو بلادنا ، او ينشيء مستعمراته الصليبية فى بيت المقدس ، وعلى سواحل الشام ، وفى وادى الأردن ، وأرض البلقاء فى القرن الحادى عشر ..

منذ حاول مرة بعد مرة فى التاريخ البعيد ، ان ينفذ من ميناء دمياط الى أرض مصر ، ليتخذها قاعدة صليبية ، تحتشد فيها جنوده ، وتتفرع عنها الى الشرق والغرب ، لتحطم مقاومة العرب ، وتجليهم عن الشرق والغرب ...

منذ وضعنا القيد فى عنق لويس التاسع ملك فرنسا ، فى القرن الحادى عشر ، وسحبناه اسيرا على وجهه الى معتقله فى دار ابن لقمان بالمنصورة ، فلم نفلته الا بعد ان افتدى نفسه بمال ، وعاهد عهد القديسين ان لا يعود ولا يحاول ...

منذ تحالف الاستعمار الصليبى على اخوان لنا فى غرناطة من بلاد الاندلس ، يسلقونهم سلق الدجاج فى القدور ، او يلقــون بهم كجـذوع الشجر فى النار الملتهبة ، او يقذفونهم احياء من قمم الجبـــال ، او يرمونهم فى البحر بغير سفين ليسبحوا الى الشاطىء الآخر ان اطاقوا ، او يموتوا غرقا .

منذ وقف مكافحــو البحــر الجزائريون والمراكشـيون على باب البحر ، يمنعون كل ســفينة غير سفن العرب ان تمر او تؤدى اليهم الضريبة ، وتعترف لهم بالسيادة البحرية .. بل منذ صــارت الشــام ومصر وشمال افريقيا ارضا عربية ، ومنذ ارتفع الآذان فى ســهول الأناضول ، ومنذ تحولت « ايا صوفيا » الى مسجد .. منذ ذلك التاريخ البعيد ، لم تزل الحرب دائرة بيننا وبين الاستعمار الصليبى ..

ولم تكن دعوى الصليب التى زعموها فى ذلك التاريخ البعيد الا عنوانا زائفا لخداع الملايين ، فمــا كانت حربهم يومذاك دينية كمــا زعموا ، فان الأديان لا تقر الاعتداء على الحرمات . وهتك الحرائر ، ونهب الحقوق ، وســفك الدماء واغتصــاب الأوطان ، واســترقاق الأحرار ..

لم تكن دعوى الصليب يومذاك الا زيفا وخداعا وتمويها ، وانمــا هو استعمار يتلون بلون دينى ليخـدع الملايين من اهــل الحماسة الدينية ، فينساقوا وراء اصحاب المطامع الاستعمارية انسياق الأغنـام وراء الراعى .

حقيقة استيقنها المسيحيون من عرب المشرق يومذاك ، فكانوا مع قومهم من المسلمين البا على الاستعمار الصليبى ، لا يبخلون بالدم ولا بالمــال ولا بالروح ، حتى جلا الاســتعمار عن ارض العرب مدحورا ، وعادت ارض العرب للعرب يعيشون فيها اخوانا متحابين ، اعزة سادة فى وطنهم العزيز ..

واندحــر الاســتعمار الصليبى فى اولى جولاته ، ولكنــه لم ييأس ...

ان حلم لويس التاسع ، وريتشارد ، وزعماء الصليبية الاولين لم يزلَ يداعب بعض الرؤوس هنالك ، ولم يزل الآمــلَ فى امتلاك ارض المشرق واجلاء العرب عنها ينتقل فى الاجيالَ جيلا بعد جيلَ ، كل جيلَ منها يحاولَ محاولة لتحقيق ذلك الحلم القــديم ، بعنوانَ جديد ، غير

عنوان الصليب . حتى كان القرن التاسع عشر ... وكان المسلمون يومذاك فى غفلة ، فاتاحت غفلتهم لتلك الدول أن تثب وثبتها ، وتحقق حلم الاجيال ...

نعم : تحققت احلام ظل الحقد الدفين يغذيها طوال القرون السالفة .

وصحونا فاذا نحن نجنى ثمار الذهول والتفريط .

والغريب ان المسلمين بعد هذا كله لا يعرفون التعصب ، واذا عرفوه لا يحسنونه .

والاغرب من ذلك ان المسلمين اذا هاجتهم دناءة خصومهم فتحركوا باسم الدين للرد عليهم ، صاح هؤلاء الخصوم فى صفاقة لا مثيل لها : ان الهمجية الاسلامية تحركت ، تبغى العدوان ، وتريد لتنتشر بالسيف .. !

ولست اعرف للسيف موضعا اصدق ، ولا محزا اجدر من عنق هذه الصليبية التى ما احسنت يوما الا اللدغ والاختباء .

ولعل المسلمين - بعد أن يعوا عبر القرون الوسطى والاخيرة - يعرفون طبيعة الخصام الذى يواجهونه فى هذه الدنيا .

* * *

قبـــل المعـــركة (١)

عندما انعقد مؤتمر « لندن » لبحث مشكلة قناة السويس ـ بعد أن استردتها مصر ـ كان هناك نفر من الناس يتابع مناقشات المؤتمرين وفى نفسه امل ان ينتهى الأمر بسلام ، وأن ينفض المجتمعون وقد استحيوا من اللجاجة فى مطمع فات ادراكه .

فاذا لم يكن لديهم حياء غلبهم الوجل من مصاولة اصحاب الحق بعد ما تيقظوا له ، واستمسكوا به .

وكان اولئـــك المتفائلون يفرحون اذا جاءت الأنبـــاء بأن دول الاستعمار قد خفضت من وعيدهـــا وكسرت من حدتها ، يحسبون أن ذلك التراجع ايذان بحل المشكلة على نحو يرضي اصحاب الحقوق ، ويرد اليهم ما سلب منهم دهرا طويلا .

وما دروا ان ذلك التراجع لا يعدو دائرة الألفاظ المرنة ، والأساليب التى تصطنع اصطناعا لاخفاء أخبث النيات ، واحلك المقاصد ..

وها قد انتهى المؤتمر ، وانفضحت المؤامرة ، وسقط القناع عن الوجوه الكالحة ، واستيقن المترددون ان دول اوربا لا تزال على حقدها القديم ، وضلالها الأول .

انها ـ وقد سمنت من المال الحـرام ـ لا تزال تتشـهى المزيـد .

انها ـ وقد ضريت على التهام ما امامها ـ لن تكف الا اذا اصابتها لكمة تهشم اسنانها ، وتعجزها عن مد الفم ولى السحت ..!

ونحن منذ تداعى ساسة الغرب ، وقـــرع جؤارهم النابى آذان العالم ، ومنذ نادى بعضهم بعضا للعدوان على مصر ، واعداد القوى فى البر والبحر والجو لمهاجمتها ـ نعرف انه لا مـكان لتفـــاؤل ، ولا انتظار لمسالمة ، وانه من العجز ارتقاب الشرف من الغادرين ، او العفاف من الداعرين او النصفة ممن آذوا أهل الأرض اجمعين .

* * *

ان معركة مصر لم يكن بد من خوضها ، سواء استرجعنا القناة ، ام تركناها لمن يأخذون القناطير المقنطرة منها .

ذلك ان مصر جزء هائل من كيان العروبة والاسلام .

والمعركة ضد العروبة والاسلام قد بدأت من زمن طويل .

---

(١) كتبت قبل الهجوم الثلاثى على مصر .

وهى ليست معركة ربح أو خسـار لقطع من الأرض او قدر من المال ، بل هى معركة حياة او موت .

انها معركة ابادة لجنس من الناس ، له لغته ودينه وحضارته .

والاستعمار من سنين طويلة قد اعد عدته لافناء هذا الجنس وما يتصل به من فكر وحضارة .

وقد بدات حرب الابادة هذه من حولنا يوم تقرر تهويد فلسطين ، ويوم اجتمع عدد من الدول اكبر مما اجتمع فى مؤتمر « لندن » وسمح — فى رضا ورغبة — ان يطرد العرب من أرضهم شر طـردة ، وأن يرثها عن أولئك الأحيـاء المطرودين بنو اسرائيل الذين دللهم الاسـتعمار فى هذا العصر ، واسكنهم قصور العرب ، واطعمهم اقواتهم .

أما العرب انفسهم ففى الصحراء لهم متسع ان عاشوا ، او قبر ان هلكوا ...

نعم ، وبدات حرب الابادة فى الجزائر البائسـة ، بعـد محاولات طويلة لتنصير المغرب كله ، وتسميم الدم الاسلامى فيه !

فلما استعصي الضحايا على عسف « فرنسـا » ، تحولت قوات حلف الأطلسي لقمع الشعب المكافح ، وترضيته بالهون .

ومنذ عامين ما يطلع صباح الا واصوات النعـاة تقبض الأفئدة بمهلك عشرات الشهداء فى صراع لا يفتر بين المهاجمين والمجاهدين .

ولو رصت ارض الجزائر بأجداث الشهداء ما كان ذلك شـيئا يستحق الذكر ، او يثير الأسي . اما أن تسترجع مصر قناتها ، فذاك امر تهتز له الأرض ، ويحتشد له الساسـة ، وتتعـاوى من اجله الذئاب فى كل غاب .

· غاية ما هنالك من فرق بين عواء الحيوان والانسان ، أن هدير الوحش لا تستر نبراته ولا تطوى اغراضـه ، اما عـواء الساسة فى مؤتمراتهم ، فيمكن اخراجه للناس فى قالب غناء ملحون منغوم !

وها هى ذى حرب الابادة تتجه الينا فى صورة تدويل للقناة اولا ، والأخذ بخناقنا بعد ذلك ، فاما عشنا واما كتمت انفاسنا .

والعجب أن يمضي الاسـتعمار فى ختله قالبـا الاسماء والمسميات جميعـا ، فهو يصف اسـتعبادنا بأنه ضـمان لسـيادتنا ، ويصف سرقة حقوقنا بانها رعاية للعدالة فى نفعنا ..

وقد سرى هذا المنطق فى آفاق الحياة الحاضرة حتى كاد يطمس معالم الأخلاق .

ما كان فى ماضي الزمان محرما للناس ، فى هذا الزمــان مباح
صاغــوا نعوت فضــائل لعيوبهم فتعـــذر التمييــز والاصـــلاح
فالفتك فن ، والخـــداع سياسة ، وغنى اللصـــوص براعة ونجـــاح
والعرى ظرف ، والفساد تمدن ، والكــذب لطف ، والرياء صـــلاح

* * *

واذا كانت الحرب ضد العروبة والاسلام قد اشتعلت فى ميـــادين شتى ، فليس غريبا ان يطير شررها الينـــا ، وليس غـــريباً ان ينعقـــد مؤتمر « لندن » لينفخ فى ضرامها ، ثم يرمينا بشعلها الحارقة .

بل الغريب ان نبقى بمنأى عن هذه الحـــرب ، ومصر هى معقـــد العروبة ومناط الاسلام .

ان ابتعاد هذه الحرب عنا كان الى اجل معدود ، لابد بعـــده ان نصلاها ، ويجب ان نواجه هذه الحقيقة دون تهرب او اغماض ...

* * *

أى سلام كان يرجوه الواهمون من مؤتمر « لندن » ؟ أخشي أن أصارح بما يبطنه أولئك المتعلقون بالسراب حين اقول : ان حبهم للسلام وكراهيتهم للقتال هما سر هذا التأميل الخائب !

اجل ، فعدد غفير من الناس لا يزال ينفر من المـــوت ، ويتشبث بأذيال الحيـــاة ، ولو كانت الحيـــاة التى تتاح له على أنقاض دينـــــه ومروءته ، بل على انقاض عزته وكرامته .

وهذا الصنف الذليل هو الذى انتظـــر العافية من مجمع اللصوص فى عاصمة الاستعمار !

وطالما صحت بهؤلاء الأغرار ، ان الحرب التى تحذرون قد وقعت فعلا منذ تضافرت الصهيونية العالمية ، والصليبية الغـــربية على اجلاء اخوانكم ، واجتياح ديارهم ..

ولو أنكم تيقظتم على هذا التحرش ، وتنمرتم على وقـــع الأذى حين نزل بجيرانكم ، لتهيب القراصـــنة وشركاؤهم ان يسترســـلوا فى غيهـــم .

إن مؤتمر « لندن » عرَض" لعلة أصيلة فى نفوس الذين دعوا اليه .
وقد ذهبت شعوب اسلامية باسلة ضحية لهذه العلة الدفينة .
ذهبت أمس كما يراد ان نذهب اليوم .
فهل كنا نقابل هذا المؤتمر الا بأزيز الغضب ، وصيحات الاستنكار ؟

انه لو تمخض عن سلام لكان سلاماً مريبا موقوتاً ، ولكانت هذه النتيجة ابعد ما تكون عن طبيعة الأشياء ، فها هو ذا قد اسفر عن خبايا الداعين اليه ، والموافقين عليه .

فلنقلها اذن عالية ولتقولوها جميعً : مرحبا بالمعركة ، المعركة التى فرضها علينا دهاقين اللصوصية العالمية المسلحة ..

لقد كنت احس غصة وانا اقرأ وفيات الشهداء تجىء من الجزائر سيلاً لا ينقطع ، واقرأ الى جانبها دعوة الكتاب البغايا الى فتح بيوت الدعارة فى مصر .

هذه الحال المستنكرة من التقطع النفسي والعاطفى والالحاد الدينى والاجتماعى هى التى اوهنت بلادنا ، واطمعت عدونا ، والبت السفهاء والعقلاء ضدنا ...

ولعل اولى بركات التهديد الذى رمانا به مؤتمر لندن ان استخفت هذه الميوعة الحيوانية النجسة ، وشرعنا نستعد لخوض المعركة التى اقتربت من ساحتنا !

الا مرحباً بالمعركة ...

مرحبا بالمعركة التى تقسم اعباء الكفاح بالسوية على العرب فى كل مكان ، وعلى المسلمين فى كل افق ...

مرحبا بالمعركة التى ستغسل بلادنا من أوضار الضعف والاسترخاء ، وتصبغها بلون جديد من البذل والفداء .

* * *

ما هذه الصفاقة التى تجعل عشرين دولة تجتمع اياماً وليالى لتتحدث فى سلب حريتنا ، وخدش كرامتنا ؟

اكانت تجرؤ على خوض هذا الافك لو انها ترهب عقباه ؟

اننا وجدنا سر هذا التحدى الغريب .

انهم يحسبوننا ما زلنا نحب الدنيا ونكره الموت ، ومن ثم ينادى

بعضهم بعضاً . هلم الى الكلأ المباح ، والأرض التى لا صـاحب لها . هلم الى تدويل القناة .. !!

وذلك مصداق الحديث : «يوشك الأمم ان تداعى عليكم كما تداعى الأكلة الى قصعتها . فقال قائل : ومن قلة نحن يومئـذ يا رسول الله ؟ قال : بل انتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن . فقال قـائل : يا رسـول الله .. وما الوهن ؟ قـال : حب الدنيـا وكراهيـة الموت » (١) .

كان ذلك على عهد الملوك الفسقة ، وامراء الخمر والنساء .

اما اليوم فان رئيس الدولة يقول : سأبذل آخر قطرة من دمى .

وعندما تكون هذه الكلمة شعار المعركة الناشبة .

وعندما ترسم السياسة العامة على اسـاس القتال لآخـر رمق ، فلتجتمع الدنيا كلها علينا فلن نخشي بأسها .

* * *

---

(١) رواه ابو داوود .

(٥) ســلام مسـلح

وصف « محمد » نفسه فقال : « انا رحمة مهداة » .

انه ليس لعاناً يطفح فـؤاده بالسخط ، ولا جبـاراً تنبسط يـداه بالأذى ، لا .. لا .. انه بشر نبيل ، طرق باب هذا العالم كما تطـرق النعمة باب بائس ، أو كما تطرق العافية كيان جسم معلول !

« انما انا رحمة مهداة » .

ومن نبع هذه الرحمة ، وعنوانا عليهـا كانت الآية الأولى فى القـرآن الكريم « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم تتابعت آيات القـرآن تصف للناس ما يشفى سقامهم ، ويمسح آلامهم ، ويقر علائقهـم بالله جل شانه على دعائم من الحق ، ويقر علائق بعضهـم بالبعض الآخر على أسس من اليقين والأخوة ، والتواصي بالمرحمة ، والتعـاون على البر والتقوى .

ان الاسلام يكلف المسلم أن يكون مصدر سـلام حيث حل ، والا يكون مثار شر ، ولا مبعث اذى لأحد ابداً .

وانظر ما روى عن أسود بن اصرم . قلت : يا رسول الله..اوصنى . قال : تملك يدك ؟ قلت : فما املك اذا لـم املك يـدى ؟ قال : تملك لسانك ؟ قلت : فما املك لسانى ؟ قال : لا تبسط يـدك الا الى خير . ولا تقل بلسانك الا معروفاً(١) .. !

وتعاليم الأنبياء جميعاً ـ وهى زبـدة ما وعته نصـوص الـكتاب الكريم والسنة النبوية ـ لا يمكن أن تتضمن الا النفع المحض للناس ، وقيادتهم برفق الى الصراط المستقيم ، وحياتهم ـ وهم على الجادة ـ من أن يشرد بهم زيغ ، أو تغويهم فتنة !

* * *

وفى الاسلام ـ كمـا فى غيره من الأديان السـابقة ـ غيرة على الحق ، وحرص على ابقائه متقد الشعاع ليهدى الحيارى ؛ وحرص على ابقاء القافلة المؤمنة به متماسكة متضامنة لا يقع عليها حيف ، ولايتعرض أحد منها لظلم ، والا يكون الايمان الذى تستمسك به سـببا فى اهدار كرامتها ؛ نعم ان الدين يستحيل أن يجىء به ما يعتبر تحرشا بالناس ، أو تحديا لمشاعرهم التقية .

---

(١) الترغيب والترهيب للامام المنذرى .

ولكن السؤال الذى يجب ان نجيب عنه فى صراحة وحسم هو : ماذا يكون الأمر اذا تعرض الانسان فجأة ، وهو خالى الذهن ، سليم القلب ، لنزوة باغية ، او ضربة قاسية ؟ ايترك نفسه فريسة سهلة لهذا الهجوم الخسيس ...

أم يضطر - مهما كان رقيق الطبع - ليقاوم ، وليرد بغضب ما وجه اليه باستخفاف واستهانة ؟ او بتعبير آخر . هل السلام ترك الاجرام من غير نكد ؟ وترك المعتدين من غير عقوبة ؟ وترك المظلومين دون نصير يدعم جانبهم ، ويصون دمائهم واموالهم واعراضهم ؟

اذا كان ذلك معنى السلام فليس الاسلام دين سلام ، بل هو دين خصام وقصاص ، غير ان العقلاء لم يشوهوا حقيقة السلام ، فيجعلوها ترادف الرضا بالهوان ، وقبول الدنية .

وانما فهموا السلام على انه نبذ القتال فى كل مجال يعتبر القتال فيه هضماً للحقوق المقررة ، او اساءة للحقيقة ولو فى اسلوب الدفاع عنها ، فان الدفاع عن الحقيقة له اساليب تناسبها سناءً وشرفا . ومع ان الاسلام خير محض ، وأمان مطلق ، فان موقف اعدائه منه جره جراً لأن يخوض معارك ما كان يريدها .

وماذا عسى كان المسلمون يفعلون وهم يرون الوثنيين من عرب الجزيرة ينكرون عليهم حق الحياة ، ويثبون على الجماعة المؤمنة بربها ، فاذا هى بين شريد فار بدينه بعد أن صودرت أملاكه وأمواله ، او سجين فى عقر مكة ، يذوق الهوان ، ويحمل الضيم ؟

ان القرآن الكريم - وهو يحذر سفك الدم - يعطى المسلمين اذناً بالدفاع عن انفسهم فيقول : « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير . الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله** » (١) ...

وليس بمستغرب ان يحض الاسلام على القتال لفك الحصار المضروب على الأسر المؤمنة بمكة ، ولا يعقل أن يكون تحريضه على استنقاذ هذه الأسر المعذبة مظنة رغبة طبيعية فى اراقة الدماء ..

ومن ذا الذى يستسيغ هذا الاتهام وهو يسمع الآية الكريمة : « **وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء**

---

(١) الحج : ٣٩ ، ٤٠ .

والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » (١) ..

فالوثنيون لم يعلن الاسلام عليهم حربا لأنهم كفار يجب ان يهتدوا الى الحق بالقوة ، وان يدخلوا فى الدين بالاكراه كلا . فان الاسلام يقول لاتباعه فى ضرورة مسالمة هؤلاء الكافرين ، وعدم التعرض لهم البتة : **« فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » (٢) ...**

* * *

فاذا تركنا جانبا هذه المغازى التى كان العرب المشركون علتها الأولى والأخيرة ، ونظرنا الى موقف الاسلام من اليهود والنصارى ، وجدنا الخطأ الذى وقع فيه عباد الأصنام قد وقع فيه أهل الكتاب من يهود ونصارى ...

فطالما تودد الاسلام لهؤلاء الأقوام ، وأثنى عليهم ، ونوه بالكتب التى نزلت على انبيائهم ، وبدأهم بارسال الكتب وعقد المعاهدات .

ولكن كثيرا من اليهود والنصارى كانوا من احقادهم الخاصة فى شغل شاغل ، فلم يكترثوا باليد الممتدة اليهم ، بل حاولوا قطعها .

اما اليهود فقد بلونا طبيعتهم الغادرة وعرفناهم : لا أمان لهم ، ولا موثق ...

واما النصارى فان الرومان - وهم يومئذ اصحاب الدولة فى العالم المسيحى كله - ما كانوا ليسمحوا لأحد أن يخرج على مذهب الدولة ، ولو كان مسيحيا مثلهم ، وقد اضطهدوا اقباط مصر ونصارى الشام لهذه العلة ، فكيف ينتظر منهم ترك الاسلام يمشي من غير نكير ؟

ان الحرب التى دارت بين المسلمين والروم ، دارت لتقرير حرية الاعتقاد ، ولم يدرها المسلمون لحمل شعب ما على دخول عقيدة معينة .

وقد كانت الدولة الرومانية وسائر الدول الصليبية التى قامت بعدها بحاجة الى تقرير هذه الحرية ، فيستفيد منها اتباع المذاهب النصرانية المختلفة ، قبل ان يستفيد منها الاسلام نفسه .

والمقرر فى تاريخ القرون الوسطى : ان رعايا الدولة الرومانية

---

(١) النساء : ٧٥ .   (٢) النساء : ٩٠ .

الذين دخلوا تحت حكم الاسلام ، وجدوا من سماحته ما لم يذوقوه اياما طوالا تحت حكم اخوانهم فى العقيدة ... !

ذلك ان مسالمة الآخرين وترك حرياتهم الوجدانية والعقلية عنصر اصيل فى سياسة الاسلام ، وجزء خطير من تعاليمه العامة ...

على ان الحروب التى اشتعلت ولا تزال تشتعل بين المسلمين من جانب ، وبين الصهيونية والاستعمار من جانب آخر ، ليست حروبا دينية يسئل عنها الاسلام ، وهو ان سئل فجوابه الحاسم حاضر ، لا يصحبه تردد ولا ابهام !

هل كانت الدولة الرومانية القديمة تنفذ تعاليم عيسي عليه السلام حين جعلت مصر مزرعة لها ؟ وحين استعبدت افريقيا وآسيا الصغرى لجبروتها ؟

وهل كان الانجليز والفرنسيون وحلفاؤهم يحترمون وصايا المسيح ، وينقلونها للشعوب المغلوبة عندما كانوا يمزقون هذه البلاد وينهبون خيراتها ؟

ان هذا الاستعمار الصليبى عار على كل دين .

ويوم يقاومه الناس باسم الاسلام أو بأى اسم آخر فهم معذورون. والانتصار لقضاياهم واجب على كل ذى ضمير حى .

ويوم تدك جيوش الفتح معاقل الروم - كما وقع قديما - أو يوم ترد الغزاة الفرنسيين والانجليز ، وتخلص الأمم من براثنهم - كما حدث فى بورسعيد - فهى جيوش سلام ، لا جيوش عدوان ..

ان الاسلام لا يشتهى سفك الدماء ، ولا يندفع الى امتشاق الحسام ، الا مكرها . وامل الاسلام الحلو ، ورغبته العميقة ان تتحول فجاج الأرض الى آفاق سماوية ، تموج بأناس يشكرون ربهم ، ويذكرون نعمه ، دون أن تشغلهم حروب ، او تستشرى بينهم عداوات ..

وانظر ما روى عن ابى الدرداء : قال رسول الله ﷺ « الا انبئكم بخير اعمالكم وازكاها عند مليككم ، وارفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من انفاق الذهب والورق(١) ،وخير لكم من ان تلقوا عدوكم ، فتضربوا اعناقهم ويضربوا اعناقكم ؟ قالوا : بلى ! قال : ذكر الله » .. ثم قال معاذ بن جبل : ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله(٢). لكن كيف الطريق الى هذا الأمل الوادع ؟ والى هذا السلام الشامل ؟

---

(١) الفضة .　　(٢) مسند أحمد بن حنبل .

ايمكن الوصول اليه مع بقاء الصهيونية العالمية والاستعمار الغربى يملآن الدنيا فساداً وظلاماً ؟

ان نبى الاسلام يبين مرة اخرى عن طبيعة السلام فى دينه ، وعن طبيعة الرحمة فى رسالته ، مع امتلاء الحياة بالأوغاد والظلمة فيقول : « لا تتمنوا لقاء العدو واذا لقيتم فاثبتوا » (١) .

نعم لن نتمنى قتالاً لأننا دعاة سلام ، فاذا فرض علينا القتال فلن نفر امام الزحف النجس ، ولكن سنثبت حتى يفتح الله بيننا وبين المعتدين .

* * *

وكما يحتاج المقرور الى الدفء بعدما جمد البرد أطرافه ، والعليل الى الدواء بعدما برى السقام عظامه ، تحتاج الشعوب المهانة الى نجدات من القوة : ترفع عنها الاصر الذى أخزاها ، وتكسر القيد الذى اضر بها ..

انها تستقبل القوة الوافدة عليها استقبال الظمآن للماء البارد ، لأنها ترى فيها متنفسها من ضيق ، وامنها من ترويع .

ومن هنا هش المسلمون ـ وهم أهل سلام ـ للقاء عدوهم ، بعد ما اخذوا له الأهبة ، وجمعوا السلاح .

وانظر الى القرآن الكريم كيف يذكر المستضعفين بآلامهم الأولى ، وما لاقوا من تشريد واستباحة وارهاق ، وكيف يجعل من هياج هذه الذكريات فى دمائهم دافعاً الى خوض المعارك ، وتأديب الطغاة .

« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم » (٢) .

انه قتال ليس فقط تأديبا لما وقع فى الماضى ، فان الماضى يغتفر لمن تلمح عليه بوادر التوبة ، ولكنه حياطة للمستقبل كى لا يعود الطغاة الى طبيعتهم الشرسة ، يجب اذن أن تقلم اظفارهم ، وتتقى غائلتهم ..

من الذى ينطق بكلمة اذا بحث اللاجئون المشردون عن السلاح يستردون به حقهم المأكول ؟

من الذى يجرؤ على استنكار اذا بحث الجزائريون عن السلاح يدفعون به الصائل الغشوم ؟

---

(١) تيسير الوصول .

(٢) التوبة : ١٤ ، ١٥ .

من الذى يجد وجهاً يندد ببحثنا عن هذا السلاح اذا كنا نحمل السلاح لأسمى غرض فى الوجود ؟

من الذى يتهم الاسلام بأنه دين تعصب وقتال اذا كان هذا هو الميدان الذى اكرهنا على خوض الحرب فيه .. ؟

لقد كنت اقرأ تاريخ السيرة النبوية فيطوف بقلبى طائف من الرهبة لصرامة القصاص الذى وقع ببنى النضير ، ثم اقول : هى العدالة فى عقاب المجرمين ، وما ينبغى ان تدركنا رحمة مع من ظلم نفسه وغيره .

فلما بلونا اليهود ، وخيانات اليهود ، ولما كوت قلوبنا مصارع الشباب العربى على ايدى اليهود ، والمذابح المهولة التى اوقعها بقرانا ومدننا اليهود ؛ عرفت أن الاطاحة بهؤلاء الناس ليست عدالة فقط ، بل هى رحمة أسداها اطباء البشرية للبشرية ، أو يد تذكر وتشكر لمن افاءها ...

ولقد عرفنا اى نعمة جليلة ساقتها العناية لشمال أفريقية الذى نكب قديماً بحكم الرومان وحديثا بحكم الفرنسيين ، يوم انساب الفاتحون المسلمون فى أرجاء المغرب يطوون اعلام الاستعمار الرومانى، ويعيدون الحرية للشعوب المنكودة .

كانت مصر وسائر أفريقية تئن تحت وطأة الرومان واستغلالهم ، حتى هبت عليهم نسائم الفتح الكبير ، فتنفست الصعداء .

وان الشمال الافريقى ليتشوق اليوم الى فتح جديد ، يطرد به خلفاء الرومان ، وتستعيد به الأمم المنكوبة مكانتها فى هذه الحياة .

فاذا لم يجىء أصحاب رسول الله لاستنقاذ ضحايا فرنسا كما جاءوا قديماً لاستنقاذ ضحايا الرومان ، فان أحفاد السلف الحر لن يستسلموا لا داخل أرض المغرب ولا خارجها ، وسيقاتلون الى آخر رمق ... والعاقبة للمتقين ، وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون .

***

لقد جاء عيد الميلاد المسيحى هذه السنة ودماء المسلمين تسيل مدراراً فى فلسطين والجزائر ومصر واليمن ، حتى ان قلوب بعض الامم التى ليس لها دين سماوى ، بل التى ليس لها دين قط ، رقت لمصائبنا ، وغضبت لما ينزل بنا ، وعرضت علينا عونها ، بعد أن أعلنت فى العالمين سخطها ، وهاجمت المعتدين بأحد لسان ..

فلننظر ما صنع الاب الاكبر للنصارى الكاثوليك ، انه لم يكترث أدنى اكتراث لاشلائنا المبعثرة ، ولا لدمائنا المهدرة .

ان عضلة لم تتقلص فى وجهه للانباء المثيرة التى هزت أرجاء الدنيا ، وجعلت اكثر من ستين دولة تبدى عطفها علينا .

الشىء الوحيد الذى هاجمه « البابا » وتحرك له ، وهو ما قيل من ان ثورة نشبت فى المجر ضد روسيا ، وأن عددا من القتلى سقط فى هذه الاضطرابات !..

ذلكم هو الحديث الفذ الذى قامت له « النيافة » وقعدت .

أما ما عداه فلا يستحق النظـــر ؟ ان لحم المسلمين رخيص ، فلا حرج على الجزارين ان يعملوا فيه مداهم .

اما غيرهم فيجب ان يعلوا الصوت باستنكار اى خدش يعـرض له !

وما يدريك ان الجزارين الذين يذبحون اخواننا انما يأتمرون بأمر صاحب النيافة ؟

ان الاحزاب الكاثوليكية فى فرنسا هى التى تملى سياسة البطش بمسلمى الجزائر !

ومن المفارقات أن الشيوعيين هم الذين يعطلون سير القاطرات المحملة بالجنود لمقاتلة المسلمين ...

ولقد كان نداء البابا الى العالم لمناسبة عيد الميلاد موضع دهشة ولمز من كل انسان له عقل وعاطفة ، وكان تجاهله لمآسينا وتستره على خصومنا مثار تساؤل مرير ، بل كان لفتا قويا الى أن الكاثوليكية تسخر لتسويغ الحيف ، ومهادنة المعتدين .

وتلك حقيقة تؤكدها الايام ، فان التاريخ يعيد نفسه ، وما يحدث اليوم صورة مكررة لما حدث من عدة قرون ، بل ما حدث منذ أربعة عشر قرنا . عندما اشتبك الاســلام فى صراع دام ضد الرومــان ــ وهم يومئذ نصارى ــ وما نشبت الحرب الا لرفع النير من الشعوب المسجونة ، والحريات المكبوتة ، برضا القساوسة ، أو بايعازهم .

وقد كتب الاستاذ عبد الرحمن الشرقاوى تعليقاً على نداء « البابا » قال فيه : « بالامس احتفـل العالم المسيحى بعيد الميــلاد ، وتعانق الرجال والنساء حتى الصباح بخوف مبهم من المجهول ...

ومن روما ارتفع صوت البابا يحاول ان يخترق طريقه بين ضجيج « الجازباند » الى قلوب الكاثوليك فى العالم .

وليس احب الينا من هذا الخشوع الذى يعانيه المتدينون حين يسمعون كلمات رجل دين مقدس ، فتخفق قلوبهم فجاة ، وتتحرك طاقاتهم الانسانية ، ليقاوموا العدوان ، وعناصر الشر التى تهدد الحضارة والتراث الدينى كله ٠

من هنا تنبع مسئولية رجل الدين كرائد ومبشر وانسان !

٠٠ من اجل ذلك كنا نتمنى على الرئيس الكاثوليكى المقدس أن يوضح لرعاياه اين تكمن عناصر الشر ٠

واين تتجمع العوامل التى تهدد العدالة والفضائل والخير والحياة، والقيم المسيحية نفسها ٠

كنا نرجو منه هذا حتى يفيض الخشوع حقا من نفوس رعاياه ، وتطمئن القلوب التى فى الصدور ٠

فلا احد من سكان هذا العالم يمكن ان يوافق الرجل المقدس على ان عوامل الشر تنبع من المجر ٠٠ وعلى أن مشكلة المجر هى التى تستحق منه كل هذا الاهتمام ٠٠٠

لا احد من سكان العالم يجهل من هم الذين يدبرون لقلب نظام الحكم فى المجر ، وفى كل دول الاشتراكية !

ولا احد يجهل اين يكمن الخطر على مستقبلنا كله ، ومن أين تنفجر المؤامرات ٠٠

اتريد الاحلاف العسكرية ان تكون هى سيوف الله المسلولة فى عصرنا هذا ؟

اتكون سياسة التحضير للحرب ، واغتصاب كل حقوق الانسان ، والقضاء على ملايين البشر ؛ هى الدين الجديد » ؟

***

ونقول نحن : نعم ، انها الدين الجديد القديم ،فان رؤساء الكاثوليك منذ قرون سحيقة يستكثرون الحياة على مخالفيهم فى الرأى، ولو كانوا من ابناء دينهم ، فكيف يقرون السلام فى ارض الاسلام ؟ لابد من اجتياحها ان امكنت الاسباب ، والا فعليها اللعنة ان ظفرت بالحياة على كره من آباء الكنيسة الحاقدين !!!

ان العالم احوج ما يكون الى حضارة يسودها التعاون ويحدوها الاصلاح ٠٠٠

والعصر الذى يظلنا ، يوجب علينا ان نقدر مستقبل الانسانية ،

وان نقصى عنها نوازع الاثم ، وأسباب الهوى ، وان ندع مكانا للحق المجرد يفصل فى قضاياها ، فيربح المعنتين ، ويكف الظالمين .

وقد قال الله عز وجل :« **يا ايها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين . فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** »(١)

وهذا النداء يتجه الى كل من له دين يردع عن المحارم ، ويصد عن المظالم .

هو نداء الله كيما تكون العلائق بين أصحاب الكتب المنزلة بعيدة عن الضغائن والثارات .

وفى اكناف السلام العادل الرحب لا يتقاتل الناس على منازلهم فى الآخرة ، وانما تثور بينهم الفتن ، وتعتكر الاحوال اذا هاجت المطامع ، وعصف الغرور برؤوس الاقوياء ، فحسبوا الدنيا حكرا لهم، واتخذوا عباد الله رقيقا لمآربهم .

اننا نحن المسلمين نحمل فى هذه الحياة رسالة الحق والخير والنور ، ونريد أن نعيش بها وادعين ، وان تكون أوطاننا بها مثابة للسكينة والسلام ، والطمانينة والوئام ، فهل يفقه هذا صانعو الحرب ومشعلو الضغائن حينا بعد حين ؟

والرسالة التى اصطفى الله العروبة لادائها ، ليست بدعا فى تاريخ الحياة ، ولا هى حدثا ترمقه الابصار بدهشة ، انها التعاليم النبيلة التى سبق ان هتف بها موسي ، وبشر بها عيسي ،ودعا اليها الانبياء قاطبة ، وبذلوا الجهود المضنية لاقناع الناس بها ، وسوقهم اليها .

ان رسالة الاسلام ترديد لكل صوت كريم دوى فى القرون الاولى ، وتوكيد لكل معنى جميل تنتعش به الانسانية وتسمو .

ولذلك يقول الله لنبيه محمد : « **ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك** » (٢) .

ويقول لأمة الرسول العربى : « **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم** » (٣) .

وبهذه الوحدة فى المنهج والهدف ، وبهذه الاستقامة على الجادة

---

(١) البقرة : ٢٠٨ ، ٢٠٩ .
(٢) فصلت : ٤٣ .
(٣) النساء : ٢٦ .

المهدة والغاية المجدة ، يتآخى المؤمنون ويتعاونون على مرضاة الله وصيانة الحقوق .

ولكن نفرا من اتباع الانبياء قد يجهلون او يجحدون الحدود التى وقفهم الله عنـــدها ، فاذا هم يقطعون مـــا أمر الله به أن يوصـــل ، ويفسدون فى الارض .

واذا هم يخضعون لسياسات جائرة تقوم على التظالم واستمرار البغى .

وما بعث الله محمدا الى الناس الا ليرد الى الوحى الاعلى كرامة اهدرها السفهاء ، وبريقا طمسه البغاة .

« **تالله لقد ارسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب اليم . وما أنزلنا عليك الكتـــاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** » (١) .

بيان الحق ، والدفاع عنه ، واقرار الهدى والرحمة فى هـــذه الارض المروعة ، هو ما جاء به ديننا الحنيف ، وشرح أصوله صاحب الرسالة العظمى ، وهو ما نتشبث به نحن العرب ، ونرى فيه مصلحة الشعوب كلها ، لا مصلحة جنس معين من الناس .

لكن بنى اسرائيل لا يفهمون هذا ، واذا فهموه تمردوا عليه ، وجنحوا الى اسلوب مشئوم من التخريب والافساد ، واهلاك الحرث والنسل ، واشاعة الفوضى والفرقة .

وهو أسلوب سيدفعون ثمنه من نواصيهم ، ويحسون مغبته فى انفسهم واهليهم .

لقد سبق ان اخذ الله المواثيق على اليهود : ان يصونوا الدماء ، ويتركوا المفاسد ، ويطرحوا وساوس الشيطان فى صلاتهم بغيرهم .

بيد انهم ابوا الا العيش فى ظلال الاثرة الضـــيقة ، والخصـــومات الوضيعة ، ضـــد أهل الارض جميعا ، وضــــد من أكرموهم خاصة ، ووسعوهم دهورا فى بلادهم دون ان يمسوهم باذى ، الا وهم المسلمون والعرب .

ولذلك يقول الله فيهم « **فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى**

---

(١) النحل : ٦٣ ، ٦٤ .

فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون » (١) .

اننا نبغى السلام الشامل ، فاى سلام تتسع له ضمائر المنصفين اذا تواطات عدة دول على تشريد اخواننا ، ونهب اموالهم ، واستباحة حقوقهم ؟؟.

أى سلام يراد به تمكين الغاصب ، واسكات الشاكى ، وتطمين المعتدى ، وتوهين الباكى ؟!

كيف يوصف هذا الحيف بانه عدالة ؟ وكيف يرتقب من العرب أن يغمضوا العين على شوكة لا تفتأ تدمى وجوههم وجنوبهم .

ان النزعة الى السلام تغلب على عواطفنا ، وتجعلنا نقبل على حاضرنا لنبنى ونعمر ، ونقبل على مستقبلنا لننشىء ونؤمل .

غير اننا ما نكاد نمضي فى طريقنا خطوات حتى تخترق آذاننا انات الضحايا فى الجزائر ، وصيحات اخواننا الاحرار الابرار ، وهم يكافحون طغيان الاستعمار ، ويذودون عن بلادهم وطأة الغزاة الذين لا يرعون حقا ، ولا يحترمون شعبا .

ان الاستعمار كارثة خلقية ، ومأساة انسانية ، وجرح عميق فى صميم الايمان ، وتحد خطير لرسالات الله ، وعمل يستحيل أن يبقى معه هدوء ، أو تستقر عليه حال .

وليس هناك منطق ينبغى أن يسمع فى هذا الشأن غير منطقنا نحن الذين نريد احقاق الحق ، وابطال الباطل ، وتحرير المستعبدين، واطلاق سراح المسترقين .

انه لا قيمة لقوة تجانب الحق ، ولا لانتصار يجافى العدالة .

ولا مكان لسلام يفرضه قطاع الطريق بعدما سلبوا الآمنين ، وآذوا المؤمنين ...

وسيظل العــرب اجمعــون لائذين بدواعى النجــدة ، واواصر الشرف ، حتى يقتنع المهاجمون طوعا أو كرها بالعودة الى عقــر دارهم ، والتخلى عن نتائج سطوهم وغزوهم .

اننا نحن العرب نؤكد جلال الرسالة السلمية التى ننادى بها ، ونريد أن نفرغ مع غيرنا من محيى السلام لاقامة حضارة نقية طهور... واننـــا لنستغرب المزاعم الجريئة التى لا تســتحى من افتراض

---

(١) البقرة : ٨٥ .

فراغ بلادنا ، فراغ يملؤه الدخلاء ، ويسده الغرباء ، اما اصحاب البلاد فهم عالة عليها ، ومتطفلون فيها !.

اى نكر فى هذا الكلام ؟ واين — فى هذا الهزل — طريق السلام ؟.

* * *

ضحكت وانا اسمع احد الغافلين يقول : ان الاسلام انتشر بالسيف وقلت على الفور : لا ياصاحبى ، التعبير الصحيح فى هذه القضية : ان الاسلام انتصر على السيف ! واذا كان منتهى كيد الفتنة المغلوبة على امرها — بعد ما فل حدها — أن ترمى الاسلام بهذا الوصف ، فلا على الاسلام من ذلك .

لقد ادى الاسلام واجبه فى كسر شوكة العدوان ، وفى قهر الضلال على التراجع ، وعلى ترك المكاسب الطائلة التى حصل عليها ... فليسمع الشتائم والتهم من السلطان المعزول ، او من الوحش المقهور ؛ فلأن يشتم وهو حى يؤدى رسالته النبيلة ، افضل من ان يبيد ، ثم تسمع فيه كلمات الرثاء .

نعم . وماذا يعود على الاسلام او على الناس لو ان الرومان افلحوا فى خنقه ، او ان الفرس تمكنوا من شنقه ، ثم قال كلاهما بعد ان اهال التراب على جثته : كان دينا مسالما ، وكان اتباعه طيبين !.

اننا زاهدون فى هذا الثناء ، ونحن مستريحون لان ديننا اقتصر على السيف ، وان اشاع الظلمة والكذبة بعد ذلك : انه انتشر بالسيف !.

وقد رايت ان ارجع الى الاحصاءات لاعرف عدد الالوف التى قتلها الاسلام وهو ينتشر « بالسيف » كما يقولون !.

وكتاب السيرة عفا الله عنهم قالوا : ان غزوات الرسول وسراياه بلغت بضعا وعشرين غزوة وسرية ! لاشك ان هذا العدد ناطق بمدى تعطش الاسلام لسفك الدم ، فلننظر كم عدد الضحايا المساكين في هذه الحروب الطاحنة ؟

سبعون مشركا قتلوا فى بدر ، وبضعة عشر فى احد ، وثلاثة في الاحزاب ، وقريب من عشرة فى الفتح — اى فتح مكة — وعدد تافه فى حنين . وتطوى صفحة الحرب مع الوثنية بهذا العدد من الضحايا !

ويجىء دور الاحصاء فى حرب الاسلام مع اليهودية ، لم تلحق اليهود خسائر دموية تذكر في موقعتى بنى قينقاع والنضير ، وقتل منهم نحو ستمائة فى موقعتى خيبر وبنى قريظة .. اى ان استقرار الاسلام فى جزيرة العرب اخذ في طريقه سبع مئات من القتلى ، فى قرابة ثلاثين غزوة وسرية مع اليهود والمشركين !

وفى ثلاث وعشرين سنة من جهاد الرسول ﷺ لاعدائه . وهذا السيل الغامر من الدم (!) لماذا اريق ؟

اريق — ولا يجرؤ احد على المراء — لان عبدة الاصنام ابوا ان يمنحوا الاسلام حق الحياة الى جانبهم ، ووثبوا على المسلمين ينكلون بهم ، فلما فروا بعقائدهم الى المدينة ، تبعوهم فى عقـــر دارهم ، ليجتاحوهم عن آخرهم .

فاذا عجزوا عن بلوغ مأربهم ، وافلح المؤمنون فى النجاة بدينهم، واذا اصيب المهاجمون فى اثناء هـــذا الصراع بتلك الخسـائر التى احصيناها،فالويل للاسلام الذى انتصر على السيف،لأنه انتشر بالسيف !

ارايت وقاحة فى منطق الناس أسمج من هذه الوقاحة ..

لقد تآمر اليهود والكفار على قتل هذا الدين ، فكان بين أمـــرين لا ثالث لهما ، ولا خيار فيهما ، اما ان يسلم عنقه للذبح ، ثم قد يقال على رفاته : رحمه الله ، واما ان يتأبى على الفناء ويصارع المعتدين ، وقد تسقط — فى حومة هذا الصراع المفروض — جثث سبعمائة لص ! فيم يلام الاسلام فى هذا وعلام يؤاخذ ؟

ان المسلمين فى دفاعهم عن حياتهم ودينهم قتل منهـــم مثـــل هذا العدد ، ذهبوا الى الله مظلومين فى اعدل حرب يمكن ان تقــع على هذه الأرض ! ذهبوا الى الله شهداء لم يصب واحد منهم وهـــو يسطو على املاك الآخرين ومعتقداتهم ، بل ذهبوا جميعا وهم يدفعون فى حرارة وشرف عن دينهم وحقهم .

فهل هذه المئات من مجرمى اليهـــود والمشركين هى التى جاش لها حنان المستشرقين والمبشرين ، وثارت لها ثائرتهم ، وهم يتهمون الاسلام : انه انتشر بالسيف ؟

ان هؤلاء القتلى بالحـــق فى ربع قرن من الزمـــان يقتـــلهم الصليبيون اليوم فى ربع ساعة ، وهم يطفئون مظاهرة تثور فى وطن محروب ، طالبة الحرية ، ومنادية بحقها فى الكرامة !

فعلام هذا اللغط المفتعل كله ؟ وممن ؟

من أرباب حضارة لم تشهد الدنيا نظيرا لها فى الفتك بالأبرياء، والاطاحة بالحقوق : حضارة أوروبا وامريكا ، حضارة الحروب التى ملأت المآقى بالعبرات ، وخلفت وراءهـــا الألوف المؤلفـــة من الأرامل واليتامى ، والضائعين والضائعات !

***

وطريقتنا نحــن المسلمين فى قـراءة السـيرة النبوية وكتابتها تستحق النظر ، فنحن تستعمل كلمة « غــزو » استعمالا بعيـدا عــن دلالته المعروفة .

ان الجيش الغازى هو الذى يفصل عن بلاده ، ويدخـل فى ديار الآخرين ، والغزو بهذا المفهوم الشـائع قرين الهجوم ومرادف العدوان.

فاذا طرقك احــد فى بيتك ، وشن عليك عدوانا آثمـا ، فكيف تعتبر انت غازيا له ؟

ومع ذلك فقد اولع مؤرخو السيرة باستعمال كلمة « غزو » حيث لا غزو هنالك البتة !

خذ مثلا غزوة الحديبية ، اهذا عنوان يتصل بالواقع من قـريب أو بعيد ؟ لقد خرج المسلمون لعبادة معروفة ، هى زيارة البيت العتيق، ورفضت قريش تمكينهم من ذلك ، ثم ردتهم بعد صـلح رآه جمهـور المسلمين شائنا ، وكادوا يموتون فى اعقابه غما ، فاين رائحة الغـزو فى هذا الموقف ؟

وخذ بدراً — وهى أكبر الغزوات ، واذيعها صيتا — انها معـركة انجر المسلمون اليها جرا ، وحملوا على خوضها حملا :

« وان فريقا من المؤمنين لكارهــون . يجادلونك فى الحــق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون »(١) .

صحيح انهم قاتلوا بايمان رائع ، وثبات كـريم ، بيــد ان ذلك لا يخفى الحقيقة البينة ، وهى انهم مغزوون لا غازون .

وكذلك الحال فى احد ، وفى الأحزاب .

كان المسلمون يدفعون عن بلدهم عدوا سار اليهم أربعمائة ميـل ليستأصل شأفتهم ، ويدك دولتهم ، ومع ذلك كله فنحن نعد غـزوات الرسول ﷺ ، ونجعل فى طليعتها بدرا واحدا والأحزاب .. الخ !! ..

والسر فى ذلك يرجع — فى نظـرى — الى حاجـة المسلمين لما يثيرهم ، فان تغلغل السلام فى طبيعتهم الدينية ، وبعدهم الغـريب عن سورات التعصب والتحدى ، جعل موجهيهم يتحايلون على دفعهـم للقتال المشروع بهذا الأسلوب ! ولو كان خطأ فى تبيانه للواقع .

انهم يعدون غزواتهم كما يعد المفلس أملاكه فى الوهـم ليشـعر أنه غنى ، أو ليشعر الآخرين بذلك .

---

(١) الأنفال : ٥ ، ٦ .

والمسلمون بازاء التعصب المستحكم ، والعدوان المستمر ارادوا اشعار خصومهم انهم لا يؤكلون بسهولة ، فقالوا عن انفسهم : اننا قاتلنا ، وسنقاتل ! والله يعلم انهم ابعد الناس طرا عن حب القتال ، واعشق الامم لعهود السلام ، وابذل الأجناس لمشاعر الود والرحمة .

بل ان المسلمين ما اخذوا ، ونال منهم اعداؤهم الا لهذه الطبيعة الدينية الوادعة ، هذه الطبيعة التى تؤثر السلام على الخصام ، وتؤثر المرونة على الجمود ، والتى ترمق المخالفين فى العقيدة ـ خصوصا أهل الكتاب الاولين ـ وكانها تعتذر لهم ! .

وهذه الطبيعة الدينية فى امتنا تحتاج الى نظر على ضوء التجارب المستفادة من تاريخنا الطويل ، وعلى ضوء ما كشفت عنه الأيام من طبيعة اعدائها ، وطبيعة الأفكار التى تملأ انفسهم ، والمشاعر التى تسيطر عليهم .

اذ من الخطر على رسالتنا ان نبنى سياستنا على السماحة المفرطة بينما يبنى الآخرون سياستهم على خسف الأرض من تحتنا .

نعم . ومن الخطر ان نطرح الحذر جانباً ، ونسترسل مع سجايا الأمان والثقة بينما يستدير خصومنا ليغرزوا خناجرهم فى ظهورنا .

ان حب السلام أصيل فى أمتنا ، وافتراضه فى كل أفق ، وانتظاره من كل انسان ، عنصر شائع فى معاملاتنا جميعاً .

ولقد افزعنى أن هذه الحالة أفسدت لنا قضايا اجتماعية وسياسية كثيرة ، وطالما هززت راسي حيرة ، ثم رددت أبيات الشاعر القديم :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
قوم اذا الشر ابدى ناجذيه لهم ... طاروا اليه زرافات ووحدانا
لكن قومى وان كانوا ذوى نفر ... ليسوا من الشر فى شىء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن اساءة أهل السوء احسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس انسانا
فليت لى بهم قوماً اذا ركبوا ... شنوا الاغارة فرساناً وركبانا

فى بلاد الاسلام تسمع خطبا تنضح بالدم ، ثم ترى افواها باسمة ، وايدياً قصيرة ! .

أما فى أوروبا وامريكا ، فتسمع خطباً تطفح بالمداهنة والمسالمة ، ثم ترى اعمالاً تشيب لها النواصي من جبروتها وفسقها ! .

ولولا ان اعمال الصليبيين تنطق البكم ، لظن الناس كلامهم عن السلام حقاً ، ولولا ان احوال المسلمين وما نزل بهم من ظلم يغنى عن البيان ، لظن الناس كلامهم عن الحروب رغبة فيها ، وحرصاً عليها .. !

* * *

وضحكت وانا اسمع تساؤلاً يشبه الغمز ؛ فما الذى اخرج المسلمين من جزيرتهم ليفتحوا مصر وافريقيا ، والشام ، وآسيا الصغرى ؟ ولماذا لم يبقوا فى وطنهم الذى خلص لهم ، ثم يدعوا مبادئهم تنتشر من تلقاء نفسها ، ان وجدت من يقبل عليها او يقبلها .

قلت : يبدو أن المسلمين يطالبون وحدهم بما لم يطالب به احد فى العالمين !

والا فلماذا لم يوجه هذا الكلام الى الرومان المحتلين لنصف الدنيا بالقهر ؟ لماذا يعتبر وجود الرومان فى مصر والشام طبيعياً وينظر الى وجود المسلمين فحسب على انه شذوذ ؟ ائذا احتل الفرنسيون المغرب ، واذلوا اقاليمه الثلاثة ، كان ذلك عملاً لا يستوجب سؤالاً ، فاذا ذهب جيش لقص اطراف « الامبراطورية » الداعرة ، ارتفع الصراخ : كيف يحدث هذا ؟

ان ذلك هو منطق الصليبيين فى كل زمان ومكان ، والحقد الخسيس فى الميدان العلمى ، هو نفسه الحقد الخسيس فى الميدان السياسي ، هو نفسه الذى يعتبر حرب العرب للرومان فى مصر جريمة تاريخية ، اما استيلاء الرومان على مصر ، وتحويلها مزرعة تثمر القمح للسادة الفاتحين ، فذلك عمل مشروع لا ترقى له شبهة ! .

لقد كان طرد الرومان من الاقطار التى امتلكوها فى افريقيا وآسيا راحة كبيرة لأصحاب البلاد الأصلاء ، وكان جزءاً من السعادة التى خامرت قلوب الناس فى الشرق والغرب عقيب بعثة محمد ﷺ ، وذلك مصداق قول الله فى كتابه العزيز :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »(١) .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

وأى رحمة اثلج للأفئدة من ان ينزاح عنها كابوس الاستعمار الاجنبى المرهق ، فتشعر بطعم الكرامة والحرية ، وتمشي على الارض لا ترهب بشراً ، ولا تخشي ضيماً ، ولا تربطها صلة عبودية الا بربها الذى سواها ؟

ولا اعرف حروباً قامت على الشح فى سفك الدم والاقتصاد الدقيق فى تحمل الخسائر مثل الحروب التى خاضها الاسلام وهو يصفى الاستعمار فى الارض .

ان التاريخ يروى ان الجيش الذى خرج لفتح مصر يتكون من اربعة آلاف جندى فقط ... ، وان هذا الجيش الذى يقاتل الروم فى امنع معاقلهم ــ لما طلب النجدة من امير المؤمنين عمر بن الخطاب ــ امده عمر بجندى واحد !

ترى ما كان يمكن ان يفعله هؤلاء وحدهم لو لم تكن قوى الأمم المستذلة تعمل معهم ، وتنتظر مقدمهم ؟ .

الذى لا يمارى فيه عاقل : ان تخليص هذه البلاد من الرومان حسنة مشكورة قدمها الاسلام للانسانية !

ويحسن ان نؤكد هنا مرة اخرى الفرق البعيد بين حرية العقل والضمير ، وبين حرية الظلم والاستبداد .

عندما يعرض الاسلام دعوته فمن حق اى امرىء أن يرفض قبولها ، وان يعرض عنها ، وان يبقى على ما أحب من معتقد ، ولو كان هذا المعتقد تقديس عجل ، او عبادة صنم .

ولسنا مكلفين ان نفتح الأجفان المغلقة بالقوة ، ولا أن نستوقف الفارين عن الحق لنكرههم على اعتناقه ، والله عز وجل يوصي نبيه ان يمضي فى طريقه ، ويدع هؤلاء !

« فتول عنهم فما انت بملوم »(١) .

« فتوكل على الله ، انك على الحق المبين . انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين . وما انت بهادى العمى عن ضلالتهم ، ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (٢) .

ولكن ما العمل اذا اعترض هؤلاء طريق الآخرين ؟ ما العمل اذا استمد هؤلاء من كفرهم مذهباً فى الحياة ، يطوع لهم البغى ،

---

(١) الذاريات : ٥٤ .   (٢) النمل : ٧٩ ــ ٨١ .

ويزين لهم الفساد فى الأرض،ويثير شهيتهم لأكل الشعوب المستضعفة؟.

هل من احترام الحرية ترك هؤلاء يفعلون ما يحلو لهم ، أم أن تركهم يعد خيانة لمعانى الخير فى هذا العالم ؟ .

وهل اذا أمكن كسر شرور هؤلاء بالقوة ، جاء من يبكى على قبر المغلوب ، ويتألم لمصيره ، لأن السيف كان هو الحكم فى هذا النزاع ؟.

أليست هذه دموع التماسيح ؟ بلى ، هى دموع التماسيح ! .

والذين يبكون اليوم لأن الاسلام انتصر على السيف ، ثم يعكسون القضية ويقولون : ان الاسلام انتشر بالسيف ، هؤلاء هم احفاد الطغاة الأقدمين ؛ ومستعمرو العصر الحديث هم مستعمرو العصور الأولى ؛ وافريقيا وآسيا التى نكبت قديما بمآسيهم ، هى هى التى تنكب الآن بفعالهم المنكرة ، والتى تريد ان تتحرر من قبضتهم بشق النفس .

ان الاسلام لا يحارب الكفر ، ولكنه يحارب العدوان ! فليكفر من شاء من قمة رأسه الى اخمص قدمه ، فليس الاسلام مسئولاً عنه ، لكنه ينتصب مقاتلا يوم يتحول الكفر الى جور يلتهم البلاد والعباد ! هنا يتحرك ، ويجب عليه الا يهدأ ، حتى يزيل الظلم ، ويكف الظالمين.

لو ان الذين بغوا فى الأرض مسلمون لوجب قتالهم حتى ينحسم بغيهم ، ويفيئوا الى امر الله ! .

فكيف اذا كانوا كفارا يجعلون من كفرهم بالحق قاعدةً يتكئون عليها لضرب أهل الحق حيناً ولاختطاف خيرات غيرهم حينا آخر ؛ ان هذا شأن الاستعمار أمس واليوم ، فكيف يكون علاجه ؟

أتطوى القلوب على مهادنته ، والاخلاص لحكمه ، أم تشحن بالبغضاء له ، حتى يذوب ويتلاشى ؟

لا ، ان مقاومته دين ودنيا ، وذلك ما صنع الاسلام قديماً :

لقد قاوم وقاتل حتى نجح آخر الأمر فى زلزلة الضلال المكين ، وانتصر الاسلام على السيف ، نعم انتصر على السيف الجائر ، وهو لم ينتصر عليه بالكف العزلاء ! ولا انتصر عليه بخشبة جرداء ، انما لطم القوة بالقوة ، ورد التيار الكاسح بتيار مضاد ، فكيف يقال فى وصف صنيعه : انه انتشر بالسيف ؟

وهب الأمم المتطلعة ، والشعوب المسجونة ، قدرت هذا الصنيع، واعجبها مسلك أصحابه ، ورأت دينهم مطلع فجر جديد ، فدخلت فيه افواجا ، واصبحوا لحملته اخوانا ، فهل ذلك ذنب الاسلام ؟ .

انه ذنبه الاكبر عند الرومان الاقدمين ، وعند المستعمرين المحدثين ! !

قال الاستاذ رشيد سليم الخوري منوهاً بالجهاد الاسلامى ومندداً بمظالم المستعمرين :

فتى الهيجاء لا تعتب علينا — واحسن عذرنا تحسن صنيعا
تمرستم بها ايام كنا — نمارس فى سلاسلنا الخضوعا
فأوقدتم لها جثثاً وهاما — واوقدنا المباخر والشموعا !
اذا حاولت رفع الضيم فاضرب — بسيف محمد ، واهجر يسوعا !
« احبوا بعضكم بعضاً ». وعظنا — بها ذئباً ، فما نجت قطيعا !
« فيا حملاً وديعاً » لم يخلف — سوانا فى الورى حملاً وديعا
غضبت لذات طوق(١) حين بيعت — ولم تغضب لشعبك حين بيعا
الا انزلت انجيلاً جديداً — يعلمنا اباء لا خنوعا ؟
شفعت لنا امام اب رحيم — وما نحتاج عند أب شفيعا
اجرنا من عذاب النير لا من — عذاب النار ان تك مستطيعا

* * *

(١) اشارة إلي ما رواه الإنجيل من غضب المسيح على باعة الحمام وطردهم من الهيكل .

(٦) الحـــق والحـــرب

لا تعتبر دعـوة ما منتصرة الا اذا بلغت أهـدافها المرسـومة ، واقامت اركانها الاصيلة ، فاذا تخلت عن شيء من ذلك فان انتصارها ينقص بمقدار الاجزاء التى تخلت عنها ، وعندما نستيقن انها تنازت عن اركانها واهدافها جملة ، نحكم ـ دون تـردد ـ ان الـذى انتصر شيء آخر غيرها ، وان تسمى اسمها ، ولبس زيها .

فى العالم اشخاص لهم برامج واسعة فى الاصلاح ، ما ان يلـوا الحكم حتى ينسوا برامجهم ، ويذهلوا عن ماضيهم ؛ هل يمـكن ان يعتبر هؤلاء ممثلين لرسالتهم ؟ وبالتالى هل يمكن القول بان رسالاتهم طبقت فنشلت ؟

ان التعبير العدل فى وصف هؤلاء : انهم خانوا رسلاتهم ، وان الرسالات تظلم بأمثالهم .. !

أعرف جماعة قتـل القصر الملكى فى مصر رئيسها ، لأن القصر ظن الجماعة ورئيسها خطراً عليه ، ثم حدث تحول فى قيادة الجماعة، تغيرت على اثره سياسـتها ، وتقرر بعـده ولاؤها للقصر ، فهل نعـد ذلك نجاحاً للقيادة الجديدة ، واطراداً فى سير الدعوة الأولى .. ؟ لا . . . !

ان دينا ما لا يوصف بانه نجح فى الحياة الا اذا سـلمت أصـوله كلها ، ومبادئه وقواعده فى المعارك التى خاضها ضد خصومه ؛ والا اذا حقق غاياته فى المجتمـع تحقيقا ينطبق مع طبيعتـه السـماوية ، فلم تستطع شائبة من اهواء الناس ان تدخل فيه .. !

ونحن اذا رجعنا البصر الى تاريخ الاسلام الأول ، يوم كان الوحى ينزل ، والنبى يبلغ ، نجد المشركين حاولوا مراراً أن يلتقوا مع صاحب الرسالة ـ ﷺ ـ فى منتصف الطريق او ثلثه ؛ فليترك بعض تعاليمه التى ينفرون منها ؛ وعندئذ يؤمنون به ، ويجتمعون عليه ! وقد اشار القرآن الكريم الى هذا فى قوله :

« فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك ان يقولوا لولا انزل عليه كنز او جاء معه الملك ، انما انت نذير ، واللـه على كل شيء وكيل »(١) .

---

(١) : هود : ١٢ .

والله عز وجل عصم نبيه عن كل مسلك يخالف الرسالة المنزلة ، واقامه على الحق لا يحيد عنه قيد شعرة :

« ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا • اذن لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا » (١) •

وقد سرى هذا الحفاظ الدقيق من نفس النبى الى نفوس اتباعه ، فبقيت معالم الاسلام ثابتة منذ نزلت الى يوم الناس هذا ، ما شانها تحريف ، ولا لحقها عوج •

تختلف الدنيا بالمسلمين ما يختلفون ، وينتصرون فيها ويندحرون، ويتقدمون ويتاخرون ، ومع ذلك التفاوت فى أحوالهم فان الاسلام مصون المنابع ، محفوظ المصادر :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٢) •

وهذا وحده هو معنى انتصار الحق على الباطل - فى عالم الدراسات والنظريات - •

ولو أن المشركين افلحوا فى دس شىء على هذا الدين شاب رونقه ، وغير مجراه ، ما جرؤنا على القول بأن الاسلام انتصر ؛ ان الذى ينتصر فى مثل هذه الاحوال شىء آخر غير الدين ، وغير الصراط المرسوم من رب العالمين !

***

نحن المسلمين نؤمن بعيسي ابن مريم عليه وعلى محمد الصلاة والسلام ، ونرى الرجلين من الامتاء الكبار على رسالة التوحيد ، وعلى اقرار العدالة والعفاف فى الأرض ، والأنبياء اخوة ، جمعهم على هداية الناس هدف اكبر ، يلتقون قاطبة عنده ، أوجزه القرآن الكريم فى هذه الآية :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله ألا أنا فاعبدون » (٣) •

وقد أدى عيسى رسالته بأمانة ، وجرى له ما يجرى لغيره من المرسلين عندما ينقلون للناس هدايات الله ، ويحاولون فطام الجماعات عما الفت من ظلم وظلام ، وشرك وأوهام •••

ثارت الجاهلية ضده ، وشرعت تكيد له ، ولم يتزحزح هو عن موقفه بل ثبت كالطود أمام عبث اليهود ، وعسف الرومان •

---

(١) الاسراء : ٧٤ ، ٧٥ • (٢) الحجر : ٩ •

(٣) الأنبياء : ٢٥ •

وهو لم يسقط القوة من حسابه فى مكافحة مضطهديه ، ومضطهدى اتباعه ؛ وكيف يقال انه اسقطها ، وقد جاء على لسانه ـ فيما يقرأ الآن من اناجيل ـ : « ما جئت لأحمل سلاما بل سيفا » ! انه السيف يريد ان ينتصر على السيف ، وهو اذا حمل السيف فالحق الى جانبه ، وخصومه من اليهود والرومان يوم يحملون السيف فى وجهه ، فهم مبطلون جائرون ...

والأنبياء لا يحملون السيف اول ما يظهرون بين الناس ، فأين اذن مكان الاقناع ، والمجادلة الحسنة ، وتحمل الاذى فى سبيل الله ، ومصابرة الخصوم مهما اسفوا وتعنتوا ؟

ان المأثور فى سيرة محمد وعيسى ـ عليهما السلام ـ من هذه الناحية يملأ القلوب احتراما واجلالا ، الا ان محمدا ﷺ طالت به حياة ، فقاوم سيوف المشركين حتى فل حدها ، ورد كيدها ، واقام دولة الاسلام على انقاضها ، وذهب الى الرفيق الاعلى وصحائف الوحى تتلى فى مليون ميل مربع من الارض ، ما يجرؤ كافر على اعتراضها !

أما عيسى عليه السلام فان حالة رسالته لم تصل الى هذه المرتبة من التمكين .

ان عواصف الالحاد التى اثارها اليهود متواطئين مع الرومان ، ومع بعض المنافقين من اتباع عيسى نفسه ، عجلت بمصير الرسالة النبيلة ، فلم يستطع هذا النبى الكريم ان يقاوم الجبابرة الذين قرروا قتله ـ كما تقرر قتل محمد !! ـ فاستخفى عن الاعين حتى توفاه الله ..

والمنتسبون الى اسم عيسى اليوم يقولون : لا !! بل القى القبض عليه ، واقتاده الشرطة لينفذوا فيه الحكم المقرر فقتل مصلوبا ...!

وسواء اقتنع الناس بالحق الذى سقناه ، أم صدقوا اشاعة قتل عيسى ، فان هناك حقيقة لا يجرؤ احد على انكارها ، وهى ان السلطات القائمة يومئذ كانت سيدة الموقف ، وانها يوم اصدرت الامر بقتل عيسى كانت تعنى القضاء على دينه ، ومصادرة رسائله وكتاباته ، وتمزيق شمل اتباعه واعتبارهم خارجين على القانون ، وتنفيذ الحكم نفسه فيمن يحاول استئناف العمل بدعوة عيسى ، والسير على المنهج الذى تركه ..

وذلك هو الذى حدث ! وسواء رفع عيسى كما نقول أم قتل كما يقولون ، فان الجماهير التى عرفته وسمعته شملها الفزع ، واستشعرت

الوجل من الحكومة القائمة ، وجنح المؤمنون الاوفياء الى عبادة الله سرا ، وهم متوجسون من انكشاف امرهم .

والذين وفوا لعيسى بعد وفاته كثير ، وقد ظلوا فى الظلام سنين عددا ، وايمانهم بالله جل شانه وثيق ، وتقديرهم لنبيه عيسى عظيم .

على أن الدولة لم تخفف من ضغطها ، ولا رجعت عن سياسة البطش التى تبعتها .

وفى حومة هذا الصراع اليائس ، وعلى طول المدى دون جدوى ، اخذ تحول غريب يطرأ على بعض الاتباع ؛ وهو تحول هدفه تقريب الشقة بين الجماعة المضطهدة والمجتمع الحاكم ؛ ولو كان على حساب الديانة نفسها ، واعلن على هذا التحول ما ساد المسيحيين من بلبلة فكرية عامة بعد اختفاء عيسى ، فان حياة الظلام أخصب البيئات لرواج الاشاعات ، وسيطرة الاوهام وتشويه الحقائق ...

ولما كان المجتمع الحاكم وثنى العقيدة والسلوك ، فقد اخذ المغلوبون على أمرهم يقتربون فى تصور دينهم وتصويره من خصائص الامة التى يعيشون فيها .

وللوثنية دعائم تقوم عليها . فهى تؤمن باله كبير بعيد ، له اولاد يرمز اليهم بالاصنام — وهى آلهة صغرى قريبة — وقد ندد القرآن الكريم بهذه الافكار العليلة :

« ألا انهم من افكهم ليقولون . ولد الله وانهم لكاذبون »(١) .

« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق » (٢) ...

* * *

وجعل عيسى ولدا لله ، ثم الهها معه . كان حركة اقتراب من الديانة المضطهدة ، نحو الديانة التى تقوم عليها الدولة ...

وبذلك انهزمت عقيدة التوحيد الخالص التى جاء عيسي بها ، وشابها هذا الشرك الدخيل فزحزحها عن اصلها .

ومن معالم الوثنية : انها تتوسل بآلهتها الصغرى ، وترتقب الخير من التعلق بها — بوصفها ذات صلة خاصة بالله الكبير — ولذلك يعتبر هؤلاء ان الشركاء شفعاء ؛ والقرآن الكريم ينفى ان يكون لأحد عند الله شأن من هذا القبيل :

---

(١) الصافات : ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) المؤمنون : ٩١ .

« أم اتخذوا من دون اللـه شـفعاء ، قل أو لو كانوا لا يملـكون شيئا ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعا » (١) .

وقد سرى هذا المعنى الى المسيحية الجديدة ، فان ابن الله جدير ان يكون شفيعا عنده ، فكيف اذا كان هذا الاله قد حل فى ابنه ؟ ان الاتصال به وحده يكون أجدى !!

ومن مظاهر الوثنية تقديم القرابين لتكفير الخطايا . ولما كان انشاء مذابح يتجمع حولها الخطاة ، ويتزلفون فيها الى معبودهم بنحر القرابين بين يديه ؛ لما كان ذلك متعذرا بالنسبة الى المسيحية ، فقد اعتبر مقتل عيسى هو القربان الذى تكفر به كل خطيئة .

والمهم هو الايمان بهذا المقتل لهذا الغرض ! فذاك سر الخلاص من الذنوب كافة ! ولذلك يسمون عيسى « المخلص » .

اليس هو القربان الذى فدى بدمه ذرية آدم ؟

ويتبع ذلك شىء خطير :

ان الوثنية تدع السلوك الانســانى طلقــا ، يعب من مشتهياته ما يبغى . ويكفيه بعد ـ لاسترضاء الآلهـة ـ كلمـة اعتراف بها ، أو اعتراف لها ، ثم يخرج الانسان من خطاياه كما يخرج من ملابسه !!

وقد قامت النصرانية الجديدة على هــذا النحو ، فانفصل فى تعاليمها الرباط الوثيق بين العمل وجزائه ، وبين الانسان ومسئوليته ، واقترن هــذا العوج بعقيدة الصلب والفــداء نفسها ، ومن ثم نجـد المجتمعات التى سادها هذا التحريف ، لا تبالى ما تصنع ، ولا ما تدع ، فهى تحيا كيف تشاء ...

ومن البــديهى ان تخف حدة الخلاف بين الدولة الحاكمة وبين المسيحيين المعذبين ، بعدما انتقلوا بديانتهم الى هذا الطور المرضي . وما زالت دائرة الخلاف تنكمش حتى تنصرت الدولة نفســها بتنصر الامبراطور الرومانى « قسطنطين » .

والســؤال الذى لا نتردد فى الاجابة عليــه بعد ذلك : هلا يعـد ذلك انتصارا للدين السماوى النازل من عند الله !

هل ذلك انتصارا لعيسي ابن مريم ؟

والجواب : كلا . بل ذلك انتصار للوثنية !

انه سحق تام لكل ما جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام من تعاليم ووصايا .

---

(١) الزمر : ٤٣ ، ٤٤ .

لقد سألنى البعض : هل انتشرت نصرانية عيسي ابن مريم بالسيف ؟ فقلت له : لا .. لأن السيف قضي عليها ! وفى ظله حورت الوثنية الحاكمة بقايا الديانة الماكولة فى شكل جديد ، يوافق ما عليه الامم .

فأين مجال الصراع بين الحق والباطل ؟

لقد ذابت شريعة عيسى وتلاشت امام الضربات الاولى ، وانفردت بالحكم هذه الأخلاط الجديدة من اهواء الناس ، مصبوبه فى قالب دين سماوى !

وذاك على عكس الاسلام :

فان الحرب التى نشبت بينه وبين الوثنية ، لم تضع أوزارها حتى ديست مآثرها تحت الاقدام ، وبقى القرآن حرفا حرفا تحمى صحائفه، بقى تقيم حدوده دولة مهيبة السلطان !

وظاهر ان القدر الأعلى زود رسالة محمد ﷺ بما يجنبها المصير الذى انتهت اليه رسالة عيسى ، والا لتحول الاسلام الى فلسفة جديدة يضيع منها التوحيد النقى ، وتكثر فيها خرافات البشر ، مثل ما حدث للدين الذى سبقه .

وظاهر كذلك ان المسلمين على دين عيسي ابن مريم الذى بلغه عن الله ، قبل أن يقحم الناس عليه مشكلات النبوة ، والتثليث ، والصلب ، والفداء ..!

وأن عيسي عليه السلام — لو بعث حيا — ما وسعه الا اتباع محمد ﷺ والاعتراف بأن قرآنه هو الصورة الصادقة للدين الحق مذ بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين ، وان انجيله — فى شرح العقائد ، وتقرير الايمان — لا يختلف بتة عن هذا القرآن ...

* * *

كان التحريف الذى دخل على ديانة عيسى شؤما على العالم كله، فان الوثنيات الارضية مهما تعصبت تحس آخر الامر انها تجانب الحق فى تقديسها لبعض اشياء هذا الكون ، حيوانا كان ام جمادا .

اما بعد أن تشتبك بعنصر سماوى وتلبس اهابا عليه طابع الوحى، فان تعصبها لا ينفك عنها ، وهو تعصب معزول عن البحث والتفكير، جرثومته الأولى : وراثة تقاليد تحيط بها مشاعر حارة ، وخيالات مائعة ... والصليبية المتخلفة عن تراث عيسى — وهى عليه غريبة —

لم تقبل معايشة مبدأ آخر الى جوارها ، ولم تعرف سلاما فى خصومتها للآخرين ...

ولذلك حظرت على دعاة الاسلام منذ ظهر ـ كما حظرت على دعاة التوحيد من قبل ـ ان يرتفع لهم صوت حيث تسود ..

وليتها اذ حظرت حرية العقل والضمير ، اسكنها ان تبنى المجتمعات على الاخاء والسماحة والمساواة والعدالة ، لقد فشلت فى ذلك فشلا يبعث على الأسى .

فما قام باسمها الا هاجمت فيه غرائز الاستعلاء والأثرة ، وعربدت فيه طبائع الظلم والاستبداد والقسوة ، خصوصا بين الاجناس المغلوبة على امرها ، أو التى عرفت بالمخالفة فى الراى ..

ومن اين تجىء الصليبية بهذه الخلال العليا ، واساس نشاتها ما علمت ؟

لقد نتج عن ذلك ان الانسانية المتوارية فى هذه الأغلفة الصناعية من التدين المدخول ، والكهانة الزائفة ، تمردت بعد طول ركود ، ثم كفرت بالدين كله .

نعم مكثت هذه الصليبية نحو سبعة عشر قرنا تضم تحت جناحيها الألوف المؤلفة من البشر ، وتسيرهم فى سراديبها المظلمة ، فما قامت لهم حضارة ، ولا ازدهر بينهم علم ، ولا استفاد العالم منهم شيئا ؛ حتى انفجرت النهضة الأوربية الحديثة انفجارا اطاح بسلطة الكنيسة فى ميادين العلم والاجتماع ، ثم اخذت هذه النهضة العلمانية تنتشر رويدا رويدا فى انحاء الدنيا ..

والتقدم الصناعى والرقى المادى فى الغرب لا صلة لهما بالدين ، بل ان اردت الحق المجرد ما نما ونضجا الا بعد التحرر من القيود الكنسية الثقيلة ..

وهناك كثرة هائلة من البشر لا ترى فى الصليبية ابدا ما يملأ فراغها الروحى أو يوائم سلامتها العقلية ، وهى لذلك كافرة بها كل الكفر .

الا ان الانسان هو الانسان ، لقد ارتقى ماديا فى الغرب ، والفى نفسه بغتة وبيده مفاتيح الأسرار وقوى كونية كبيرة .. ماذا يصنع بها ؟ وكيف يتصرف فيها ؟ .

لقد وقف عليها بجهده الخاص فليستعملها فى منفعته وحده ! وليشبع بها رغائبه فى المزيد من المتع ، والمزيد من التسلط ، والمزيد من الاستعلاء فى الأرض !! ..

وهنا يجىء دور الصليبية التى انكمشت امام اشعة العلم دهـرا طويلا ؛ يجىء دورها لا لتعلم الانسان ان يحسن التصرف فيما منـح من تفوق وتمكين ، ولا لتقول : اتق الله فيما أوتيت ، واستخدمه فى دعم الاخاء والسلام ، كلا كلا ، انها لا تعرف شيئا من ذلك ، ولا تحب ان تعرف .

لقد جاء دورها لترافق الغزاة وهم يبيدون الأجناس ، وجـاء دورها وهى ترمق المجتمعات وقد تحولت الى مواخير ، لتقول للناس : هيا الى الاعتراف ونوال المغفرة .. !!

طبيعتها القديمة هى هى فى استرضاء الغالبين وتملق الأقوياء ، والنزول عن العقائد الصحيحة ؛ والسير فى ركاب الآخرين ... حتى لو كان الآخرون خصومها السافرين ؟ نعم ، ولو !!

لقد ملك اليهود المـال والجاه ، فلا بأس أن تتكاتف معهم لقتـال الاســلام وان كان اليهود — فى زعمها — قتـلة عيسي ، ومتهمى امه بالافك ، نعم ، وان كان المسلمون يوقـرون عيسى ، ويبرئون أمـه مما يشين .. !!

ان تدين الصليبية غريب ، والفجوات العقلية بين فقراته ، ثم بينها وبين النفس الانسانية ، تسمح بقبول المدهشات ..

* * *

هناك قضية يثيرها دائما اولئك الذين يكيدون للاسلام منــذ ايامه الأولى .. من اليهود وغير اليهود ، ممن يرون فى الاسلام خطرا على اطماعهم ، او اضعافا لسلطانهم .

وتقوم هذه القضية على دعوى أن الاسلام دين قام على القوة ، واستند الى السيف فى نشر مبادئه وتعاليمه ، وأنه حمل الناس حمـلا عليها ، ولولا هذه القوة القاهرة لما قدر لهذا الدين أن يقوم ، ولو قام لما كان له هذا العدد العديد من الأتباع المؤمنين ..

هذه هى القضية التى كثيرا ما يتخذ منها ذوو النوايا الخبيثة سبيلا الى الطعن على الاسلام والنيل منه ، واظهاره بمظهر النزعات البربرية التى تهجم على الناس فتسلبهم حرية الراى فيما يحملون عليه من قبل الغزاة الفاتحين .

وعندى أن غاية هـذه الدعوى لا تقف عند تشكيك الناس فى هذا الدين وصرفهم عنه ، فانها من هذه الناحية لا تسـتند الى منطـق ، ولا تقوم على حجة ، ولا تقع من العقل موقع الاقناع والاطمئنان ، حتى عند أشد الناس عداوة للاسلام وكيدا له .

ذلك انه لو كان الأمر امر قوة وحدها لما كان لهذه الدعوى وجه تظهر به ، وخاصة بعد ان بلغ من الذيوع ، وبعد ان قطع من عمر الزمن قرابة اربعة عشر قرنا ، فان هذه القوة ان تكن قد اقامته فى ايامه الأولى فانه يكون من غير المعقول ان تقوم هذه القوة تلك القرون الطويلة الى جانبه تسنده وتحول بين الناس وبين الخروج منه .

فما عرف الناس قوة تظل حارسة ساهرة لمبدأ من المبادىء ، أو نزعة من النزعات اكثر من سنوات معدودات .. اما ان تظل هذه القوة قرونا متطاولة من الزمن فذلك ما لم يكن ولن يكون ابدا ..

فان القوة انما تخدم غرضا ذاتيا يعيش فى نفس انسان او جماعة من الناس ، ولن تتجاوز حياتها بحال حياة هذا الانسان أو تلك الجماعة .

ونفترض جدلا ان تقوم قوة ما لخدمة غاية من الغايات اجيالا متعاقبة ، ونفترض جدلا أن هذه الأجيال قد تواصت فيما بينها على اتخاذ هذه القوة وسيلة لتحقيق الغاية التى تنشدها وتعيش لها .

فهل حدث هذا فى المجتمع الاسلامى ؟ وهل كانت القوة دائما الى جانب الاسلام تحرسه وتدفع عنه ؟

ان الأمر على عكس هذا تماما .. فالتاريخ يشهد شهادة لا شك فيها بأن دولة المسلمين التى قامت فى صدر الاسلام ، والتى كان ما كان لها من قوة وسطوة .. قد تفككت ، وعراها الوهن والضعف ، واصبح المجتمع الاسلامى امارات ودويلات متخاصمة متنابذة ، وخضعت كل دولة من دويلاته لقوى طاغية تضمر للاسلام كل عداوة وترصد له كل شر ..

ومع هذا فقد بقى الاسلام فى قلوب أهله متمكنا قويا لا يتحولون عنه بحال ، مهما اخذوا بألوان العنت والتضييق فى الرزق ، ومهما عرضوا لصنوف المغريات بالمال والنساء من جانب المبشرين وغير المبشرين ..

فتاريخ الاستعمار يؤلف كتابا ضخما أسود الصفحات لما كان يأخذ به المستعمرون الأمم الاسلامية بصفة خاصة ، والعربية بصفة أخص ، من بغى وارهاق وتسلط قاهر على مقومات الحياة فى تلك الأمم ، وخاصة ما يتصل بأخلاقها وتقاليدها المتصلة بالاسلام ، والموروثة عن الاسلاف ، وذلك ليضعفوا من الصلات التى تصل المسلمين بدينهم ، وليوهنوا من الأسباب التى تربط العرب بأصولهم .

ومع هذا كله فقد بقى الاسلام قويا متمكنا فى القلوب ، لم يسلم المسلمين شىء غيره من عدوان المستعمرين وبغى الباغين ٠

وتاريخ التبشير فى المحيط الاسلامى كذلك يحدث عن اكبر هزيمة ، واظهر خيبة منيت بها حركة من الحركات ، او انتهت اليها دعوة من الدعوات ٠

فما استطاعت هذه الحملات التبشيرية التى رصدت لها الأموال الضخمة وجندت لها العقول الجبارة ـ ما استطاعت هذه الحملات ان تختل مسلما عن دينه ، او تفتنه فيه ٠٠ بل كان المسلم الأمى الساذج يفحم بفطرته السليمة ، وبعقيدته السمحة الواضحة كل قائل ، ويسكت كل ناطق ، حين يرفع بصره الى السماء قائلا : « لا اله الا الله » ٠

فاذا ادعت جمعية من تلك الجمعيات : انها استطاعت بحولها وبحيلها ان تخرج مسلما عن اسلامه ، فقد كذبت وافترت لتخدع أولئك الذين يمدونها بالمال ليدوم لها هذا المدد ٠٠ فانه وقد فاتها الكسب الدينى ، فلن يفوتها الكسب المادى من هذا المال الذى يتدفق اليها من كل جهة ، وانه لكثير ٠

وقد يكون فى هذا القول مجال لمن يكابر أو ينكر ، بحجة اننا ندافع عن الاسلام لأننا مسلمون ! ولكن ماذا يقول مكابر أو منكر فى هذه الصرخات المدوية التى يرسلها المبشرون من كل مكان ، مستعدين قوى الاستعمار على اى فرد من المسلمين يدخل عليهم فى مواطن التبشير بين اللادينيين ، فانه حينئذ ينقض غزلهم ، ويفعل فى تلك المواطن وحده ما لا تفعله حملاتهم الكبيرة القوية المنظمة المستندة الى قوة المستعمر وسلطانه !

* * *

نشرت مجلة « ايتودر » اليسوعية ، التى تصدر بمدينة بروكسل ، بحثا عن الحركة التبشيرية فى منطقة بحيرة تشاد فى افريقيا الاستوائية ، وهى منطقة تقع على مفترق الحدود بين المناطق الاسلامية وغيرها من مناطق اللادينيين والمسيحيين ؛ تقول هذه المجلة :

ان عدد سكان هذه المنطقة ـ منطقة بحيرة تشاد ـ يبلغ نحوا من مليونين ونصف مليون ٠٠ وكانت اغلبيتهم الى سنوات قليلة من الوثنيين فاذا الآن بمليون واكثر يصبحون مسلمين تحت تأثير الدعوات التى يقوم بها بعض الأفراد من التجار ومشايخ الطرق !

وقد تحدثت المجلة عن حركة الزعيم « رياح » التى قامت فى سنة ١٩٠٠ فى تلك المنطقة ، وكان لها اثر فى نشر الاسلام فقالت :

« حاربت فرنسا هذه الحركة حربا مبيدة قضت على انصار هذا الزعيم ، ولكنها لم تستطع ان تقتلع الجذور العميقة التى تركتها هذه الحركة فى أهل هذه المنطقة التى يسكنها الآن نحو اربعمائة الف عربى ، لهم شخصيتهم ونفوذهم ، وانظمتهم الاجتماعية » .

وتستعرض المجلة الموقف الآن فتقدم الاحصاء التالى للوضع الدينى فى منطقة بحيرة تشاد :

المسلمون : مليون مسلم .

المسيحيون الكاثوليك واحد وعشرون الفا .

المسيحيون البروتستانت : ثمانية وعشرون الفا .

تريد المجلة من هذا البيان ان تستثير الشعور التبشيرى والاستعمارى لينشطا معا فى هذه المعركة ، وليقفا فى وجه الاسلام المندفع بمبادئه السمحة وحدها ، دون ان تدفعه قوة من تلك القوى التى يملكها المبشرون والمستعمرون !

وتذهب المجلة الى استعداء السلطات الاستعمارية فى مدينة « برادرفيل » لا على المبشرين الكاثوليك ، وطريقتهم التبشيرية المفضوحة ، فان ظهورهم بهذا المظهر السافر يحرك مشاعر المسلمين ، فيترتب على ذلك قيام كثير من الفقهاء بمقابلة هذا التبشير بتبشير مثله ، ثم تكون النتيجة : انتصارا للفقهاء ، وهزيمة للمبشرين !

وقد حدث هذا فعلا ، فدخلت منطقة « وديون جور » بأكملها فى الاسلام .. وتخلص المجلة من هذا « الى انه من الخير أن يكف المبشرون عن التبشير ، أو يجدوا لهم اسلوبا لا ينبه فقهاء المسلمين اليهم ! » .

هذه شهادة لم يرد بها أصحابها ان يخدموا قضية الاسلام .. ولكنها كشفت عن حقيقة لا مراء فيها هى ان الاسلام — كدعوة — لا حاجة له الى القوة لينفذ الى القلوب ويتصل بالعقول ، واذا كانت هنا دعوة ، تحتاج الى القوة ، والى غير القوة ، من وسائل الاغراء فلا شك انها غير الاسلام !

نقول هذا لنبين ان هذه الدعوى القائلة بأن الاسلام دين قام على السيف دعوى كاذبة مضللة لا يراد بها النيل من الاسلام وتعاليمه ،

بقدر ما يراد بها النيل من المسلمين ودولتهم .. فتلك دعوى خبيثة يراد بها ان تنهزم فى نفس المسلم معانى القوة ، لأنه أراد أن يسقط تلك الدعوى فما عليه الا ان يتجرد من كل سلاح ، وما حاجته الى هذا السلاح ان كان دينه لا يستند اليه ؟

هذه هى الحركة النفسية التى يقدر لها اصحاب هذه الدعوى الخبيثة الماكرة ان تنفذ الى نفوس المسلمين ، وان تفعل فعلها فى تفكيرهم ، فتصرفهم صرفا عن كل سبب من اسباب العزة ، وبذلك يخلو لهم الطريق الى اذلال المسلمين ، والاستبداد بأوطانهم وبارزاقهم !

والذى يضاعف من اثر هذه الدعوة ، ان كثيرا من المسلمين يدفعهم دينهم ، ويغريهم هذا الكذب الصراح بأن يردوا على هؤلاء المفترين ، ويدخلوا معهم فى جدل ، ليدفعوا عن الاسلام هذا الكذب الوقاح ، وليدحضوا هذا القول المفترى !

والرأى عندى ان لا حاجة للاسلام ، ولا خير للمسلمين فى ان نقف من هذه الدعوى موقفا جادا .. فلندعها تمضي ، ولندع المتخرصين بها يقولون ما يقولون ..

بل اقول باكثر من هذا ، اقول : ليكن ان الاسلام قام على السيف فماذا يضيره من هذا ، وما ينفعه ان لم يكن قام على السيف بعد ان سلك الاسلام طريقه ، وقامت دولته ؟

ان الذى كان يجب أن يكون موضع الطعن فى الاسلام لمن تسول له نفسه الطعن فيه أن يتجه بذلك الى مبادئه والى أحكامه ...

أهى حق ام باطل ؟

أهى خير للانسانية أم هى شر ووبال عليها ؟

وهل سعدت الانسانية فى ظله أم شقيت ؟

وهل هذه الملايين التى تدين بالاسلام اليوم مكرهة عليه ، وواقعة تحت قوة قاهرة تحملها علية ، وتلجئها الى التمسك به ؟

هذا ما كان ينبغى أن يكون مدار هذه الدعوى ، ان كان لابد من دعوى يدعيها أعداء الاسلام .

أما تلك الدعوى التى تتجه اتجاها مباشرا الى تجريد المسلمين من القوة ، وخلق عقدة نفسية بينهم وبينها ، فذلك هو الغرض الذى تحاول تلك الدعوى أن تحققه فى المجتمع الاسلامى ، ليتعرى هذا

المجتمع من القوة واسبابها ، وبذلك تستطيع ان تتسلط عليه ، وتنفذ الى صميمه .

* * *

● **نبى الحــق :**

ما جدوى الحقيقة اذا استخفت تحت اطباق من الجهــل ؟ او توارت تحت حجب من الهــوى ، فلم يعـرفها احد ولم يظـفر بها انســان ؟

ان الحقيقة التائهة او الضائعة كنز مفقود فى بيئة يائسة ، او دواء مهمل بين طوائف من المرضى والمهازيل ..!

وكثير من الناس يجىء الى هذه الدنيا ويخرج منها وهو محروم من معرفة الحق والاهتداء به .

يقضي جل عمره صريع اوهام غالبة ، أو اهواء طامسة ، فمــا يدرى عن حقيقة الوجود الا ما يدريه الاعمى عن مسير الاشعة ولمعــان الشروق أو زهر الشفق !

وغلبة هذه الجهالة تجعــل المرء يتساءل : أهنــاك تنـافر بين طبيعة الحياة وسيادة الحــق ؟ ان الامم تفور كالقدر الطافح ، فاذا ذهبت تبحث عن سر هذه الفورة لم تجد الا ضلالا !

والعصور تنقضي على بعض الافكار الرجراجــة فاذا الاشـاعات ـ التى بها ـ تتحول الى عقــائد ، والخرافات تنقلب الى تقاليد يحوطها التعصب ، ويساندها القانون !

وعندما ترقب سلوك الافراد والجماعات ترى احيانا ان الحاجة هى الحق .

الجائع الذى يطن فى اذنه نداء المعدة الخاوية يرى الرغيف أصل الحيـــاة .

والمظلوم الذى نزل به ضيم وتحرك فيــه طلب الثــار يرى تشفيه اساس النظام .

والطامع الذى تضطرم فى نفسه آمال عريضة يحسب أمنيته مبعث الاستقرار .

فاذا تضخمت هذه المعانى ـ بتطورها من دائرة فرد او افراد ، الى دائرة امة او امم ـ كانت آثارها اوسع نطاقا ، وابعد آمادا .

وهكذا تنكمش الحقائق ، وتتلاشي تحت ضغط المآرب الخاصة ، والمطالب المحدودة ، وربما تلاحقت السنون ، وتعاقبت الاجيال ، والناس فى شـغل بما يسيطر على افكارهم الضيقة ، فهم لا يدرون شيئا عما وراءه ، ولو كان ما وراءه سر الحيـاة ، وحكمة الوجـود ، وكنه المصير !

وفى مجال البحوث النظرية ، والعلوم الكونية ، قد يغيب الحق لقلة المعرفة ، أو شيوع الجهل ، اما فى المجالات النفسية والخلقيـة والاجتماعية والسياسية ، فان الحـق يغيب — على الاكثر — لغلبـة الهوى ، وسيطرة الشهوات .

وقد يكون الحق قريب التناول ، ولكن الغرض المسـتحكم يحيل قربه بعدا ، ويجعل الأخذ به عسرا صعبا .

وقد بعث الله محمدا ﷺ الى العالم ، والعامة لا تعرف عن الحق شيئا ، والخاصة تحلم به أملا مختصر الموضوع والعنوان .

حتى اذا اتصل الملأ الاعلى بضمير النبى العربى اخذت لمع من الحق تبدو للبصائر الحائرة ، والقوافل الجائرة لتدلها على الصراط المستقيم .

وشرعت آيات القـرآن الشريف تجلو الغشـاوات التى صنعتها الاوهام ، ونسجتها الغفلات ، وتحذر العميان عقبى الضلال ، وتغرى المستجيبين بخيرات الهدى :

« وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا . وقرآنـا فرقنـاه لتقـرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا . قل آمنوا به أو لا تؤمنوا » (١) ...

آمنوا به أو لاتؤمنوا ، ان هذا التخيير عود الى تحريك العقل ، وايقاظه من سباته ، فان بقى على جهله فلا انتظار لايمان منه ، وان تحرك مع المعرفة الوافدة آمن .

ولذلك يقول الله بعد :

« ان الذين أوتوا العلم من قبـله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا » (٢) ...

والحـق لا يصل اليـه امرؤ مريض الغرائز شـائه السريرة ، كما

---

(١) الاسراء : ١٠٥ — ١٠٧ (٢) الاسراء : ١٠٧ .

لا يصل اليه فكر مضطرب المقدمات ، متتبع للظنون والشائعات ٠

لابد من نظافة القلب واللب معـا ، وسـلامة الضمير والعقـل جميعا ٠

ولذلك يقول الله لداوود عليه السلام :

« ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (١) ٠٠٠

ويقول لمحمد ﷺ :

« ثم جعلناك على شريعـة من الأمر فاتبعهـا ولا تتبع أهـواء الذين لا يعلمون » (٢) ٠٠٠

وبعد ان يقول له :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » (٣)٠٠

يقول « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » (٤) ٠٠٠

ويقول فى اهل الجاهلية عموما « بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم ، فمن يهدى من أضل الله » (٥) ٠٠٠

واضلال الله لأهل الهوى – كاسقاط الأغبياء فى الامتحان – هو نتيجة عادلة لتفريطهم وتلاعبهم ٠٠٠

وليس اجبارا لهم على شرود – كما يظن السفهاء حين يتعرضون لفهم النصوص –

ومن الظنون التى ذاعت ذيوعا هائلا – وهى لا تعدو أن تكون اشاعة ملفقة – القول بمقتل عيسى عليه السلام ، ثم تأليهه على انه رمز للفـداء ٠

وفيها يقول الله جل شانه :

« وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منـه ، ما لهـم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا » (٦) ٠٠٠

ومع هذا اليقين الجازم فان جحافل من البشر مضت عليها عشرون قرنا وهى تصنع من هذه الاشاعة ايمانا يسانده السلاح ٠٠٠

لقد بعث الله محمدا ﷺ ،وليس للحق ظل يأوى اليه احد فى شئون العقيدة ، وأحوال المجتمع ، وطرائق الحكم ٠

---

(١) سورة ص : ٢٦ — (٢) الجاثية : ١٨

(٣) البقرة : ١٢٠ — (٤) البقرة : ١٢٠

(٥) الروم : ٢٩ — (٦) النساء : ١٥٧

كانت الجاهلية القائمة على الخداع والفتنة والسطو ، البعيدة عن اليقين والصواب والهدى ، تسود المشارق والمغارب ، وتجعل لمسير البشر انف وجهة ليس بينها وبين الحق شبه قريب او بعيد . فكانت رسالة محمد ﷺ ان يغرس الحق فى النفوس والبيئات ، وان يقيم له شارات وركائز يعتز بها ، ويأوى اليها ...

ليت الحق يغنى عنه جوهره السليم ، ورونقه الباهر ، فيمنحه ذلك القبول بين الناس ، بل — يمنحه فحسب — ضمان الحياة العزيزة ، التى لا استهانة فيها ولا غشم .

ان الامر على العكس ، فثبوت الحق شىء غير معرفته ، غير الاقتناع به ، غير الثبات عليه ، غير الدعوة اليه ، غير الدفاع عنه ..!

لقد رأينا فى تجاربنا مع الأيام ان الحق غريب مستوحش ، فقد نحسب خدمة الحق لا تعدو تقريره ، وكشف النقاب عنه .

وهذا خطأ ضخم ، فان تثبيت الحق كاحياء جسم ما ، او ادارة آلة ما ، لابد له من جهود دائبة مضطردة ، والا اذابه الباطل ، وجرفه فى تياره ..!

فى القضايا الصغيرة ، قد يحلف الشخص زورا : ان ما قاله صحيح ، ليغتصب مالا حراما ، او يستصدر حكما جائفا .

وعلى ظهر الارض الوف المحاكم لمتابعة هذه المغالطات ، ومحاولة حراسة الحق .

وفى القضايا الكبيرة تقوم السياسة بين الدول على محور لا يمت الى الحق بصلة .

لقد استطاع اليهود ان يجيئوا بعشرات الدول معهم على ان العرب أصحاب فلسطين لا مكان لهم فيها !

واستطاعت دول الغرب الثلاث — خلال هذه الأسابيع — أن تجلب بضع عشرة حكومة معها لتثبت ان مصر — صاحبة « قناة السويس » — لا تملك ادارتها ، ولا تستحق السيادة المباشرة عليها ...!

ومن الممكن — تحت اغراء الدولار ، او وطاة القوة — جمع خمسين دولة للقول بأن لله ولدا ، او ان البعث بعد الموت خرافة ...

ودعوى القوى كدعوى السباع
من الناب والظفر برهانها !

ولا شك أن الحق شىء وراء الرغبة والرهبة ، والقلة والكثرة ، والحاجة والاستغناء ، والغرابة والالف .

وادوات البحث عنه والوصول اليه شيء غير السلاح ، او الرشوة ، او الخديعة ، او التغرير ...

بيد ان العالم قد تمضي عليه اعصار والعملة الرائجة فيه هـذه الادوات وحدها .

ومن ثم يصاب الحق بازمة تاخذ بخناقه ، وتعرضه للتلاشى ، حتى تجيئه النجدة على يد ملهم غيور !

والعبء الذى حمله النبى الكريم محمدا ﷺ لا يتمثل فى أنه كشف الحق بعد خفاء ، وعلمه للناس بعد طول جهل ، ان ذلك ـ وان عظم ـ قليل بالنسبة الى حماية هذا الحق ، ونفخ الحياة فيه حتى يقوى على الثبات فى عالم يموج بالاباطيل موجا ، وتتوارثه عصبيات قائمة ، وسلطات جائمة .

اى شعور كان يختلج فى فؤاد هـذا النبى الكريم وهو يرمق القارات المعمورة على عهده ، وهى تصحو وتغفو على نوع من العيش لا يعرف الله ، ولا يقيم أمره ، ولا يفكر فى لقائه .

قارات يستبد بها الطيش ، ويشيع فيها الجور ، وتنتشر خلالها الكهانات الموقرة ، والحكومات المرهوبة ، والملوك المقدسون !

ان خدمة الحق فى هذا المجال ليست نصرته فى مجلس مناظرة او تأييده بخطبة بليغة ، أو مقالة ساحرة .

كلا ! فما غناء هذه الوسائل المعقولة فى عالم لا يعرف العقل ؟

ان نصرة الحق ـ والحالة هذه ـ تحتاج الى تكوين بيئة خاصة ، بيئة تفقهه ، وتحتضنه ، وتفتديه ، بيئة يتعهدها صاحبها كما يتعهد رب الارض زرعه ، حتى يستوى وينضج .

وكذلك فعل النبى الكريم ، فقد ربى بالوحى جماعة من الناس استنارت بالحق بضائرها ، وكاثرت به الجماهير وهى قليـلة ، ولم تخش فى البقاء عليه والدعوة اليه بطش ذى سلطان ، او حنق ذى عدوان .

والى هذه الفئة المؤمنة بالحق ، الصابرة على وحشته ومرارته ، وكل ابلاغ العالم كله رسالة الله جل شأنه .

فمن آمن فله ايمانه ، ومن كفر فعليه كفره .

اما أن يمسك السكران بعصاه ليقطع الطريق فلا .

اما ان يطلق الاقوياء جنودهم لاحياء ضلالة ، أو وأد حرية ، او اقرار مظلمة فلا ...

ان الحق منذ نشأة الحضارات على الارض عانى الآلام الهائلة من الذين ينتهكون حرمتـــه ، ويحتقرون حجتـــه ، لا لشىء .. الا لأن ايديهم حافلة بأسباب البغى ...

والذين يقراون القرآن يعلمون ان « السيف » ليست له الا وظيفة واحدة ، هى التدخل لتحكيم العقل وحده ، عندما يراد ترجيح الهوى بالقهر ، وتسويغ الحيف بالجبروت ...

ان الف بينة وبينة لم تمنع الفرنسيين من تذبيح اهل الجزائر ، وانكار حقهم المبين .

ولم تمنع الرومان قديما من استعباد اهل مصر ، وجعلهم خدما ينقلون القمح من مزارعهم الى السادة فى « روما » .

فما تكون وسيلة التفاهم مع هذه النواصى الكاذبة الخاطئة الا ان تجذ ، ويراح العالمون من شرورها ..؟؟!!

* * *

على أن الاســلام ربما عذر القاصرين عن ادراك الحــق لتعــذر وصوله اليهم ، وضعف وسائلهم الخاصة لبلوغ مستواه .

ومن هنا حكم علماء المسلمين بنجاة أهل الفترة وأمثالهم ، ممن لم ياتهم رسول ، ولم تجئهم دعوة ...

لكن التبعــة الكبرى تلحق دون ريب أولئك الذين كفروا بعـــد تعليم وارشــاد ، واولئــك الذين استجابوا لوساوس الهـــوى فضلوا واضلوا .

انظر الى خســة العناد فى قوم يقول الله عنهم :

« **افتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** » (١) .

هؤلاء قوم جحدوا الحق عن علم ..

وهم لم يجحدوه فحسب ، بل صــدوا عنـــه ، ونالوا منـــه ، واعترضوا سبيله ..!!

---

(١) البقرة : ٧٥ .

بل هم بعد ذلك كانوا سوط عذاب لمعتنقيه ، ومصدر بلاء وفتنة للداخلين فيه ..

فما يصنع اهل الحق بازاء اولئك المعتدين الا ان يكونوا منهم على حذر واستعداد ؟

ان نبى الاسلام ﷺ جاء الى الناس كما وصفه الله :

« انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، ولا تسئل عن أصحاب الجحيم » (١) ...

انه لم يكلف باكراه احد على الدخول فى الحق ، ولن يؤاخذ عن ضلال من ضل ، بعد ان بلغ الرسالة ، وادى الأمانة ..

ولكنه مكلف بعد شرح الحق ان يقيم حوله سياجا : يرد الغوائل ، ويكسر هجمات السفهاء ، ونزوات المجرمين .

فان ابقاء الحق نقى الجوهر ، مكتمل الضوء ، جهاد اقسي من ابرازه ابتداء للجاهلين والغافلين ..

* * *

ان الله عز وجل وضع للناس من معالم الهدى ما يريح بالهم ، ويؤمن فى الحياة سيرهم ، ولكن الدنيا لم تخل فى القديم ، ولن تخلو فى الجديد من افاكين يؤثرون الكذب على الصدق ولا يستحيون من الصياح به ، ويؤثرون الجور على العدل ولا يخجلون من رمى العالم بأوزاره ، وكى المستضعفين بنيرانه .

وهذا الصنف من الناس لو استمكن من قيادة العالم ، وسياسة اموره ، لملأ آفاقه بالمآثم والمظالم ، وزحم ارجاءه بالضحايا والمنكوبين .

ولمثله يساق قول الله عز وجل :

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ، ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به » (٢) .

وهذا الزجر عن القعود مقعد الوعيد والتهديد تاديب للاقوياء ، وقمع لسطوهم حتى لا يستغلوا تفوقهم المادى فى الايذاء والتضليل .

---

(١) البقرة : ١١٩ .

(٢) الأعراف : ٨٥ ، ٨٦ .

والمؤسف ان اغلب الأقوياء يضريهم ما لديهم من عـدة وعـدد ، فينطلقون فى الارض يبثون فى نواحيها الهمجيـة والفوضى ، وكلمـا استقامت احوال امة من الامم احتكوا بها لأنهم ـ كمـا يقـول القـرآن الكريم : « وتبغونها عوجا » (١) .

وقد كان جديرا بهم ان يقدروا نعمة اللـه عليهم ، وان يتخوفوا نتائج العبث بها واللعب فيهـا ، ومن هنـا يستطرد النظـم الكريم ، مخاطبا اولئك الغافلين :

« وادكروا اذ كنتم قليـلا فكثركم ، وانظـروا كيف كان عاقبـة المفسدين . وان كان طائفـة منكم آمنـوا بالذى أرسـلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين » (٢) .

نعم : ان الله خير الحاكمين . وفى كل صراع بين الحق والباطل يقرر الله حكمه الحاسم :

« فأما الزبد فيذهب جفـاء ، وأما ما ينفـع النـاس فيمكث فى الأرض » (٣) .

وفى كل صراع بين الجبابرة والمستضعفين ، يتأذن الحق بنصرة المظلومين وان طال المدى ولذلك يقول الله لهم :

« لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم » (٤) .

وذلك على شرط ان يعتصموا بالله ويستمسكوا بهديه ، ويعتزوا بحوله « ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد . واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » (٥) .

ومن أدب الاسـلام فيما ينشب بين الناس من نزاع ، ان يتشبث المؤمن بالسلام ، والا يهيجه الى القتال نزق طارىء ، او هوى جامح .

.. بل يجب أن يطاول ، ويجنح الى المعروف ، وكلما وجد مجالا للصلح سار فيه ، او فسحة لارجاء الصدام تمسك بها ، حتى اذا لم يبق من سفك الدم بد ، وحتى اذا خمـل على الحرب حمـلا خاض غمارها وهو اثبت الناس جنانا ، واقواهم بنانا .

وفى هذا يقول رسول الله ﷺ « لا تتمنوا لقاء العدو ، واذا لقيتم فاثبتوا » .

---

(١) الاعراف : ٨٦ .
(٢) الأعراف : ٨٦ ، ٨٧ .
(٣) الرعـد : ١٧ .
(٤) ابراهيم : ١٣ ، ١٤ .
(٥) ابراهيم : ١٤ ، ١٥ .

والحقيقة اننا نواجه فى هذه الايام ضروبا من الاستفزاز تستثير الحليم .

بيد ان ذلك لن يفيدنا الا ضبطا لأعصابنا ، وبصرا بمواطىء اقدامنا ، وحقيقة مطالبنا .

فاذا طاش لب العدو ، وانفلت من قيوده انفلات الوحش ، تلقيناه بعزم لا ينثنى ، وقوة لا تهن .

وما يجوز لمؤمن ان يفرط فى ذرة من حقه رهبة من بطش ، او خوفا من عدوان ، كلا . فقد نبه النبى ﷺ الى ضرورة الكفاح الدامى فى المحافظة على الحقيقة والمحافظة على الحقوق .

« جاء اعرابى الى رسول الله ﷺ يساله : ارايت ان جاء رجل يريد اخذ مالى ؟ قال : لا تعطه مالك . قال : ارايت ان قاتلنى ؟ قال : قاتله . قال : ارايت ان قتلته ؟ . قال : هو فى النار . قال : ارايت ان قتلنى ؟ قال : فانت شهيد » .

وليس اعدل من حرب تخوضها وقد اكرهت عليها اكراها ، حملك الطاغون على ان تصلى نارها ذودا عن حماك المستباح ، وجانبك المضيم ، وحقوقك المسترخصة .

هذه الحرب يجب ان تخوضها وانت تحس تأييد السماء ، ورعاية الله جل شانه ، فانت ترجو نصره ، وترقب عونه ، أما أعداؤك فهم يخوضونها وعليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين .

وقد امر الاسلام الا نألو جهدا فى كفاح المعتدين ، وأن نبذل المال والدم والروح عسى الله ان يكف بأسهم ، ويرد كيدهم . قال رسول الله ﷺ :

« من انفق نفقة فى سبيل الله كتبت له بسبعمائة ضعف » .

وقال ﷺ :

« من جرح جرحا فى سبيل الله او نكب نكبة فانها تجىء يوم القيامة كاغزر ما كانت ، لونها لون الزعفران ، وريحها ريح المسك » .

وقال ﷺ :

« من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون اهله فهو شهيد » .

وفى رواية « من اريد ماله بغير حق ، فقاتل فقتل فهو شهيد » .

وعندما يعلن النفير العام يجب ان تتعاون الأمة كلها على كسب

معركتها ، وعلى النيل من عدوها بكل وسيلة على نحو ما قال الله فى كتابه « **وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد** » (١) .

ان الفوضى الدولية اخذت مرة واحدة تهـــدد العـــالم ، وتمـلأ مستقبله بالغيوم والرعود ، وهى فوضى ينشرها الاقوياء المغرورون ، ليجعلوا العلاقات بين الامم خاضعة لنوازع الهوى ، ودوافع الشهوات، بعيدة عن وحى القانون ، وضوابط الضمير ، وابعد من ذلك كله عن مرضاة الله ، وهداية السماء ...

وهذه الفوضى مالت علينا تبغى اجتياح كل ما حصلنا عليه من ارباح وتقـــدم فى نهضتنا الحديثة ، انها عود للجاهلية الاولى بكل ما شأنها من سوءات وعيوب .

انها همجية فى وسائلها وتفكيرها ، يمدها حقـــد دفين ، وغل قديم ضد العروبة ، وما تحوى العروبة من صحائف الوحى ، ومنارات الحـــق ...

الا فلنصح على الواقع الكالح ، فليست المعركة معركة القناة ، ولكنها معركة الحياة .

وليست المسألة اغتصاب جزء من ارضنا ، ولكنها الاجهـاز على تاريخنا برمته ، حتى لا يبقى فى هذه البقاع حياة ولا ايمان .

فاتقوا الله وجاهدوا عوامل الشر . قال تعالى :

« **والذين جاهـــدوا فينا لنهـدينهم ســـبلنا ، وان اللـــه لمـع المحســنين** » (٢) .

وسئل رسول الله ﷺ عن افضـل الاعمـــال قال : « ايمـــان بالله ورسوله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : جهاد فى سبيل الله »

* * *

---

(١) التوبة : ٥ .

(٢) العنكبوت : ٦٩ .

(٧) حول قيـام اسرائيل ٠٠٠

اكاد اجزم بأن الأمة العربية والاسـلامية فى مطالع هـذا القرن لم تكن تدرى شيئا عن الخطة الهائلة الموضوعة لتمزيقها والتهامها ٠

فى سنة ١٨٩٧ انعقد اول مؤتمر صهيونى عالمى لاقامة وطن قومى لليهود ، على ارضنا طبعا ٠٠ ! فأين للرد عليـه مقالات الأدباء وقصـائد الشعراء وتحذيرات الساسة وتكاتف المجاهدين وتراص القوى المؤمنة لمواجهة هذا العـدوان ؟

لقد اجتمع هذا المؤتمر وانفض والأمـة المقصودة به لا تعى من نبأه الا القليل !

قد يقال : كان حديث اليهود يومئذ احلام طامع سفيه لا يؤبه له !

ونقول : كيف ؟ والاستعمار الغربى كان فى هذه الأثناء يجثم على صدر وادى النيل ٠ ويطوى ارجـاء المغرب الكبير ٠ ويجعل من قنـاة السويس طريقا الى ممتلكاته فى الهند وجنوب آسـيا واكناف الجزيرة العربية ؟

اكان كثيرا على الاستعمار الذى احرز كل هاتيك المغانم ان يقتطع فلسطين ، ويقيم فيها اليهود ؟

كلا ٠ انها غفوة دفع العرب والمسلمون ثمنها من دمائهم وكرامتهم ٠

والغريب ٠ انه فى اثنـاء الحرب العالميـة الأولى صـدر وعـد « بلفـور » ٠

وبعد ان وضعت الحرب اوزارها فى ارجاء الدنيا البعيدة اشتعلت داخل البلد المكروب ، فلسطين ، حرب اخرى لتنفيذ الوعد الخسيس ٠ ولنقل القطر العربى من ابنائه الى اعدائه !

ومع ذلك فان ساسة العرب فى الحرب العالمية الثانيـة قاتلوا الى جانب جزاريهم وكانوا حلفاء للغرب الذى قرر ذبحهم ٠

وقبضوا المـكافاة على هـذا الهوان قيـام اسرائيل ركيزة ضخمة للاسـتعمار الخئون ودوله الطامعـة الجائعة ٠٠ وعلى كل حال فقـد انكشف المخبوء واتضحت الخطة بعد تنفيذها ٠

واسـتبان ان هناك حلفا غير شريف ضـدنا ، طرفاه الاستعمار والصهيونية ٠

وان النجاة من هذا العدو المبين تستدعى تغيرا كبيرا فى فهمنا للأمور . اى تستدعى مواجهة الخطر بكل ما لدينا من قوة ووحـدة . وبكل ما فى رسالتنا من حق وجهاد .

ان خطة الاستعمار قامت على اساس بين هو تمـزيق الرقعـة العربية والاسلامية . وجعل كل مزقة كيـانا مـاديا ، ومعنويا لا صـلة له بالآخر فى ميدان السياسة الداخلية أو الخارجية .

ولما كانت روابط الدين واللغة والتاريخ والمصلحة توحى بالتجمع ذيادا عن الحياة الصحيحة لأمتنا ، فان الاستعمار أوهن هذه الروابط جميعا واجتهد اما فى اماتتها او تاخير مرتبتها ..

ونشا عن هذا المسلك ان العربى فى فلسطين أصبحت له جنسية خاصة ، تجعله غريبا عن اخيه فى مصر الذى اصـبحت له هو الآخـر جنسية خاصـة .

ومع ان العرب رفضوا التوزيع الطارىء على حياتهم الاجتماعية والسياسية ، الا ان هـذا التوزيع الخبيث فرض نفسـه فكان تهـويد فلسطين يتم تلقائيا ، ويتغلب على المقاومة الباسلة التى يبديها عرب الاقليم المحصور داخل حدوده الجديدة .

ان القوميات الضـيقة التى اخترعها الاسـتعمار كانت نكبة على الاسـلام والعروبة معـا .

والفرق كبير بين ان تكون « يافا » مثـلا جـزءا من سـوريا أو مصر . وبين ان تكون بلدا فى قطر عربى آخر تربطنا به صلات الجوار والقـربى .

وقد استبقى الاستعمار هذا التمزيق لأمتنـا الكبرى حتى حقق ماربه من اقامة اسرائيل .

ماذا كان يحدث فى منطقة الشرق الأوسط لو أن الوحدة العربية حقيقة واقعة لا امل يتردد فى نفوس المصلحين ؟ وان الاسلام روح هذه الوحدة لا النزعات الجنسية ، والدعوات المنحرفة !!

أو بعبارة اخرى : ماذا كان يحدث لو أن عصابات صهيون عندما هاجمت فلسطين وجدت دولة عربية واحدة لا سبع دول ، وجيشا عربيا واحدا لا سبعة جيوش .

الذى كان يحدث ، ان هـذه العصابات ـ لو وجدت من نفسـها الجراة على الهجوم ـ كانت ستدفع حياتها ثمنا لمغامراتها .

فاما التهمتهم اسماك البحــر ، او اكلتهم ســباع البر وطيور الجــو ... !!!

ولما امكنهم بتة ان يضعوا اقدامهم على شــبر من تراب الأرض المقدســة .

ولكن تقسيم الأمة العربية الى اجزاء شتى ، واقامة حدود وهمية ليعيش كل جزء معزولا عن اخيه ، هو ما جعل لفلسطين قضــية خاصة بهــا .

ثم هو ما جعل الاقــاليم المحيطــة بها تنكب بحــكام يتاجــرون بقضيتها المحزنة ، ويودون التوسع على حسابها .

ثم هو ما جعل انجلترا ـ ام الخبائث فى ميدان الاستعمار ـ تبذر بذور الخيانة بين الدول السبعة والجيوش الســبعة فاذا الحرب التى وقعت سنة ١٩٤٨ تتمخض عن مهزلة شائنة . واذا عملاء انجلترا من الحكام والرؤساء يخوضون هذه الحرب لا ليحموا فلسطين ، بل ليخلقوا من العدم اسرائيل ...

ان ضياع الوحدة العربية وضعف الجامعة الاسلامية فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ العرب كانا العون الأكبر للاستعمار على غرس هــذا الخنجر المسموم فى كياننا ، وتركه يعمل عمــله الخبيث فى التربص بالعرب والكيد لهم ....

لقد كانت الوحدة الجزئية بين مصر وسوريا بداية هائلة لكبــح اسرائيل واذلالها وطى اعلامها .

فكيف لو كانت الوحدة العربية شاملة تضم بقية الاجزاء المفتعلة على هذه الرقعة الواحدة ؟ .

ان اسرائيل كانت ستذوب من تلقاء نفسها . انها ما كانت لتوجد لو كانت هذه الوحدة قائمة .

وما كانت لتبقى لو ان هذه الوحدة نجحت فى اجتياز العقبات التى بثها فى طريقها الخونة والمستعمرون .

الا ما احكم عظة القرآن الكريم « **ولا تنازعــوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ان الله مع الصابرين** » (١) . « **ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون** » (٢) .

---

(١) الانفال : ٤٦ .

(٢) الأنبياء : ٩٢ .

ماذا حدث عندما بهتت معالم هذه الوحدة ثم انمحت ؟

لقد اعتبرت فلسطين بعد ان عزلت عن شقيقاتها من بلاد العرب كيانا سياسيا لا صلة له بغيره • ووضعت تحت الانتداب الانجلبزى ، وشرع الانجليز الخبثاء يمهدون لمحو العروبة والاسلام منها •

وانتفض عربها الاحرار يقاومون ببسالة هائلة هذه المحاولات السافلة •

ولكن خطة الانجليز كانت ادق ، وأسلحتهم افتك •

والخونة الذين ظاهروهم من حكام العرب كثير •

ومن هنا تعرض المجاهدون الفلسطينيون لنكال فردى وجماعى يذيب الحديد •

وعندما نلقى نظرة عن اساليب التعذيب التى اتبعها الانجليز لتهويد فلسطين يقشعر جلدنا لفظاعتها •

قال المؤرخون المعاصرون لهذه الأحداث :

تفننت السلطة البريطانية فى أساليب التعذيب ووسائله واستخدمت العلم وأدواته لانزال اشد ما يمكن من الألم باهالى فلسطين • والتعذيب عندهم على نوعين : تعذيب فردى لاكراه الفرد على الاعتراف • وهو يجرى عادة فى سراديب تحت الأرض • وتعذيب عام يرتكب فى الجماعات لارهاب الاهلين وارهاقهم وهو يجرى على ملأ من الناس فى البيوت والطرق وساحات القرى فى الليل والنهار •

* * *

● **التعذيب الفردى ودرجاته :**

١ - الزنزانة : وهى سجن ضيق لا يكاد يسع الانسان ، وطعام السجين كسرة صغيرة من الخبز الردىء مع قليل من المـاء .

٢ - الضرب : وهم يضربون الشخص بالسياط والأيدى والأرجل حتى يغمى عليه . وتتورم الرجلان من كثرة الضرب ثم يضعونه تحت صنابير المـاء البارد زيادة فى ايلامه .

٣ - التهديد بالقتل : يخرجون المسدسات ويصوبونها الى وجهه ويهددونه باطلاقها عليه .

٤ - الزجاج والمسامير : يكرهونه على السير فوق قطع من الزجاج والمسامير ويكرهونه على القفز فوقها . فـاذا توقف ضربوه بالسـياط فلا يزال يقوم ويقع والدم ينزف من رجليه ويديه وسائر جسـمه حتى يرتمى آخر الأمر منهوكا أو مغمى عليه . وينزعون ثيـابه ويضربونه بالواح من خشب فيها مسامير فيسيل دمه ...

٥ - أو يجلسـونه على خشـبة « خازوق » ويربطون فى رجليـه اثقالا من اكياس الرمل حتى يغمى عليه .

٦ - أو يربطون ابهامى رجليه بسلك من الحديد ثم يشدونه حتى تكاد ابهاماه تنقطع .

٧ - أو يربطون أعضاءه التناسلية برباط متصل ببكرة من السقف ثم يجذبون الحبل شيئا فشيئا حتى يغمى عليه وكثيرا ما قطعوا عضوه التناسـلى .

٨ - تقليع الأظافر والشعر بكلاليب خاصة ويشدونه من شـاربه ولحيته وينتفون شـعره .

٩ - صب المـاء فى الجوف . ويصبون الماء فى فمه بواسطة قمع خاص حتى يملأوا جوفه وينتفخ كالقربة ويتألم اشد الألم .

١٠ - الكى بالنار : ويحمون أسياخ الحديد حتى تلتهب كالجمر ثم ينخسونه بأطرافها ويأتون بالمسامير المحماة بالنـار ويغرسونها تحت اظافره .

١١ - التعذيب بالكهرباء : يضعون فى يديه جهـازا كهربائيـا ويسلطون عليه تيارا كهربائيا اقل قوة مما يكفى للموت فيرتعد ويضطرب ويختلج ولا يستطيع ان يلقى الجهاز من يديه .

١٢ – الفعل الشـــنيع .

١٣ – سلخ قدمى المعذب وصب الزيت المغلى عليها . ونســف الرجال بالديناميت كما حدث فى قرية الذيب .

١٤ – ينقلونه الى المستشفى حتى اذا شفى ارجعوه الى التعذيب ثانيـــة .

١٥ – يخفون الشخص الذى يظهر عليه اثر التعذيب واحيـــانا يقتلونه ليخفوا اثر الجريمة .

١٦ – التعذيب بالاغراق – يلقونه فى البحر حتى يشرف على الغرق لاكراهه على الاعتراف .

١٧ – المسكرات والمخدرات : يجرعونها للقرويين كرها – يصبونها بحلوقهم ويحقنونهم بالمورفين ويشممونهم الكوكايين والهيروين كما جرى مع رفاق الشهيد المرحوم الشيخ فرحان السعدى .

١٨ – يعدون سراديب خاصة للتعذيب فى دائرة المباحث الجنائية بالقدس وغيرها فلما يجيء دور الرجل المـــراد تعذيبه يأخذونه الى اقبية التعذيب وهو معصوب العينين بعد منتصف الليل وبعد اغمـائه من الألم ينقلونه الى مخفر البوليس ثم اذا افاق يعودون به الى اقبيـة التعذيب .

١٩ – يخفون المعذبين عن اهلهم وسائر الناس لكى لا يمكنـــوا احدا من زيارتهم او معرفة مكانهم . فاذا فرغوا من تعذيبهم وزالت آثار التعذيب من اجسامهم نقلوهم الى سجن القدس أو عكا أو معتقـل المزرعـــة .

٢٠ – منفذو التعذيب اكثرهم من اليهود ويتولى التعذيب ثلاثة من ضبــاط المبــاحث الجنائيـة مـن الانجليز واليهـود وهم : ركز ، وربنصون ، وصوفر اليهودى .

* * *

● **التعذيب العام :**

عندما يعجز الجيش عن ان ينال من المجـــاهدين ، ينقلب الى الفلاحين المساكين الآمنين فى بيوتهم ينتقم منهم ويشفى صدره بتعذيبهم بالضرب الشديد بأعقاب البنادق والهراوات الغليظة بلا شفقة ولا رحمة وبدون تفريق بين الصغار والكبار والرجال والنساء . ويسمون هـــذا العمل عملية تفتيشية . ويرتكب خلالها من الفظائع اشــكالا والوانا . وكل القرى ذاقت فظاعة التفتيش ويتخلله تخريب البيوت ونســـفها بالديناميت واتلاف امتعة الفلاحين ومؤنهم ونهب الحلى والأموال وترويع النساء والأطفال وقتل الآمنين على قارعة الطريق من رجال ونســـاء واطفـــال .

وقد اشتهر التعذيب العام فى القـــرى الآتيـــة :

كفر كنـــا (الناصرة) ، كفر منـــدا (الناصرة) اكســـال واندور (الناصرة) سخنين (عكا) حيث قتلوا رجلا اسمه عبد الله الأحمد ، سحماتا (صفد) ترشيحا (عكا) ، مدينة صفد ، سلوان (القدس) يالوا (القدس) بيت محســير (القدس) الطيبـــة (بنى صعب) . قوله ، سلواد ، دير نظام ، الظاهرية ، حلحـــول ، بيت فجـــار ، صفورية ، كفر جمال ، أم الفحم ، سيلة الظهر ، ســـيلة الحارثية ، قباطية ، حطين ، الرينة ، شـــعب ، الكابرى ، الذيب ، قاقـــون ، جلجولية ، عرعرة ، حجة ، اليامون ، عرابة ، يعبد ، بلعا ، عصيرة ، اجزم ، البعينة ، طيرة بنى صعب ، طيرة حيفا ، ميثلون ، عجة وقرى الخليـــل .

وكل قرية تعلم من انواع التعذيب ما يذكره ابناؤها بالتفصيل مما لا يمكن انكاره . ويكفى مجىء لجنة دولية حيادية لدرس الوثـــائق والتحقيق فى القدس نفسها عن الفظائع التى ارتكبها الجيش البريطانى بالرجال والنساء والأطفال مما يقطع على الحكومة البريطانية السبيل فى انكارها المستمر والحقائق راهنة . وقد استعمل الجيش أيضا طرق التجويع والتعطيش واسقاء الناس بولهم ووضعهم فى الكلس (١) غير المصفى ثم صب الماء عليه حيث تهترىء أجسامهم من فعل النار وانتقاء عدد من الشبان باليانصيب لقتلهم كطرق للتعذيب العام .

---

(١) الجير الحى غير المطفأ الذى يستعمل فى البناء .

اما عملية منع التجول ومنع النساء يوما او يومين او اكثر من النزول الى السوق لمشترى حاجاتهم الضرورية وحبسهن فى بيوتهن فهى من المسائل العادية التى تتكرر كل يوم تقريبا .

لقد فعل الانجليز كل المنكرات حتى يمهدوا لاقامة اسرائيل .

واخضعوا فلسطين لعسف متصل واذلال مروع كى يطفئوا نار المقاومة التى ظلت مشبوبة امدا طويلا . واكرهوا الفلاحين الذين ماتت اراضيهم عطشا على هجرها او بيعها لليهود . وبذلك يتم تهويد الأرض نفسها ، مقدمة لتهويد ما فوقها . وهى خطة يتبعها الاستعمار الاوروبى فى بلاد كثيرة ليجعل نكايته بالأمم المستضعفة تأخذ الطابع القانونى !!!

ومع ان العرب فى فلسطين كانوا ينوءون تحت ضغط الانجليز والصهيونية العالمية فقد بقوا الى آخر رمق قادرين على رد الضربة بمثلها . وظل المجاهدون الأحرار رابطى الجأش فى وجه المقررات الدولية الجائرة . وظاهرى الصلابة فى الانتقام لما يصيب اخوانهم من بأساء وضراء .

واليك هذا النموذج لما حدث فى شمال فلسطين . وهو نموذج لمعارك الجهاد النبيل فى بقاع شتى من الأرض المقدسة .

على أثر اعلان هيئة الأمم الموافقة على مشروع تقسيم فلسطين فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ قامت الاضطرابات فى جميع انحاء فلسطين ومن جملتها « حيفا » وكان الانجليز قد اتخذوا لهم مراكز حصينة فى جبال الكرمل للدفاع عن ميناء « حيفا » فى أثناء الحرب العالمية الثانية . وكانت هذه المراكز ضمن الأحياء اليهودية بحكم طبيعة موقعها .

وعلى اثر قيام الثورة العربية سلم الانجليز هذه التحصينات بما فيها من أسلحة لليهود الذين أخذوا يمطرون الأحياء العربية بوابل من القذائف من هذه المراكز التى تسيطر على المدينة سيطرة تامة مما جعل فريقا من المجاهدين يقوم بعدة عمليات حربية كانت آية فى البطولة والتضحية اذا قورنت قوتهم بقوات اليهود ودباباتهم وأسلحتهم .

نذكر منها ما حدث على اثر تعرض اليهود لقافلة قائد حامية حيفا محمد بك الحمد الحنيطى القادمة من لبنان والتى كانت تحمل أسلحة وذخائر للمجاهدين . وقتل من فيها وذلك فى يوم ١٩ مارس سنة ١٩٤٨ فقد قام المجاهدون فى حيفا بنسف عمارة سوليل يونيه وهى

عمارة ضخمة كان يستعملها اليهود أوكارا لصيد الأبرياء وذلك فى ٢١ مارس سنة ١٩٤٨ · وأصيب أكثر من ٦٠ يهوديا فى هذا الحادث ···

وكان هناك فى شارع الناصرة متاجر لليهود وكانت قلعة حصينة بنيت فيها الاستحكامات المنيعة · وقد تمكن المجاهدون من نسفها ·

أما المشغل الصناعى — رابيدا — الذى حوله اليهود الى مصنع الغام بعد ان كان مصنعا للمكرونة والذى نسفوا بالغامه دار منظمة الشباب العربى وعمارة سلام ودائرة الشئون الاجتماعية وخلافها فقد تمكن المجاهدون من نسفه وتدميره تدميرا كاملا وقتل كل من فيه ·

كما قاموا كذلك بنسف أوتيل بوست والمطحنة الكبرى التى كانت فى شارع الحجاز وكانت من امنع حصون اليهود ، هذا عدا الهجمات المضادة التى كانوا يصدون بها اليهود مع الصعوبات التى كانوا يكابدونها لقلة السلاح والعتاد ، ولانقطاعهم عن القرى المجاورة · وذلك نظرا للخطة الخبيثة التى وضعها الانجليز حيث استولوا على جميع مداخل المدينة ومنعوا عنها النجدات وأعطوا اليهود كامل الحرية للتصرف فيها بعد أن قاموا بتدريبهم على جميع انواع الأسلحة وزودوهم بها وسلموهم المواقع الحربية الحصينة حيث استطاع هؤلاء الاستيلاء على المدينة بعد معارك عنيفة بين قوى غير متكافئة ·

وبالرغم من ندرة السلاح وقدمه مع قلة العتاد والذخيرة سطر العرب صفحات خالدة من البطولة وصور نادرة من التضحيات كانت امتدادا لشهور طويلة من النضال المتواصل ·

هذا وقد صمدت جوالة حيفا أمام جيوش منظمة · وسلاح حديث جبار وانتهت أيامها بعد أن عاشت فى لهيب من القنابل والمدافع وراجمات الألغام والمتفجرات التى دمرت معظم الأحياء والشوارع العربية وذهب فيها المئات الكثيرة من الشهداء والضحايا ·

* * *

بكل ما عرفت الدنيا من غدر وخسة واغتيال واحتيال تضافر الاستعمار والصهيونية على سحق فلسطين واقامة اسرائيل ·

بيد أن الجولة الثانية — ويومها قريب — ستثأر من ذلك كله « ويومئذ يفرح المؤمنون · بنصر الله » (١) ·

---

(١) الروم : ٤ ، ٥ ·

(٨) اسرائيل والاستعمار

لو اراد اعدى اعداء بنى اسرائيل ان يفضح خباياهم ويكشف طواياهم ، ما تحدث عنهم بأفضح مما تتحدث به افعالهم ، وتخبر عنه أحوالهم .

لقد برهنوا من تلقاء انفسهم على ان اضغان الشعوب عليهم عدل، واثبتوا للعالمين ان ما نزل بهم من اضطهاد على مر العصور لم يكن الا التاديب الحق لطبائع السوء ، ومصادر الشر .

فما حاف عليهم جبار استباح دماءهم واموالهم ، كما لا يحيف احد يترصد للذئاب الجائعة ، ويطارد الوحوش الضارية .

ان بنى اسرائيل هؤلاء ما تجمع لديهم مال الا سخروه فى الفتنة ، ولا وقع بأيديهم سلاح الا استعملوه فى الأذى ، ولا التأمت لهم جماعة الا تعاونت على الاثم والعدوان ، ولا أسديت لهم نعمة الا جحدوا صاحبها وكفروا حقه ، ومن قديم قال الله لهم :

« لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل وأرسلنا اليهم رسلا ، كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون . وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم ، والله بصير بما يعملون » (١) .

انهم هم الذين زرعوا احقاد العالم عليهم ، وجعلوا العصور تتوارث كراهيتهم ، وجعلوا كل قوى مصلح يتقرب الى الله بتقليم اظافرهم ، وتشتيت شملهم .

ولو ان الناس امنوا جانبهم يوما ، أو توسموا فى قلوبهم خيرا ، ما اكنوا لهم الجفاء ، ولا اظهروا لهم تلك البغضاء .

فى عصر النبوة عاشت عصابات من اليهود الى جوار المدينة التى استقرت فيها الدعوة الاسلامية . وآثر رسول الله ﷺ ان يكرم جوار القوم بوصفهم أهل كتاب ، فالاسلام يذكر موسى أطيب ذكر ، ويمدح كتابه اجمل مدح :

« انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » (٢) .

---

(١) المائدة : ٧٠ ، ٧١ .   (٢) المائدة : ٤٤ .

وفى ظلال هذا النسب ، بسط المسلمون ايديهم بالصداقة لبنى اسرائيـل .

بيد أن هؤلاء تظاهروا بالمودة وقلوبهم تغلى ، وقبلوا مسـالمة النبى ﷺ وصحبه ، ثم اخذوا يرقبون الأيام لعلهم يجدون ثغرة تشـبع ضـغنهم .

وتألم المسلمون لهذه السياسة الخادعة التى اتبعها بنو اسرائيل ، وحاولوا ان يطفئوا نارها بمزيد من الاحسان والتودد ، ولكن اليهـود بقوا على موقفهم ؛ اذا أصاب المسـلمون شرا بدا عليهم الفـرح ، وان مسهم خير ظهر عليهم الكمد ، وان اقبل صديق نابذوه ، وان جاء عدو عاونوه . وما رعوا مع المسلمين جوارا قائما ، ولا احترموا ميثـاقا معقـودا .

ومتى كان للذئاب المسعورة عهد اذا وجدت ضحية ، وتاحت لها فرصـة .

من اجل ذلك تنزل الوحى الالهى يامر رسول الله ﷺ ان يحذر هذه العلاقات المريبة ، وأن يمنع هذا اللعب الشائن بالمعاهدات المبرمة، وان يضرب اليهود ضربة توجع ظهورهم ، وتلفتهم الى أن الغدر شؤم ، وان طريق الخيانة ذل فى الدنيا وخزى فى الآخرى .

قال الله عز وجل : « **ان شر الدواب عنـد الله الذين كفـروا فهـم لا يؤمنـون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضـون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون . فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سـواء ، ان الله لا يحب الخائنـين** » (١) .

والغريب أن سيرة هؤلاء العابثين بعد اربعة عشر قرنا لم تتغير قيد انملة عن طليعتها الأولى .

الغدر هو الغدر ، والخيانة هى الخيانة ، والقسوة هى القسوة ، وكل ما يسخط الله ويؤذى عباده ، هو هو لم تنقض ضراوته .

انظر الى قوله تعـالى : « **ينقضون عهـدهم فى كل مرة وهم لا يتقـون** » .

انه احصاء شامل يصم اليهود بخسة لا تتخلى عنهم ، ولا يتخلون عنهـا .

---

(١) الأنفال : ٥٥ - ٥٨ .

غدر فى كل مرة . لم يخطئوا مرة واحدة فيوفوا بعهود الله وعهود الناس !

وها قد انقضت دهور ، واستطاع اليهود فى غفوة الحق ، وسكرة أهله ، أن يقيموا لهم دولة ، أو بتعبير أدق أن يقيم لهم المستعمرون دولة .

وفرضت على العرب — وهم فى دهشة المفاجأة — هدنة ، قسمت بلادهم ، وشردت اخوانهم ، وطعنت فى الصميم كرامتهم ..

ورضى القتيل ، ولم يرض القاتل .

فان معاهدة الهدنة الجائرة وقف عندها العرب خافتين ، أما بنو اسرائيل الذين اتصلت حدود دولتهم هذه بمصر والأردن وسوريا ولبنان ، فان عربدة الغدر جعلتهم بين الحين والحين يهجمون هنا أو هناك .

واسمع الى الاحصاء الرسمى لغدرات اليهود على حدود مصر وحدها .

فى سنة ١٩٤٩ ، وعقب اتفاق الهدنة مباشرة وقع ١١٦ اعتداء .
وفى سنة ١٩٥٠ وقع ٤٤ اعتداء .
وفى سنة ١٩٥١ وقع ١٨٧ اعتداء .
وفى سنة ١٩٥٢ وقع ١٥٥ اعتداء .
وفى سنة ١٩٥٣ وقع ١٧٤ اعتداء .
وفى سنة ١٩٥٤ وقع ٢٥٩ اعتداء .
وفى سنة ١٩٥٥ وقع ٢٧٦ اعتداء ... الخ .

وتميزت اعتداءات بنى اسرائيل خصوصا سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٥٧ بطابع منفر من الوحشية والغلظة ، فان تمزيق الجثث وبقر البطون ، وارداء الأطفال والنساء والرجال بالجملة كان ديدنهم فى كل هجوم .

فى ثمانى سنوات بعد عقد الهدنة نقضت هذه الهدنة مع مصر وحدها ١١١٢ مرة !!

ولو كان هؤلاء اليهود قطعانا من الكلاب أو الذئاب ، أكانت تذبح أو تعض فوق هذا العدد ؟؟

ان الغدر شيمة اليهود ، كما أن المكر شيمة الثعالب ، ولن يزالوا

كما وصفهم الله من قرون « ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقــون » (١) !!!

ثم انظر كيف ان الكفر ملة واحدة ، وكيف ان المسلمين اخذوا على غرة عندما احاط بهم في خريف سنة ١٩٥٧ ، جيوش ثلاث دول ، تضرب أرضهم من البر والبحر والجو !

تحركت عصابات اليهود لتحتل غزة ، والتقت على موعد بثمانية وثلاثين سفينة حربية انجليزية وفرنسية ، شرعت ترجم المدينة بقذائفها لتكرهها على الاستسلام لبنى اسرائيل .

وفى الوقت نفسه ظهرت ثلاث بوارج أمريكية لتنقل رعايا الولايات المتحدة ، ومراقبى الهدنة ، وموظفى وكالة اغاثة اللاجئـين !! وذلك لتدور المجزرة بين المسلمين وحدهم .

ان أمريكا دولة حريصة على دماء بنيها ومن على ملتهم ، ومـن والاهـــم !!!

وما ان طلع الصبـاح الأخير حتى كان الجيش الانجليزى يحتل غـــزة .

ثم انقضت فترة الظهيرة ، واقبلت بعـدها عدة سيارات تحمل اليهـود الذين قيـل عنهم : انهم هزمـوا العرب ، ودخلوا المدينـة ظـافرين !!

اما فى خان يونس فان المناضلين المسلمين ردوا اليهود مرة بعد اخرى ، والحقوا بهم خسائر فادحة حتى تدخل الانجليز واستولوا على القرية الجريحة بعد أن استشهد فيها نحو الف بطل .

وكذلك الحال فى رفح ، وفى شبه جزيرة سيناء . كانت القوات الفرنسية والانجليزية تمهد السبل أمام اليهود ، وتستطيع بتفـوقها الهائل أن تفتح المغاليق ، وتزيح العوائق ، ثم ينطلق اليهود بعد ذلك ليضعوا أيديهم على البلاد وأهلها .

وتنطلق الوف الاذاعات فى الوقت نفسه تنوه بانكسار العـرب ، وذوبان مقـاومتهم أمام حماس اليهود ، ونظامهم ورجحـان كفتهم !

كل ما تغير بعد هذه القرون الطوال أن بنى اسرائيـل يشرعون أسلحتهم فى وجوهنا مستندة الى الاسـتعمار الغـربى ، بل ان هـذا

---

(١) الأنفال : ٥٦ .

الحليف الجديد لا يكتفى بمساندتهم ، بل يقويهم اذا ضعفوا ، وينصرهم اذا انهزموا ، ويغنيهم اذا افتقروا ، ويؤيدهم فى كل مجال بما يطلبونه من خصـــام او سلاح او رجـــال ..

وقد كان فى قدرتنا ان نكسر صولة اليهود لو انهم هاجمـــونا وحدهم ، غير ان عبء الكفاح تضاعف علينا : بعد المظاهرات المزدوجة التى رتبها الاستعمار الغـربى مع بنى اسرائيل ، وهذا العبء الثقيل لا يرتاع له مؤمن ، ولا تتوجس منه امة تعتمد على الله الكبير ..

***

ان امتنا من ازمنة قديمة كانت تبتلى بكثرة الاعداء ، وطالمـا امتحنت بالحروب الطاحنة ، تسعر ضدها فى اكثر من جبهة ، ويشـعل نارها خصوم اشداء الوطـأة ....

ومع ذلك ما اثر عنها قط انها وهنت او استكانت ...

وفى زمن النبوة شغل المسلمون بقتال أحزاب الوثنية ، وعصابات اسرائيـل ...

وفى زمن الصحابة شغلنا بقتال فارس والروم ...

ثم مشى تاريخنا الى الامام ثابت الخطو ، فاذا هو يصطدم بزحفين همجيين ما كان يظن لليلهما نهار ، زحفت التتار من الشرق ، وزحفت اوروبا الحاقدة من الغرب ...

وبعد جلاد مر المذاق ، خرجنا من هذه الغمة منصورين موفورين ، ورددنا الفوضى المقبلة من هنا ومن هناك .

وقد تنادى الاعداء علينا مرة اخرى ، وتضافرت قوى الاسـتعمار مع عصابات اليهود لتقضى على بلادنا وايماننا ومثلنا ومقدساتنا ..

وها نحن نخوض المعركة التى فرضتها الاحقاد والاطماع ...

وعلينا أن نؤدى الواجب كاملا ، لنخرج منها مثل ما خرجنا من معاركنا التاريخية القديمة .

علينا ان نقوى صلتنا بديننـا ، ونوثق أواصرنا بربنـا ، وننمى اخلاصنا لمـا بين ايدينا من هدايات غالية ... فان الايمان الراسـخ ليس قوة نفسية فقط ، بل هو حصانة جماعية تعتصم بها الامة والدولة ضد المتربصـين والخائنين ...

ثم علينا ان نعبىء مواردنا المـادية والادبية كلها ، وأن نبـذل كل ما اوتينا من طاقة لدعم حاضرنا وتأمين مستقبلنا ...

والاسلام فى جهاده للطغاة والبغاة يستنفد كل مورد ، ويحشد كل جهد ... قال الله عز وجل :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وماتنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون .. » (١) .

عن ابى ذر رضى الله عنه ، قلت : يا رسول الله .. اى الأعمال افضل ؟ فقال : « .. الايمان بالله والجهاد فى سبيله » .

وقال : « أفضل الأعمال عند الله ايمان لا شك فيه ، وغزو لا غلول فيه » .

وروى الحاكم عن عمران بن الحصين ان رسول الله ﷺ قال : «مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله افضل عند الله من عبادة ستين سنة ..»

انه ما من حاكم صالح ولى أمور هذه الأمة الا اعتمد فى سياسته على استثارة خصائص الخير فيها ، واحياء قواها الكامنة وحدها .

خصوصا اذا هاجت الدنيا مطامع الأقوياء ، واضطرمت الحياة بفتنهم ومآربهم .

ومن هنا كان موقف الحياد بين شتى القوى الأجنبية أمرا لا محيص عنه .. بل هو فى هذه الأيام مقتضى الايمان ..

وقد حدث فى اخريات الدولة الفاطمية أن جنح بعض الحكام الى الصليبيين ، يستعين بهم على دعم سلطانه ، واعزاز شأنه ، فكان جنوحه الى هذه القوى الغازية الخائنة جناية على الدين واهله ، وخيانة للمسلمين ومصالحهم .

فماذا جنى من هذه السياسة ؟

ان الله دمر عليه وعلى من معه ، وكانت الخيانة التى لجأ اليها هى التى خطت مصرعه .

ثم أنقذ الله البلاد من عواقب هذه السياسة المعوجة ، فانتصر أهلها المخلصون ، وطردوا الأجانب اجمعين ، وذهب من والاهم أدراج الرياح .

ان نفوسنا تغزوها الحسرات عندما نسمع نفرا من ساسة العرب يبنون مستقبل بلادهم وذراريهم على محالفة الاستعمار الغربى !

---

(١) الأنفال : ٦٠ .

وعندما نسمعهم يستنكرون سياسة الحياد ، ويقرون في حرارة ورغبة أن تكون مواطنهم مسرحا لانجلترا وفرنسا وامريكا — واسرائيل — (!)

والحقيقة ان القوم نضبت خلال العزة والشرف من بين جوانحهم، اما عواطف الايمان بالله ، والغيرة على دينه وعباده ، فقد انقضت من زمان سحيق ..

والا فأين هذا المسلم الذى يتسع ضميره لمصافحة الانجليز والفرنسيين وأيديهم مخضبة بدمائنا ؟!

واين هذا المسلم الذى يحالف الأمريكان ورئيسهم ما يفتأ يؤكد فى اسراف منكر أن اسرائيل خلقت لتبقى ؟ وأن وجودها فى ضمانه وضمان بلاده التى تملك اعظم قوة فى العالم !

اننا ننادى بسياسة الحياد ! لا لعجزنا عن الثأر لما نزل بنا من لطمات مخزيات ، فهل بلغ من رضا البعض بالدنية أن يركل بالقدم، ثم هو يتمسح بأذيال راكليه ؟ ويريد الانضمام لمعسكرهم ، والعمل فى صفهم ؟

الا فلنعلم علم اليقين أن الاستعمار الغربى ان قبل اليوم بعض الدولة العربية ذيلا له ، فالى حين قريب ! وسوف يأبى عليهم حق الحياة ولو خدما !

ان انجلترا وفرنسا وامريكا يكرهون الاسلام ، **ويمقتون اهله** ، ويصنعون لهم الشر حالا ، وينوون لهم ما هو أقسى وأنكى مستقبلا ..! ذلك الى جانب أن تاريخ الاستعمار القديم والحديث هو تاريخ النهب والسلب ، والقرصنة وسفك الدماء وقتل الأبرياء ، .. مضافا اليها قدرا وفيرا من التبجح وقلة الحياء !

اقرأوا معى — على سبيل المثال — هذه الفقرة من خطاب قائد الأسطول البرتغالى الذى استولى على مقاطعة « جوا » الهندية ، منذ أربعة قرون ... وهو « البو كيرك » الذى كتب الى ملك البرتغال يقول :

« ... وبعد ذلك أحرقت المدينة — أى جوا — ، وأعملت السيف فى كل الرقاب ، وأخذت دماء الناس تراق أياما عدة .. وحيثما وجدنا المسلمين لم نوفر معهم نفسا ، فكنا نملأ بهم مساجدهم ، ونشعل فيهم النار ، حتى أحصينا ستة آلاف روح هلكت ، وقد كان ذلك يا سيدى عملا عظيما رائعا اجدنا بدايته ، وأحسنا نهايته » !

عمل عظيم رائع !

اليس كذلك يا مستر دالاس ؟

الكانت هذه الوقائع فى رأسك حينما وقفت فى أحد مؤتمراتك الصحفية ، تنتصر للبرتغال فى قضية « جوا البرتغالية » ؟

اليس كذلك يا أصدقاء مستر دالاس ، ومحترفى الدعاية للأحلاف العسكرية فى ظل الدول الاستعمارية ؟!

اليس كذلك يا ساسة العرب ؟ أجيبوا ، ان كنتم صادقين ؟

* * *

يجب علينا — نحن المسلمين — أن نتدلى من ابراج الخيال التى نعيش فيها وسط جو حالم من ايثار السماحة ، واحترام حرية الفكر والضمير ، وسط جو من النظر الى المخالفين فى العقيدة نظرة اعتذار لموقفهم ، او اعتراف بما انتهوا اليه ، مهما كان راينا فيه .

نعم ، يجب أن نتدلى الى دنيا الناس هذه ، لا لنتخلى عن فضائلنا ، ونشارك الآخرين اساليب خصامهم ! فمعاذ الله ان نقول هذا ، بل لنرى — فحسب — حدود السجن الذى يحيا داخل ظلماته بعض المتعصبين ، ولنرى — فحسب — مظاهر القسوة التى تقترن بافئدتهم اقترانا لا فكاك منه ! وهذه الرؤية ضرورية لاستكمال المعرفة بطبائع الملل والأجناس ، وهى كذلك ضرورية لنعرف اطرافا من سير الأقوام الذين شنوا الحرب علينا ، وقرروا اغتصاب اهم اراضينا منا ...

اننا نعتبر المخالفين فى العقيدة اندادا لنا فى الحقوق والواجبات ، وفق القاعدة المشهورة : لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ونحن نرى — من تقوى الله — برهم والاقساط اليهم ، ونعرف ان ترويع المخالف فى العقيدة — مهما كثر المسلمون حوله ، ومهما قل فى نفسه ، أو فى نفره — لا يجوز ولا يقبل .

ويكفى فى الدلالة على هذا ما يعرف القاصي والدانى أن نبي الاسلام مات ودرعه مرهونة عند يهودى ، أبى أن يبيعه نسيئة الا برهن ! ذلك والمسلمون فى الجزيرة العربية هم كل شىء ، واليهود ليسوا بشيء فيها قط ...

فهل يعلم المسلمون الطيبون أن الأمر عند غيرهم — وأعنى اليهود خاصة — على العكس من ذلك ؟

وان من هؤلاء المؤمنين بالتوراة ـ كما يزعمون ـ اناسا ينظرون الى مخالفيهم فى العقيـــدة وكانهم من عــــالم الحيوان لا من عـــالم الانسان ٠

وانهم ـ بعد الايغال فى هذه النظرة ـ يتقربون الى ربهم بدم هذا المخالف ، يذبحونه ، ثم يصفون دمه زجاجات ، ثم فى الأعياد الدينية والمناسبات السعيدة (!) يخلطون دم الضـحية بطعامهم وشرابهم ، ليأكلوا هنيئا ويشربوا مريئا !

هذا كلام لا نحكيه من عـــالم الأوهــــام ، فان القضية بحوادثها وشهودها ومحققيها سنضعها بين يدى القارىء الآن ، وهى قضية شاءت الأقدار ان يكون ضحيتها رجلا نصرانيا مسكينا ٠٠٠

والانسان يملؤه الروع وهو ينقل المأساة ، اننا نسمع فى الصحف ببعض الرجال فى الصعيد اذا فرطت امرأة فى عرضها قتلوها ، وشربوا من دمها ، ومع وحشية هذا العقاب ، فأساسه مسح العار الذى يصيب شخصا أو أسرة خرجت ابنتها على تقاليد العفة ، ونكست رؤوس أهلها بفعلتها ٠٠٠

فهم يشفون غليلهم للهوان الشخصي الذى اصابهم ، وهم فى ذلك الصنيع ـ كما قلت ـ وحوش ٠

بيد اننى ما تصورت ان يبلغ الهوس الدينى ببعض المتعصبين ان يشرب من دم خصومه فى العقيدة على هذا النحو الذى يصنع اليهود ، ولا تصورت ان يكون من معالم التقوى فى دين ما تقديم قرابين بشرية يسترضي رب العالمين بذبحها ! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا !

لكن اليهود فعلوها ، وسترى انهم ما يزالون يفعلونها ، واليك تفاصيل المأساة ، وان اقشعر لها البدن ٠ ونحن نسجلها نقلا عن كتـــاب « الصهيونيـــة اعلى مراتب الاســـتعمار » ٠ وقد قال المؤلف تقدمـة للحادثة :

رأت بعض الحكومات حقنا للدمـــاء ، ستر بعض هذه الجرائم الفردية حتى لا توسع شقة الخلاف بين المواطنين ، أو حتى لا تنقلب الثورة على اليهود الى ثورة على النظام الراسمالى كله ، لكن هــذا كله لا يمنع الحقيقة ، وهى أن بعض المتعصبين المجانين من اليهود قد لطخ يديه فعلا بهذه الجرائم ، حتى لقد اضطرت الحكومة الفرنسية اذ ذاك الى حرق جميع النسخ المطبوعة من التلمود على اثر ما لوحظ فعلا

من انتشار بعض هذه الجرائم البربرية فى فرنسا .. وفى سائر بلاد العـالم ...

ومن اشهر هذه الجرائم الشنيعة ما ذكره المؤرخ الفرنسي « شارل لوران » فى كتابه المثير « المسائل التاريخية عما جرى فى سوريا سنة ١٨٤٠ » عن « مقتل الأب تومـا وخادمـه ابراهيم عمـار ... فى دمشق » .

وقد لخص الدكتور يوسف نصر الله هذا الحادث فى مقدمة الترجمة العربية للكتاب (١) على النحو الذى ننقله هنا بالحرف الواحد ...

« وفى مساء اليوم الخامس من شهر فبراير سنة ١٨٤٠ طلب الأب توما لحارة اليهود بقصد تطعيم ولد للوقاية من الجدرى فلبى الدعوة فى الحال . ولما ان شاهد ان الولد المطلوب لأجله مريض وفى درجة الخطر لم ير اجراء التطعيم موافقا ، فرجع لديره وكان بالقرب من بيت الولد المريض دار « داوود هرارى » وكان هذا الرجل معدودا من اتقى اليهود فى الشام ، وكان النصارى يبالغون فى اعتباره وتوقيره واكرامه ، حتى انهم كانوا يقولون عنه يهودى نصرانى صالح ، وكان « داوود هرارى » صديقا للأب توما ، فلما رآه مارا أمام داره استدعاه للدخول ، فلبى الأب دعوته ودخل فوجد هنـاك اخا داوود وعمـه واثنين من عظماء اليهود ، فلما صار فى احدى الغرف اغلق الباب ، وانقض الجميع عليه كالذئاب الكاسرة ، ووضعوا على فمه منديلا ، وربطوا يديه ورجليه ، ثم نقلوه الى غرفة بعيدة عن مطل الشارع ، والقوه هناك الى ان اظلم الليل ، واخذوا فى الاستعدادات اللازمة لذبحه ، فلمـا جاء حضرة الحاخام استدعوا حلاقا يهوديا اسمه « سليمان » وامـروه بان يذبح القسيس ، فخاف هذا الرجل وامتنع عن الاقدام على العمـل ، فجاء الرجل التقى بين اليهود ... الرجل الوقور « داوود هرارى » صديق الأب توما بنفسه فاخذ السكين ونحره » .

ويمضي الدكتور يوسف نصر الله فى تلخيص الحادث المروع من واقع التحقيقات الرسمية التى قدمها المؤرخ الفرنسي فى كتابه ، ويذكر كيف ارتجفت يد القاتل وهو يذبح صديقه ، فتقدم أخوه هارون فاكمل الذبح ، وكان سليمان الحـلاق قابضـا على لحيـة الأب توما ، وكان

---

(١) نشرته مطبعة المعارف عام ١٨٩٩ .

المتجاهرون يتناولون الدم فى اناء ثم يضعونه فى زجاجة بيضاء أرسلت فيما بعد الى الحاخام باشا يعقوب العنتابى .

وبعد ان تمت تصفية دم الذبيح على هذه الحالة نزعوا ثيابه عن جثته واحرقوها ثم قطعوا الجسد قطعا وسحقوا العظام بيد الهاون ، وطرحوا الجميع فى إحد المصارف المجاورة لمنزل الحاخام موسى أبى العافية ، وظنوا انهم بهذه الوسيلة قد دفنوا الحادثة فى قبر عميق ، ولكن الدم البرىء بقى يصرخ الى الله كصراخ هابيل عندما قتله قابيل اخوه .

فلما طال وقت رجوع الأب توما الى ديره قلقت افكار خادمه ابراهيم عمار ، وبما انه كان عالما بتوجه معلمه لحارة اليهود جاء اليها يسأل عنه ، فدخل دار « داوود هرارى » وسأل من كان فيها عن سيده ، فأدخلوه منزل بعض المتهمين وذبحوه كما ذبحوا معلمه ، وكان الأب توما دعى لوليمة عند طبيب والى دمشق فى ٦ فبراير ، ولكنه لم يذهب فى الميعاد المحدد بسبب فقده قبل ذلك اليوم ، وعدم رجوعه الى الدير ، وجرى البحث عليه اذ ذاك بدون فائدة ...

اما كشف الحادثة فكان على الصورة الآتية وهو انه فى صباح اليوم الثانى — ٦ فبراير — جاء الذين كانت عادتهم الحضور لسماع قداس الأب توما . فمن حضر منهم أولا ظن انه نائم ، ومن حضر اخيرا حسب أن القداس انتهى ، والقسيس خرج لأشغاله ، مع ان بعضهم قرع الباب فلم يجاوبه أحد ، وبعضهم قال أنه شاهد الأب توما عشية أمس متوجها لحارة اليهود فقلقت افكارهم ، فأعلموا الباقين بالأمر ، فوقع بين الشعب هيجان ، وسار البعض الى سراى الحكومة ، وطالبوا بالفحص والتدقيق عن هذا الأب » .

واشتغل قنصل فرنسا بهذه القضية ، واعطاها ما تستحقه من الأهمية ، فظهر اثناء التحقيق ان الحلاق اليهودى دعى ليلا عند التاجر اليهودى « هرارى » فنظر الى الأب توما مكتفا ومطروحا على الأرض ، ثم جرى كما سلف ، وعند وجود الجثة عثر ايضا على قطعة من الطاقية التى كان يلبسها الراهب وهى معروفة فى دمشق كلها .

واعترف اذ ذاك سبعة من المتهمين قائلين انه قبل الواقعة بأيام اخبرهم الحاخام باشا انه يلزم الحصول على دم بشرى لاستعماله فى عيد

الفصح القريب ، فأجابه داوود هرارى أنه سيتحصل على ذلك ولو كلفه من الأموال ما لا يعد . وكان المتهمـــون وقت اعترافهم محبوسين فى حبس الانفراد ، واعترافاتهم جاءت متطابقة وبواسطتها امكن استكشاف الجثة وبعض الملابس ...

ويختتم المترجم تلخيصه لهذه الوحشية قائلا :

بعد ان تمت التحقيقات ثبتت التهمة ضد المتهمين ، وتوفى اثناء المحاكمـــة اثنـــان منهم كمـــا سنذكره ، ونال العفـــو اربعـــة لأنهم أقروا بالحقيقة ، وحكم على العشرة الباقين بالاعدام ...

وكاد ينفذ هذا الحكم لولا ان قنصل فرنسا راى أن يعرض أوراق القضية على دولتلو المغفور له ابراهيم باشـــا الذى كان وقتئذ قائدا للجيوش المصرية لكى يجرى المصادقة عليها ، ففى اثناء تلك المدة هاج يهود أوروبا وماجوا ، واغتنموا الفرصة فضاعفوا الوسائط الفعالة ، وبذلوا الأصفر الرنان لاطفاء نيران الحادثة والتحصل على عفو عن المحبوسين وقيل انهم قدموا ٢٠٠ الف قرش الى وكالة فرنسا و ٥٠٠ الف قرش لأحد المحامين ، ولكن لما خاب مسعاهم وطاح عملهم وثبتت التهمة وصـــدر الحكم ، سافر اثنان من عظمـــائهم هما كراميو ومويز مونتفيورى منتدبان من قبل جمعية الاتحاد الاسرائيلى لانقاذ المحكوم عليهم فوصلا مصر ورفعا عريضة لصاحب الدولة المغفور له محمد على باشا ، التمسا بموجبها اعادة النظر فى الدعـــوى وتخليص المتهمين ، فقبل دولتـــه التماسهما مراعاة للظروف ، واصدر عفوا عن المجرمين اجابة لاسترحام عموم الشعب الاسرائيلى ...

ولا أبغى بالاشارة الى هذا الحادث استثارة القراء واســـتفزاز مشاعرهم . فلو اننى قصدت الى هذا لقدمت عشرات الأمثلة والنماذج لهذه الجـــرائم العنصرية التى روعت أوروبـــا فى منتصف القـــرن الثامن عشر ، بل لو اننى قصدت الاثارة لقدمت جريمة ذبح الأب توما وخادمه بكل تفاصيلها ... بنص الاعترافات التى استخلصها المحققون من المتهمين اثناء استجوابهم ، وهى تحقيقات لا ريب فيها حضرها قنصل فرنسا فى دمشق كما حضرها قنصل النمسا وغيرهمـــا من ممثلى الدول الأجنبية التى كان بعض المتهمين ـ من رعاياها ـ قد استنجدوا بها ...

* * *

لو ان هذه المخزاة وقعت من مسلم لسجلت فى كتب التاريخ ، ليقراها التلامذة ، ولاثبتت فى الجرائد السيارة ليطلع عليها الناس ، ولطبعت الالوف المؤلفة من المنشورات ليعرف الغريب والقريب وحشية الاسلام ، وكيف يجعل اتباعه اعداء الانسانية جمعاء !!

ولكن اليهود استطاعوا ان يطووا القصة ، وان يجعلوا الاجيال تنساها ، نعم وعمل مالهم عمله فى اقناع السفراء والقناصل : بأن الصمت فضيلة ، فما ان سارت الرشاء الاسرائيلية الى جيوب الساسة الغربيين حتى خرست السنتهم ، وانقطعت تعليقاتهم كان لم يقع ضر بواحد منهم !!

وامتلاك وسائل النشر والطى ، والاعلان والكتمان امر خطير فى صناعة التاريخ ، وتوجيه احداثه ، وصياغة الافكار صياغة خاصة فى فهمها وذوقها .

واوروبا وامريكا تملكان الآن ادق الآلات لتحريف التاريخ الانسانى ، ومحو ما تريدان محوه ، واثبات ما تريدان اثباته ، فاذا استقرت احدى الحقائق على الرغم منهما عملا على حصرها فى اضيق دائرة ، الى أن تتاح الفرصة لازالتها من الاذهان .

ونحن الآن فى سباق مع الطواغيت لاذاعة بعض ما انكشف من فضائح الاستعمار ومآسى التعصب ، قبل أن يستطيعوا اخفاء ذلك كله عن الناس ، ثم الظهور بينهم وكأنهم مثل عليا للنزاهة ونظافة الأيدى !!

وقد اصطلحت اليوم الصهيونية العالمية مع الاستعمار الصليبى !! اصطلحا على قتل المسلمين فى فلسطين ، وانتهاب مدائنهم وقراهم ، واتفقت انجلترا وفرنسا وامريكا على اقامة دولة لبنى اسرائيل ، بعد ان يطرد المسلمون العرب من ارضهم بالسيف أو بالمكر ، والصلح بين الفريقين ليس صلحا بين دينين ، فان أديان الله لا تتواطأ على السرقة وسفك الدماء ، ولكنه صلح بين عصابات من النخاسة على اقتسام الأسلاب ، ونسيان كل مروءة وشرف ...

وها قد تحركت غرائز الفتك فى بنى اسرائيل ! والقربان الذى يتقرب اتقياء اليهود بذبحه ليس رجلا نصرانيا واحدا كما حدث فى القضية الآنفة ، بل رجال مسلمون كثير !! رجال ونساء واطفال هم زهرة الشباب العربى المسلم !!

ودور الاستعمار الصليبى فى هذه المجزرة الجديدة انه يضع

السكين فى أيدى المتقربين الى الله بدماء خصومهم ، يضـع فى ايديهم ادوات الهـلاك كلها ثم يقول لهم : اصنعوا ما تحبـون !! فاذا قاومت الضحايا البريئة ، واستعصت على الموت ، شد عليها هو الآخر ، ليجهز عليها ، وليفرغ بسرعة الى غيرها !

ارايت ؟ فاذا تمت الفجيعة اسكتت صحف اوروبا وامريكا اسكاتا مطلقا ، وسكنت اسلاك البرق فما تهتز بنبأ ، وخرست الاذاعات فلم تنطق بكلمـة ، بل على العكس ، تتراس حرم الرئيس روزفلت حملة جديدة كى تجمع الاعانات لاسرائيل ، بوصفهـا الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط ، التى تستحق الحياة !!

ان اللصوص قتـلوا موظفين امريكيين فى ايران فقامت الدنيـا وقعدت ، ولم تهدأ الولايات المتحدة حتى سقطت الوزارة كلها ، والف الشاه وزارة اخرى ·

ان الدم الأمريكى غال ثمنه ، أما الدم الاسلامى فهو وحده الذى يراق على الثرى كما تراق زجاجات الحبر الأحمر ، بل هو وحده الذى تجمع الاعانات اغراء باراقته ، واغراء على سفك المزيد منه !! كذلك يفعل بنا المستعمرون من أوربيين وامريكيين ··· !!!

***

كان الخيال يذهب بى كل مذهب وانا فى القاهرة اسـتمع الى فظائع اليهود يوم كانوا يحتلون قطاع غزة ، ما ارجو من قوم مسخوا وحوشا ، ثم جعلوا وحشيتهم عقيدة ؟ لقد كنت أطالع الأخبار عن خنادق الموت التى عثروا عليها ، ثم استشعر الغم الثقيل ، ما هذا ؟ هذه حفرة فيها قرابة سبعين جثة مذبوحة للشباب المختطفين من اهل غزة !! وعاد بى الخيال الى القضية التي وقعت من قرن وربع ·

ترى هل جثم رهبان اليهود وعبادهم على صدور هؤلاء الشباب وذبحوهم قربى الى الله كما صنع ذلك الكاهن ، أم أن الجنود تحولوا كلهم اتقياء يتقربون الى ربهم بذبح الأسرى ؟؟ ان حفرا كثيرة وجدت مليئـة بجثث اخـرى · وكان الآباء والأمهـات يجهشون بالبـكاء وهم يتعرفون على ذوى قرابتهم ···

ابكوا أو لا تبكوا ، مـا جدوى العويل ؟ من لم يتذاب اكلته الذئاب !! وضحكت فى الم ممض وانا اقرأ حمـاقة بعض الحكام فى القطاع البائس وهم يطلبون من ضـباط الهدنة التابعين لهيئة الأمم المتحدة أن يشرعوا فى تحقيق هذه الجرائم !! ·

تحقيق ؟؟

امــا تزالون تعتنقون الخرافات ، وتظنــون الخير فى صـــناع الآثام !

ان موظفى الهيئة اشتروا من زمــان طــويل بالمال أو بالنساء ، او دفعهم الحقد الى التطوع دون رشوة بمحق الاســـلام والمسلمين فى هذه الديار ...

انها حرب دينية ايها الغافلون ، استبحتم فيها واستبيح فيهــا كل شىء يتصل بكم ، ولن تنتظروا الا شيئا واحدا ، أن يكافأ قتلتكم بمزيد من السلطان والتوسع والتمكين .

وها قد صح ما توقعته ، فان دولة بنى اسرائيل بعد ان فعلت ذلك كله ـ بالسلاح الأوروبى والأمريكى ـ طلبت خليج العقبة لها بعد أن كان محظورا عليها ، وكان الجواب على هــذا الطلب الحبيب أن تحرك الأسطول السادس الأمريكى الى البحر الأحمر ، ليضمن حرية الملاحة « البريئة » لاسرائيل ، وأن تحركت فرنسا هى الأخرى لتطلب فتــح قناة السويس امام سفن اسرائيل !

ان الاستعمار الصليبى يســارع فى هوى حليفته ، هوى شريكته المدللة ، التى تعاونه على تحطيم الكيان الاسلامى فى هذه البقعـــة الحساسة من العــالم ...

***

● الصهيونيـــة (١) :

الصهيونية ، مذهب سياسى عنصرى مدمر ، اتخذ من الدين سبيلا للتأثير على العقول ، وامتلاك النفوس ، ومن دعوى الاضطهاد والدموع سراديب يسلكها الى العطف العالمى ، شأن المذاهب الخبيثة التى تخالف ما بين وسائلها وغاياتها ، تعطف اليهــا القلوب بأساليب تبدو طاهرة بريئة ، ثم تنفلت فى صمت الى أغراضها المدمرة ، وأهدافها الرهيبة .

تلك هى الصهيونية التى أرسى « التلمود » قواعدها ، ومهد لها السبيل لتنطلق فى جنبات العالم الفسيح ، وقد ارتكزت أول نشأتها على اثارة عواطف اليهود ، وهيج الحنين فيها الى « صهيون » أحد التلال

---

(١) كتب هذا البحث الاستاذ عبد الرحمن عثمان .

التى تقوم عليها القدس حيث اقام سليمان هيكله ، فمضوا مع القرون ، وصحبوا الأجيال فى التماس حلمهم الذى ظلوا فى طلبه على مثل لهفة المرتقب ، وحيرة الضال ، فقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية :

« الصهيونية ، هى التى خلقت مباشرة شعور الارتباط بصهيون » ذلك الشعور الذى قاد سبايا بابل الى بيت المقدس فأعادوا تشـييده . فالحركة الصهيونية اليوم هى اعظم بل واشهر حركة يعرفها التـــاريخ اليهودى منذ أقدم الأزمنة » لوسيان وولف عام ١٩١٠

وهكذا ظل الحنين ماثلا فى خواطرهم يزين لهم الجريمة للعودة الى صهيون ، ويناديهم بالعنف للسيطرة على فلسطين ، وهذا نشيدهم المسمى « على ضفاف نهر الأردن » يجهر بما هو أعمق مما ذكرت :

« مثل قصف الرعد الذى يشق لهيب السحب نصفين — يـدوى فى آذاننا صوت صادر من صهيون وينادى قائلا : يجب أن تظل نفوسكم تواقة الى الأبد لأرض آبائكم واجدادكم ، حتى ننقذ من يد الأعـــداء نهـــرنا المقدس ، ونعود الى ضفاف الأردن .

فى ذلك المكان الذى يجرى فيه الغدير هادئا — ويهمس خـرير المـاء كالحلم اللذيذ — هناك سنحط رحالنا ويكون شعارنا : حسام أرضنا والاهنا ، وعند ضفاف الأردن — سنحط رحالنا .

الا فاطمئنى أيتها الأرض المحبوبة ، اننا لن نعرف الهوادة ، بل سننهض وننفض عنا الكسل . فقسما باسمك المقدس لن نتنصل من القتال اذا ما دقت طبول الجهاد ، وقسما بالسماء وآمالنا فيها سنكسر قيودك ، ونرفع لواءك عاليا ، وسنواجه العالم بأسره اعتزازا بكرامة قومنا ، واذا ما قرع نفيرنا ورفرف علمنا عندئذ سنحط رحالنا ، وسيكون شعارنا : حسام أرضنا والاهنا ، وعند ضفاف الأردن — سنحط رحالنا .

اذن فليقرع النفير ، وليرفرف العلم حتى نحط رحالنا » .

* * *

بهذا الأمل ظلوا يتخطون السنين ، وكلما طال عليهم الأمد زادهم الحنين تصميما على بلوغ الغاية ، فما أن شـعروا بفضل من قوة حتى توسعوا فى معنى الصهيونية ، فبعد أن كانت ترمى الى « جشد شعب الله المختار فى مملكة اسرائيل » اصبحت تهدف كذلك الى « احتلال العالم اقتصاديا » ليقع فى قبضتها ، ويخر جاثيا أمام جبروتها ، واذن

فقد احتضنت وليدا جديدا صار منه أمرها الى تعديل فى الوسائل وتوسع فى الغايات ، وبذلك شملت اغراضا ثلاثة : الايمان بالعنصرية ، والعمل على انشاء دولة اسرائيل ، والهيمنة على راس المال فى العالم اجمع .

وهكذا حورت الصهيونية مطامعها حين واتتها الفرصة فى أواخر القرن التاسع عشر ، فقد تولى قيادتها حينذاك الصحفى النمسوى اليهودى « تيودور هرتزل » الذى يعتبر بحق ابا الصهيونية الحديثة ومؤسسها . .

فقد اصدر عام ١٨٩٥ كتاب « الدولة اليهودية » ودعا فيه الى انشاء دولة يهودية ، لتكون نقطة الارتكاز التى يثب منها الشعب اليهودى الى تحقيق غاياته جميعا ، كما دعا الى مؤتمر يهودى عام يضم اقطابهم واحبارهم ليتخذوا قرارا أخيرا بشأن هذا الوطن المرجو ، وقد كان هرتزل معدا لهذا المؤتمر عدته ، فانعقد فى مدينة « بال » بسويسرا عام ١٨٩٧ تحت رئاسته وتوجيهه ، ولقد كان ابرز حادث فى هذا المؤتمر ان رسم للصهيونية الحديثة طريقا عمليا لتتجمع فى فلسطين بالذات لا فى الأرجنتين او أوغندا كما كان مقترحا من قبل اعتمادا على ان الشعور الصهيونى مهيأ للانطلاق نحو صهيون فى حرارة وايمان ، ولهذا فان تيودور صاح فى نهاية المؤتمر : « الآن انشأنا الدولة اليهودية » .

على أن هذا الاختيار لم يكن من قبيل الرجم بالغيب او التنبؤ بالمستقبل ، فان الأحداث العالمية حينذاك قد جعلت من فلسطين صيدا ثمينا للصهيونية ، لأنها كانت فى منطقة نفوذ « الرجل المريض » تركيا ، وكان الاستعمار - الانجليزى الفرنسى - ينتظر الفرصة ليثب على الرجل المريض فيزهق روحه وينعم بالميراث ، ولم تعدم الصهيونية حيلة فى دفع الاستعمار الى الحرب بما لها من بأس ونفوذ مالى مخيف .

ولقد كان الزعيم الصهيونى هرتزل عمليا حقا ، حينما ذهب الى السلطان عبد الحميد ليساومه على شراء فلسطين بالمال كسبا للوقت ، وليتفرغ النشاط اليهودى الرهيب الى استخدام القوى المستعمرة فى تحقيق هدف صهيونى آخر ، ولكنه باء بالفشل اذ رفض السلطان التركى العرض اليهودى فى تصميم واصرار .

لم يحزن تيودور لهذا الرفض فقد كان على يقين ان الصهيونية بنفوذها القوى قادرة على توجيه الاستعمار باشارة من اصبعها ، وهو الآن يتحفز للوثبة على الدول التى تخضع للحكم التركى ، ومادام المال فى حوزة الصهيونية فان الاستعمار واقع فى قبضتها لا محالة لأن الانفاق على حرب استعمارية كهذه ستجعل الذهب اليهودى السيد الآمر ، فلو ان الصهيونية طلبت فلسطين ثمنا لذهبها لاستجاب الاستعمار فى رضا وقبول ، وهذا هو ما حققته الأيام . ؟ وقد اكد هذا المعنى الفيلسوف اليهودى كارل ماركس حين يقول :

« .. فاليهودى الذى لا يحسب له حساب فى فيينا هو الذى يقرر بقوته المالية مصير النمسا كلها ، واليهودى الذى قد يكون فى اصغر الدول الألمانية محروما من الحقوق هو الذى يقرر مصير اوروبا بأجمعها » وكذلك حين يقول : ـ « المال اله اسرائيل الجشع ، وامامه لا ينبغى لأى اله أن يعيش ، ان المال يخفض جميع آلهة البشر ويحولها الى سلعة » .

وليس ابلغ فى اقناع القارىء ايا كانت عقيدته الدينية من أن يصغى الى الصهيونية وهى تقدم اليه نفسها ، وتفصح له بأقلام زعمائها عن مطامعها الرهيبة ، وجناياتها التى تقطر دما فى كل مكان .

وعليه حين يقضى فى أمرها أن ينصب من نفسه قاضيا عدلا ، لا يجور فى الحكم ، أو يميل مع الهوى ، وحسبه فى ذلك أن يأخذ بما يستقيم له من دليل ، وما يستقر فى قلبه من حجة ، ليكون قضاؤه ادنى الى الحق ، وأخلق بالرضا والقبول .

كان مؤتمر بال بعثا للصهيونية الحديثة ، وتجديدا خطيرا فى وسائلها وغاياتها ، الأمر الذى ضاعف من قوتها ، وكفل لها الذيوع والانتشار ، ذلك أنه أيد فى اجتماعه القرارات المعروفة « ببروتوكولات حكماء اسرائيل » أو « بقرارات مشيخة اسرائيل » تلك القرارات التى ظلت سرا دفينا فى صدور الصهيونيين ، حتى عثرت سيدة مسيحية على نسخة منها عام ١٩٠٢ فقام بترجمتها الى اللغة الروسية الكاتب الروسى « سرجيوس نيلوس » ، ثم ترجمت فيما بعد الى اللغات الأخرى .

وقد ادرك العالم حينئذ خطر تغلغل الصهيونية فى شتى الدول تغلغلا اثار فيه القلق والاهتمام ، ومما هو جدير بالملاحظة ان النسخ المترجمة الى اية لغة من لغات العالم كانت تختفى بعد ظهورها بأيام ، وبدهى انه لا مصلحة لاحد فى ابادتها سوى اليهود وحدهم .

وقرارات حكماء اسرائيل جاءت مفصلة ، ولست بمستطيع ان اسوق نصها للقارىء فذلك يخرج بنا عن الايجاز والاختصار ولكنى اقدمها اليه فى خلاصة امينة قد تفى بالغرض الذى - نهدف اليه :

● القانون هو الذى يكبح جماح النفوس البشرية ، وما القانون الا القوة ، ومن هنا نستنتج ان الحق كائن فى القوة . وما دام الذهب فى عصرنا هذا اعظم نفوذا مما للحكومة الديمقراطية ، وما دام الذهب فى حوزتنا - نحن اليهود - ففى استطاعتنا ان نشترى به كل ما نشاء ونسيطر به على من نريد .. شعارنا « القوة والرياء » وفى سبيل هذه السيطرة لا ينبغى أن نحجم عن اللجوء الى الرشوة والخداع والخيانة فى سبيل بلوغ مآربنا .

● من مصلحة اليهود اشعال الحروب بين الدول حتى يتيسر نقل الحرب الى الميدان الاقتصادى مما يضطر الفريقين المتحاربين الى وقوعهما فى قبضتنا لتفوقنا فى هذا المضمار .

● خلق الضائقة المالية للحكومات لتنمية روح الكراهية فى العمال للحاكمين ، لنهيمن على الجهاز الحكومى ، وذلك لأن فى أيدينا الصحافة وفى قبضتنا البرلمان .

● سيحكم حينئذ الغوغاء وسيفضى حكمهم الى الفوضى التى تديرها من وراء ستار قوة وكلائنا الذين يتخذون المحافل الماسونية أوكارا لهم ، بحيث ننقل الأفكار الى الميدان التجارى والصناعى ، وهنا يجب أن نجعل من « المضاربات » قاعدة للتعامل ، وحينئذ ستتسرب جميع الثروات الى فوهة مضارباتنا فتبتلعها خزائننا .

● سيكون الجهاز الحكومى فى شتى الدول فى قبضتنا لأنه يتوقف على الذهب الذى نملكه ... ولضمان أن يستمر ذلك ينبغى ان نتذرع بكل الوسائل وفى مقدمتها جر الشعوب الى الحرب ... وتلهيتها فى السلم بفيض غامر من الأفكار المتعارضة وبموجات الانحلال مع تجريدها من كل أسلحتها وينبغى القضاء على المتفوقين والممتازين والعمل على انعدام الثقة ، وبذر الخلافات ، وتشجيع كل محاولة ترمى

الى الهدم والتحطيم ، وفى هـذا الجو نبشر بفكرة التعـاون الدولى بقصد انشاء مؤسسة تهيمن على العالم ، وسيعهد لا محالة بادارتها الينا .

● السيطرة على ثروة العالم عن طريق انشاء الاحتكارات العالمية ، والعمل على تقوية القوة البوليسية التى تخضع لنا داخل الحكومات ، ودعم الصحافة ووسائل النشر التى نسيطر عليهـا وبهذين الجهازين الخطرين نعلن حكم الارهاب على كل من يقف فى طريق أهدافنـا ، وبهما نهدد كيان الحكم باثارة الفتن والقلاقل متى شئنا .

● العمل على رفع ضعاف الأخلاق الى مناصب الحكم ليستجيبوا فى يسر الى رغباتنا .

● اذا كان غير اليهود هم الذين يملكون أمر الحكم فى الشعوب فاننا نلى فيها أمر المـال ، وبهذا سيكون النضال المذهبى أو السياسى فى اى اتجاه وفى أية دولة يسير وفق مصالحنا واهدافنا ، وعلينا ان ننفخ فى « اضطهاد اليهـود » فانه السبيل لتجميع اليهـود وربطهم بقيـادتنا .

● التزام السرية التامة فى كل نشاط سياسى لنا ، لأن المبدأ الذى لا يذاع علنا يترك لنا حرية العمل من غير رقيب ، وينبغى أن نعمل على تركيز السلطات الثلاث فى الدول فى اقل عدد من المرتشين .

● يجب ان تقبض أيدينـا على وكالات الأنباء العالميـة ، لأن الصحافة والنشر هما اداة السيطرة على الفكر العالمى ، وبهما لن يرى الناس أى خبر أو مقال الا من الجانب الذى يريد .

● زعزعة الايمان والعقائد فى القلوب ، حتى لا يبقى على الأرض سـوى اليهودية ..

● حتى لا نفاجأ بمؤامرة تهدد كياننا يجب أن ننتشر فى كـل المنظمات السرية فى شتى أطراف العالم .

● تكليف وكلائنا من اصحاب المراكز الهامة بتلويث غيرهـم ، وتشجيع ذلك الغير على الانحلال والرشوة ، واساءة استعمال السلطة ... فان هذه هى الحبال التى تشدهم الينا وتربطهم بنا .

● تشجيع الاغتيالات الفردية ، وذلك بأن نلقى فى روع المغتال أنه شهيد وبطل .

● التزيين للدول بالاستدانة منا لنفلسها حينما نريد والاعتماد على البورصة وألاعيبها .

● بعد كل هذا لن يبقى امامنا سوى أن نخطو الخطوة الأخيــرة نحو عرش صهيون وهو بحاجة الى العنف ٠

● وسيجلس منكنا المحبوب على عرش سليمان ليحكم العالم ، وستحف به نخبة من حكماء صهيون من نسل داوود تعاونه فى مهمته « الصعدانية » ، وسيكون حكمهم حازما وعنفيا لخير الانسانية ، اما الملك فسيكون مثال العزة والمهابة والجبروت أنه المسـيح المنتظر من سبط يهوذا ونسل داوود ٠

* * *

وهذه القرارات بما شرعت من وسائل انما تسير لتحقيق مطامعها فى اتجاه مضاد تماما لتسلك الاتجاهات التى رسمتها الانسانية وقررتها الأخلاق وتنزلت بها الأديان ، فهى فى كل أمرهــا من وضع نفوس قد تجردت من الخير وترسمت خطا الشيطان ٠

ويحسن هنا أن نشير الى انه ليس بين الصهيونية وبين دين موسى عليه السلام اية صلة أو أدنى نسب ، لأن الأخير نحلة مقدسة تنزلت من السماء ، والسماء فيما تنزل من وحى لا تفرق بين الناس ، ولا تدعو الى العنصرية الحـاقدة المستعلية ، وهى اذ تفضل طائفة على اخرى لا تتخذ من اللون أو الجنس سبيلا الى التفضيل ، وانما سبيلها فى ذلك ايمان بوحدة الخالق ، وحب الخير للبشرية جميعا ٠

ورســـالة موسى كان من اغراضهــا نصرة المظلوم والثورة على الظالم ، فهى بهذا المعنى ردت الى النفس اليهودية الثقة التى كان قد أوهنها « فرعون » فاستعادت كيانها ، وشعرت بوجودها ٠

وليس من المنطق فى شىء أن يجمع دين سماوى أشلاء من نفوس مبعثرة لينفخ فيها بالبغضاء للعالم كله ؛ او ليغرس فيها الحقد المــرير على البشرية جميعا ، انما حسب الدين فى ذلك أن يأسوا من جراحاتها ، ويعيد خلقها من جديد ، لتؤمن بالخير ، وتعمر بالمحبــة والاخاء ، وتطرح الشحناء والبغض جانبا ٠

فالحقيقة أن الصهيونية ـ فى قديم امرها وحديثه ـ لا سند لهــا من دين موسى ، وانما هى اطماع سياسية عنصرية صنعت لها دستورا من مسخ التوراة وخيالات « التلمود » وأحــلام الأحبار والحكماء من فلاســـفة اليهود ٠٠٠

إن تحولهم عن موسى الى الصهيونية له سببان رئيسيان : الأول : أن بختنصر قد عصف بدولتهم إلتى اقامها سليمان ولما يكتمل عمرها تسعين عاما . الثانى : كانت وطأة البابليين عليهم فى السبى عنيفة مروعة . وقد احس اليهود احساسا عميقا بذهاب آمانهم فى الدولة وشعروا كذلك أن كيانهم الجماعى كأمة قد صدعته الذلة فى جحيم « بابل » فدفعهم هذا الشعور وذلك الاحساس الى ان يفزعوا الى احبارهم وحكمائهم يلتمسون لديهم شيئا من العزاء الذى قد يخفف عنهم وقع ما يجدون ، فوجد هؤلاء وأولئك ألا مندوحة لهم من ان يقولوا للمفجوعين الأذلاء شيئا .. أى شىء .. فنظروا فى تحريف التوراة فلم يجدوا فيه ريا لنفوس تلهث ظمأ ، ولا مقنعا لأفئدة كاد يقتلها اليأس .

فوضعوا لهم قصصا فى بعضها وعد من عند الله باقامة دولة ، وفى بعضها الآخر انهم شعب الله المختار ، وانهم لا محالة سيحكمون العالم، وان من عداهم من الناس خنازير وحشرات خلقوا لخدمتهم ، وان الدنيا كلها خلقت لهم وحدهم دون من سواهم من البشر ، وهكذا طفق الأحبار يتخيلون لهم أحلاما يهدهدون بها السذج والدهماء ، حتى استقر فى مخيلة هؤلاء بعد حين ان ذلك حقيقة لا ريب فيها ، ووعد من الله لن يتخلف ، وهكذا تحولت اليهودية الى صهيونية بتدبير سياسى خطير ، وتبييت عنصرى خبيث ، وصدق الله اذ توعدهم بقوله :

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » (١) .

انهم حرفوا التوارة تحريفا يتلاقى وآمالهم التى فى صدورهم ، حتى استقام لهم بعد الف عام تقريبا كتاب سموه « التلمود » أو كما يجب أن يسمى « دستور الصهيونية » .

وهذا التلمود له منزلة خاصة فى النفس اليهودية ، بل ان بعضهم يذهب الى تفضيله على التوراة نفسها ، ولدعم ذلك أسوق نصين من نصوص كثيرة تدور حول هذا المعنى من كتاب « فى الفكر اليهودى »

---

(١) البقرة : ٧٩ .

الذى جمعه الدكتـور ج. هـ. هرتش ، الحاخام الأكبـر لليهـود فى بريطانيا ، وصدر له حايم ناحوم الحاخام بمصر :

النص الأول « العمانويل دوتش ١٨٦٨ » :

« التلمود هو المؤلف الذى يتضمن القانون المدنى والدينى للشعب اليهودى ، فهو عبارة عن ملحق لأسفار التوراة الخمسة الأولى ، وقـد استغرق هذا الملحق ألف سنة ، وقد تضمن حكايات مجـازية ، وقصصا وأساطير عن الجن ، واقصوصات خرافية » .

النص الثانى « ا. مارى روبنصن ١٨٩٢ » :

« التلمود ذلك الكتاب الذى احله اليهود المسجونون فى احيائهم المركز الثانى فى حياتهم لم يكن مجرد كتاب فلسفة وتقوى ، بل كان منهل الحياة القومية ، والمرآة الصادقة لحضارة بابل واليهود ، كما ترددت فيه ايضا الأحلام المخيفة والخرافات والأساطير وما اليها من اشباح سحرية وشذرات علمية اختلط فيها الخطأ بالصواب ، وتأملات ونظريات جزئية اكتشفها التائه فى أسفاره التى لا محط لرحالها ، فالتوراة ذاتها لم تبلغ ما بلغه التلمود » .

والصهيونية تحارب كل فضيلة ، وتقضى بأساليبها على كل من يدعو الى التوحيد والمحبة والسلام ، لأن ذلك كله يقف دون غاياتهـا ويهجن من وسائلها وهى تريد ان تمضى ولا تتوقف .

فالأنبياء - من بنى اسرائيل - كذبوا من الصهيونية تكذيبـا كله عناد ومخالفة ، ومنهم من قتلته غيلة وغدرا ، لأنهم يدعون اليهود الى غير اطماعها ، وهى لا تريدهم الا اشرارا حاقدين .

والمسيح عليه السلام لقى الكثير من خيانتهم وغدرهم حينما أتى بالمحبة والسلام ليعارض العنصرية التى يدينون بها ، وهذا « بولس الرسول » يقول فى رسالة له لأهل « رومية » (اصـحاح ١٠) : « لأن الكتاب يقول : كل من يؤمن به يجزى ، لأنه لا فرق بين اليهـودى واليونانى لأن ربا واحدا للجميع ، غنيا لجميع الذين يدعون به » ، ثم يمضى فيخاطب اليهود : « يا قساة القلوب ، يا غير المطهرين بالقلوب والآذان ، انتم تعادون الروح فى كل حين » .

والسيد المسيح يعنيهم حين يخاطب « أورشـليم » بقـوله :
« يا أورشليم يا اورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليها :

كم مرة اردت ان اجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ولم تريدى » .

اما محمد عليه الصلاة والسلام فان مواقف الصهيونية منه بنقاء مشهورة ، سجلتها كتب السيرة بما لا يدع لنا مجالا لعرضـــها ، فمن نقض للعهد ، الى انحياز لجانب المشركين ، مع انها تزعـم الاعتقاد بالوحدانية ، وكثيرا ما حاكت حوله المؤامرات وهمت بقتله ، ولم تدع سبيلا لاطفاء الاسلام الا سلكته ، فقد راعها من التنزيل ان ينفـــذ فى تصويره الى خفى أمرها ، فيفضح ما استتر منه بمثل قوله :

« ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » (١) وقوله : « لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » (٢) .

* * *

ونحن حين نتناول الصهيونية واغراضها التى تعتمد فى جوهرها على العنصرية الجادة ، والطموح الى ارساء حكم عالمى من شأنه ان يسخر العالم قاطبة لشعب اللــه المختار !! لن نضطر فى هــذا المقام الى الاعتماد على القرآن والانجيل كمرجعين هامين ، وانما ندع المصــادر المقدسة لدى اليهود تتولى هذا الأمر فى وضوح وجلاء . « فالتلمود » يؤكد انهم هم الناس ، وأن من سواهم من البشر « خنــازير وحشرات وأنعام » وسأكتفى بذكر فقرات منه :

- « انه لولا اليهــود لارتفعت البركة من الأرض ، ولاحتجبت السماء ، وامتنع المطر » .
- أن اليهود أبناء الله وأحباؤه ، أما باقى المخلوقات فهى بذور حشرات وسائمة كالأنعام » .
- « اليهـــود أحب الى الله من الملائكة ، وهم من عنصر الله كالولد من عنصر ابيه ، فمن يصفع اليهود كمن يصفع الله » .
- « اذا ضرب أممى « غير يهودى » يهودى فالأممى يســـتحق الموت » .

---

(١) البقرة : ٩٦ .   (٢) الحشر : ١٤ .

● « ... والفرق بين درجة الانسان والحيوان ، هو مقدار الفرق بين اليهود وباقى الأمميين » .

● « ان النطفة المخلوق منهــا باقى الشـــعوب الخارجين على الديانة اليهودية هى نطفة (حصان) » .

وهكذا . وبمثل هذه الفقرات الناقمة وضع التلمـــود دســـتور الصهيونية ، على انه لم يفته ان يوثقه برباط مقدس يصل ما بينها وبين الله سبحانه ، ليتقرر فى اذهان اليهود ان السماء الى جانبهم ، وليوقنوا انهم شعب الله المختار ، وقد غرس التلمود كذلك فى النفس اليهودية معانى شتى هى على تنافرها واضطرابها مزيج من الحقد والغرور ، أما الحقد فلأن العنصر « الأفضل ؟؟ » لم يتح له أن يسخر العالم لارادته ، وإما الغرور فلأن مواهبهم - فيما زعموا - من صنع السماء ، ولهذا وقـر فى قلوبهم أنهم سادة الدنيا وكبراؤها ..

واطرف تصوير لهذا ما سجله الحاخام « اربل » بقوله « ان الخارجين عن دين اليهود خنازير واذا كان الأجنبى « غير اليهودى » قد خلق على هيئة الانسان ، فما ذلك الا ليكون لائقا لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من اجلهم » . ثم يسترسل ليضرب هذا المثل : « ان مثل بنى اسرائيل كمثل سيدة فى منزلها ، يستحضر لها زوجها النقود فتأخذها بدون أن تشترك معه فى الشغل والتعب » .

وما دامت الصهيونية قد ارادت لبنى اسرائيل ان يصـبحوا ســادة مخدومين وسيدات مدللات ، فعليها اذن ان تعدهم بوطن يعصمهم من التشرد والنجعة فى آفاق الأرض ، لتشد من عزائمهم ، وتدفعهم الى العمل ، وقد تولى ذلك « سفر التكوين » فهو يحدد الوطن الذى وعدوا به بأنه : « من نهر مصر الى النهر الكبير (نهر الفرات) » وقد اكد أمر هذا الوطن زعماء الصهيونية المحدثون بما فاضت به كتبهم وخطبهم ، فها هو ذا « حاييم وايزمن » الزعيم الصهيونى المعروف يذكر فى كتـــابه « التجــربة والخطأ » المحاورة التالية :

« كنت اتحدث مع الدكتور بارنيس ، فكان الرجل رغم يهوديته يدعو الى امتزاج اليهود فى الأمم التى يعيشون فيها ، وقد سألنى مرة عن جنسيتى ، فقلت له : أنا يهودى ، فتعجب لاجابتى ، وحاول اقناعى بأن اليهودية دين لا جنسية ، فأفهمتــه : أن اليهــودية جنســية وقومية » .

ويقول فى موضع آخر من كتابه هذا : « وفى سويسرا عرفت لينين وتروتسكى وبلنكوف وكانوا يهودا ، لكنهم كانوا يحتقروننا نحن دعاة الصهيونية ، ويقول لنا : ان اليهودى يجب أن يصلح وطنه اولا ، لا أن يهرب منـه ويدعو نفسـه يهوديا ، فكنت ابادلهم احتقارا باحتقار ، وكرها بكره » .

وان بن جوريون رئيس وزراء اسرائيل قد اماط اللثام عن رسالة الصهيونية ، وأفصح بجلاء عن مطامعها حين قال فى خطبه له :

« تتميز دولتنا بأنها الوحيدة التى لا تعتبر غاية فى ذاتها ، بل هى وسيلة فقط لتحقيق رسالة الصهيونية ، وجمع اليهود المشتتين ، فهى ليست دولة الذين يستوطنونها وحدهم بل هى دولة الشـعب اليهودى كله » . وقال فى اجتماع حربى عام ١٩٥٢ : « ألا فليفهم الجميـع أن اسرائيل قد قامت بالحرب ، وأنها لن تقنع بما بلغته حـدودها حتى الآن ، ان الامبراطورية الاسرائيلية سوف تمتد من النيل الى الفرات » .

وان « بيرنتشتين » الوزير الاسرائيلى السابق للتجارة والصناعة كان واضحا فى رسم أهداف الصهيونية حين خاطب اليهود بقوله : « على الشعب أن يقلل من استهلاكه ، ويتكتل وراء زعمائه استعدادا للسـاعة الفاصلة التى نمحو فيها الدول العربية من الوجود » .

والنص الأخير صريح فى ان الصهيونية تهدف الى محـو العنصر العربى من مملكة « سفر التكوين » ، وهـذا يفسر للعـالم طريقـة « الابادة » التى نهجتها اسرائيل فى معالجة الأسرى ومن اليهم ممن يقع فى قبضتهم من العرب ، على ان اخـراج اللاجئين من ديارهم ، واغتصاب أموالهم وتشريدهم بغير حـق ، يعتبر – ولا ريب – ضربا رهيبا من ضروب الابادة البطيئة التى برعت فيها اسرائيل .

وعلى الرغم من كل هذه الجرائم التى ترتكبها الصهيونية تحت سمع العالم وبصره ، فان فريقا مخدوعا من الناس لا يزال يصدق تلك الأكذوبة الكبرى التى اطلقها اليهود وهى انهم مضطهدون فى الأرض ومحاربون فى كل مكان ، ولهذ وغيره فان بعض الدول تحبوهم عطفا خاصا مما ستدرك خطره عما قريب .

ومن المقرر أن العالم فى شتى العصور كان يحنو على اليهـود ، ويترفق بهم ، ظنا منه انهم مضطهدون يضربون فى آفاق الأرض هربا من التعذيب والنقمة ، وهو فى هذا لم يشأ أن يتعرف البواعث الحقيقية

التى من اجلها كان هذا الاضطهاد ، ولو انه اولاها شيئا من عنايته ، او حاول ان يربط المسببات باسبابها لآمن عن بينة انه قد وضع الندى فى موضع السيف ، واحل النعمة فى منازل النقمة ، لأن اليهود هم الطائفة الفريدة التى تزعم ان الاضطهاد يلاحقها فى كل مكان ، وان دموعها لا تجف مما **ينزل** بها من تشريد ونكال .

ولقد حدث لهم هذا فى روسيا واسبانيا وبولندا والمانيا ، فتعليله المستمد من طباع اليهود ان الخسة والغدر والخيانة والحقد والسرقة صفات صهيونية تلاحق اليهودى اينما كان . وهى من ابرز مميزاته التى تنطبع فى نفسه ، والتى تظل راسبة فى اعماقه ، ولا تظهر الا وقت الحاجة .

والصهيونيون فى كل شعب من شعوب الأرض هم مصدر نكبته ، واختلاط امره ؛ لأنهم يعملون فيها على الكسب الحرام ويتجرون فى اقواته وارزاقه ، حتى اذا امتلأت خزائنهم بالذهب سوّل لهم حقدهم أن ينزلوه من مثله العليا الى الدنس حيث يعيشون .

اننا لم نر على تعاقب القرون أن اليهود قد اعترفوا بالفضل لأحد ، أو شكروا معروفا اسدى اليهم ، فالأمة التى تبسط عليهم جناح رحمتها ، وتلتقطهم من مفازات التشرد ، لا يطيلون أمد انتظارها لتجد فيهم معاول هدمها وعناصر فنائها .

والتاريخ يشهد انهم النغمة النشاز فى لحن البشرية المتجانس ، لانهم ينطوون على طباع خبيثة تشذ بهم ان يالفوا او يؤلفوا . ولهذا فان الدول تضيق بهم كما يضيق المريض بدائه ، فتجليهم عن ارضها لتحمى كيانها وتصون وجودها ، وذلك — فى شرعة الانصاف — تصرف تقتضيه الضرورة وعلاج وقائى مشروع .

ان الصهيونية قد اعدت عدتها فى القرن التاسع عشر لتحقق الغاية الكبرى من نضالها الطويل ، فقد حشدت قوتها وعبأت جهودها لتسيطر على التجارة والصناعة فى العالم حتى تهيمن عليه اقتصاديا وتتحكم فى « رأس المال الدولى » ولم يعد خافيا على أحد أنها اصابت فى ذلك حتى الآن نجاحا ما كانت هى نفسها تحلم به ، وما ظنك بطائفة لا يزيد تعدادها فى العالم كله عن (١٣.) مليون تملك ما يقرب من نصف رأس المال العالمى **؟** .

وهذه النتيجة الرهيبة لم تصل اليها الصهيونية مصادفة ، او

نالتها ثمنا للذكاء والسعى الشريف ، وانما سلكت اليها سبلا كلها تبييت وسرقة واستغلال ، ذلك انه اذا اعتكر الجو العالمى وماج بالفتنة يستيقظ فيها شره المال ، فتحتكر الأسواق لتختان الأرزاق والأقوات ، معتصرة فى هذا بكلتا يديها الغالب والمغلوب جميعا .

ان اليهود فى امريكا وفرنسا وانجلترا ملوك غير متوجين ، فان نفوذهم الاقتصادى جعل منهم حكاما حقيقيين فى وشنطن ولندن وباريس ، وبيوتهم المالية هناك تتضاءل الى جانبها خزائن بعض تلك الدول ، وهذه عائلة « روتشلد » الصهيونية ، تملك مصارف كبرى فى : لندن وفيينا ونيويورك وباريس وبرلين .

ان الصهيونية بعد أن نجحت فى استعمارها الاقتصادى لدول الغرب ، بدأت تفرض نفسها هناك ، وتدس انفها فى شئون الحكم .

ففى « فرنسا » مثلا نجد الصهيونية تحكمها حكما يكاد يكون حقيقيا ، فان منصب رئيس الوزراء والمناصب الوزارية والجمعية الوطنية ومجلس الدولة والقضاء والصحافة والاذاعة والبيوت المالية والتعليم كل هذه المناصب التى تقرر مصير فرنسا فى الداخل والخارج كثيرا ما يتولى أمرها يهود ؛ بل انهم ليحتكرون بعضها كما تحتكر السلع فى الأسواق .

ولقد اصابت الصهيونية هذا النجاح لأنها اعتمدت على وسائل هى فى جل أمرها ترجع الى ما برعوا فيه من اثارة الحروب ، والفرقة بين الشعوب ، وتسخير الحكام الضعفاء واشاعة التحلل الدينى والوطنى وكان سبيلهم الى ذلك الجمعيات السرية ذات الطابع الانسانى كالماسونية واندية الروتارى .

وقد فطن الفاتيكان الى هذا فأصدر مرسوما من المجلس الأعلى المقدس بتاريخ ٢٠ ديسبمبر سنة ١٩٥٠ قرر فيه الكرادلة ما نصه :

« دفاعا عن العقيدة وعن الفضيلة ، تقرر عدم السماح لرجال الدين بالانتساب الى الهيئة المسماة بنادى الروتارى ، وعدم الاشتراك فى اجتماعاتها ، وأن غير رجال الدين مطالبون بمراعاة المرسوم رقم ٦٨٤ الخاص بالجمعيات السرية والمحرمة والمشتبه فيها » .

لقد اتخذت الصهيونية فى طورها الحديث موقفا ايجابيا يدنيها الى الغرض ، ويكفل لها الهيمنة والسلطان ، فقد ربطت نفسها فى عجلة الاستعمار لا لتكون فى خدمته وانما لتتخذ منه عملاقا آليا تسيره

بارادتها ، وتسخره فى اطماعها ، وهذا هو الاستعمار الانجليزى يفزع من الصهيونية لا فى عام ١٩٥٧ وانما حينما كانت انجلترا سيدة البحار، وآمرة العالم فى اعقاب الحرب العالمية الأولى ، فمنحها وعد بلفور فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، واذا كان قاموس اللصوصية يجحد أن من مفرداته كلمة « الوعد » فأخلق بالصهيونية أن ترتاب فى وعد بلفور ، حتى ولو كان صادرا من حليفها الاستعمار ، ولهذا فقد تعمدت أن تسمعه اللغة التى كان يفهمها ... ، ففى المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى فرنسا سنة ١٩٢٣ وقف الصهيونى « فلاديمير جابونيسكى » يقول :

« اذا رفضت بريطانيا أن تسلمنا فلسطين ، فان اليهود على استعداد لتحريك القوى التى تقضي على بريطانيا » وحينئذ استجاب صاغرا لرغبتها وقدم لها فلسطين ؟؟ ...

واذن فهناك حقيقة تؤكدها الأحداث الجارية فى العالم قديمه وحديثه ، هى أن الاستعمار ظل الصهيونية يتبعها أينما سارت ويحل حيثما حلت ، ومن الخطأ أن نفهم أنها تسير فى ركابه ، أو تخدم غرضا من أغراضه .

نعم ، قد ترتضي الصهيونية — فى بعض الظروف — أن تكون مخلب القط للاستعمار ، ولكن مخلب القط هذا لا يلبث ان يتحول فى النهاية بسحر صهيونى الى مخلب أسد فاتك ليستولى على حظه الأوفى من الفريسة ، وهكذا فان أمر الاستعمار معها كله عجب : ان هو خرج فى اهاب المنتصر فهى الى كسب واستعلاء ، وان جلل بالسواد والاخفاق فهى الى دعة وطمأنينة ، لأنها لم تتعود أن تخف الى نجدة الصديق اذا نبا به الزمن ، أو طرقته الحادثات .

ان مثلها حين تخدم الاستعمار كمثل المروض الماهر للأسد الجائع ، يلوح له من بعيد بقطع اللحم الشهى ليثير فيه غريزة الافتراس حتى يزأر ويهيج . والصهيونية فى كل أطوارها تزيد فى ضراوة الاستعمار لتطلقه على الشعب الذى تختار ، لأن أحقادها المستعرة على البشرية لا ينقع غلتها الا الدم ، وان طموحها للسيطرة لا يعرف طريقه الا على الأشلاء .

وستعلم الدول المستعمرة — ان عاجلا أو آجلا — أن احتطابها فى حبل اسرائيل سيحرمها الأمن والاستقرار ، أو لعلها لمست فى العدوان الأخير على مصر ان الكارثة كانت وشيكة الوقوع ، وأن هيئة الأمم

المتحدة قد صنعت لهـــا الخير الكثير ... او لعلهـــا علمت كذلك ان الصهيونية حين تتصايح بالحرب ، فانما تحاول ان تخلق فى العالم جوا من التوتر والقلق ، الأمر الذى سيصرف الأنظار عن مشرطها الذى يعمل فى شرايين الشعوب ، لتمتص الدم الذى يهب لها الدفء والحياة .

ان الشرق الأوسط أمة عربية واحـــدة ، عرف الحـــرية فاحبها ، والتمس السلام فرفرف على ربوعه ، وقد اقسم العرب أن يظلوا اعزاء بالحرية آمنين بالسلام .

وان بقاء اسرائيـــل فى صميم بلادهم ، تلك الدولة التى تحترف الحرب ، وتجنى على السلام ، لما يفرق وحدتهم ، ويعكر عليهم صفو الســـلام .

انه لجدير بالعالم ان يفتح عينيه جيدا على حقيقة لا مراء فيها ، وهى : ان للدول الكبرى مصالح حيوية فى الدولة العربية الكبرى تلك التى يسمونها « منطقة الشرق الأوسط » .

وقد شاء الاستعمار ان يقحم فيها اسرائيل وهى - كمـــا رســـمت نفسها - تواقة الى التوسع والاستعمار ، وسيكون ذلك لا محالة فى نطاق الدولة العربية الكبرى .

وقد عودتنا الصهيونية انها لن تعدم الوسيلة لتجد مستعمرا آخر يعمل من اجل اهدافهـــا ، كما وجدته فى « انجلترا وفرنســـا » .. انها ستجده ...

وستغريه كذلك بالاعتداء على الدولة العربيـــة الكبرى كما اغرت هذين ... وحينئذ لن تقف الدول ذات المصالح الحيوية موقف المتفرج . فتندلع السنة الحرب ، الحرب الذرية لتأكل الاخضر واليابس .

واخيرا فليس للعلم ان يختار : فاما صـــهيونية تطـــلق حـــربا مجنونة من عقالها ، واما تطهير شامل للمجتمع من منابتها الخبيثة ، حتى يرفرف على الأرض السلام ، وتسود المحبة بين الناس ...

***

(٩) أمريكا الصليبية

● **مشروع ايزنهـــاور :**

لو أن الرئيس « أيزنهاور » اراد حقا اقرار السلام فى العالم على اسس تقابل بالارتياح التام لبنى مشروعه على تصفية الاستعمار ، ورد الحقوق المسلوبة الى أصحابها ، واعادة الجيوش المحتلة الى مواطنها الأولى ، واعطاء كل شعب حريته المطلقة فى تقرير مصيره ... !!

ولو أن الرئيس المبجل اذ يفعـــل ذلك يتحدث عن قوات بلاده الضخمة ، وعن خزائنها المفعمة لقبلنا منه ذلك الصنيع ، وحمـدنا لـــه هذا الحديث .. !!

ولقلنا : ان الولايات المتحدة تقوم بعمل انسانى مجرد تستحق به اعظم التقدير والثناء ، وانها تتحدث عن قوتها لارهاب المعتدين ، وعن مالها لمواساة المحتاجين .. !!

لكن مشروع الرئيس « ايزنهاور » يجىء وسط ملابسات تخذله ، ويتضمن فروضا وعروضا لا يمكن التسليم بها ...

والا فما معنى ان يقال : اذا جاء جيش من المريخ أو من روســـيا لمهاجمة الشرق فستنهض امريكا لرده ، وعلى دول الشرق أن تتهيأ مقدما لاستقبالنا ، أو لاستقبال عوننا المالى ...

ومتى يقال ذلك ؟ فى الوقت الذى تنـكل فيه اسرائيـل بعرب فلسطين ، وفى الوقت الذى تفتك فيه فرنسا باخواننا فى الجـــزائر فتكا ذريعـــا .

وذلك كله يقع دون ان تقول الولايات المتحدة لزبانية الاستعمار الغربى : كفوا ايديكم ... !!

هل قتلنا برصاص الانجليز والفرنسيين جائز ؟

اما قتلنا برصاص الروس فمحظور ؟

وهل ذلك مبلغ حنان أمريكا علينا ؟

اننا لا ننكر موقف السياسة الأمريكية الأخير من قضيتنا فى الأمم المتحدة ؛ لقد ايدت حقنا مع سبعين دولة اخرى استنكرت عدوان انجلترا وفرنسا واسرائيل علينا ...

بيد أن هــذا الموقف جاء بعـد موقفين كريهين كلاهمــا اردأ من الآخـــر ...

اولهما : رفض امريكا الاشتراك مع روسيا فى سحق العدو ..
وثانيهما : احتجاجها الشديد على انفراد روسيا لمقاومته ..
ان امريكا مريبة فى سياستها هذه . واذا كانت تريد ضمان مصالحها وحدها ، فلتعلم اننا لن نكون خدما لهذه المصالح ، واننا لم ننطم الانجليز والفرنسيين لنعانق الأمريكان أو غيرهم اذا جاءوا بلادنا ممثلين لمصالحهم وحدها .
ان الشرق لنا ، وليس لأحد سوانا ، ولن نأذن لقريب أو بعيد بتسخيرنا له ، ولا بتسخيرنا فيه ... !!

ان هذا المشروع لا يرعى عدلا ، ولا يقر سلاما ، ولا ينتج خيرا — اعنى لنا نحن العرب والمسلمين — وربما وطد مصالح بعض الدول المستعمرة ، وربما ضمن لاسرائيل مزيدا من الحماية وضمان المستقبل .
بيد أننا نبحث فى ثناياه جاهدين : هل قدم لعرب فلسطين املا فى حياة آمنة بعد أن مزقتهم الأطماع شر ممزق ؟ أو هل اعترف بحق هذه المنطقة فى الخلوص بكيانها ، والنجاة بنفسها من زعازع السياسات العالمية ؟ فلا نرى شيئا من ذلك البتة ...
بل تجىء تصريحات الرئيس الذى وضع هذا المشروع كاشفة عن رايه فينا وحكمه علينا ...
انه يقول : لقد خلقت اسرائيل لتبقى ، وان بلاده تكفل هذا البقاء بقوتها ومالها ، اى أن بلاده مصرة على افناء فلسطين ، وتشريد أهلها الى الأبد ...

وعلى انقاض هذه العروبة المضرجة بالدم ، الممرغة فى الثرى يبنى السلام الأمريكى المنشود لشعوب الشرق الأوسط ...
ثم نرمق موقف « أمريكا » من قناة السويس ، فنرى حق اصحاب القناة آخر شىء ينظر فيه ، اما مطالب اللصوص الذين يتحلب ريقهم على المغانم الحرام ، فهو الأمر الجدير بالتقديم والتقدير !!
واذن فلتدول القناة !! وتسرى عدوى هذا التدويل حتى ليقال فى صفاقة لا نظير لها : يجب تدويل قطاع غزة ، وخليج العقبة !!

واذا قبل هذا المنطق السافل فستدول بلاد العرب كلها ، وسيكون هذا التدويل عند الصلح الذى يلتقى فيه لصوص الأرض ، وقد اقتسموا بينهم الضحية دون شجار ونفار ... !!
وذلك هو السلام ، وذلك هو العدالة ...

والا فعلى العرب اللعنة . والا ... فخذوا الطريق على الاسلام ، دين السيف والعدوان ، دين الهجوم والهمجية .. !!

والآن فلنلق نظرات فاحصة على المشروع الأمريكى كما كتبه صاحبه ، وكما ترجمته الى اللغة العربية سفارة الولايات المتحدة فى مصر ...

يرى « ايزنهاور » ان انجلترا وفرنسا كانتا تحميان الشرق الأوسط من الهجوم الروسى عليه ، وانه بعد ما حصلت دوله على استقلالها الذاتى ، واخرجت الدولتان الكبيرتان منه ، اصبح فى المنطقة فراغ يجب سده ، فكيف يسد هذا الفراغ ؟

يسد فى نظر الرئيس « ايزنهاور » بمعونة أمريكا ، خصوصا أن المنطقة تعرضت فى الفترة الأخيرة لاضطرابات واسعة ..

ونحن نتساءل : ما الذى صنع هذه الاضطرابات ؟

اليس خلق امريكا لاسرائيل بالقوة والاكراه ؟ ورغبتها العنيفة فى اماتة العرب الأصلاء ، واحياء الوافدين الغرباء ؟

ثم لماذا يجىء دور الحماية الأمريكية بعد ذهاب انجلترا وفرنسا ؟؟

لماذا لا تمكن شعوب المنطقة من الدفاع عن نفسها بقواها وخصائصها ؟ لماذا تحرم من السلاح الأمريكى تحمله جيوشها الحرة ، فاذا أرسلت روسيا السلاح لهذه الجيوش التى تحتاج اليه غضبت أمريكا واستنكرت ، وأرسلت ساستها لتهديدنا ، أو لمحاولة اقتناعنا بأن روسيا تريد غزونا !!

وأن أمريكا تريد حمايتنا ؟

اسمع ما يقوله الرئيس :

لقد بلغ الشرق الأوسط فجأة مرحلة جديدة حرجة فى تاريخه الطويل الهام ... ففى الماضى ، كانت أمم عديدة فى تلك المنطقة لا تتمتع بالاستقلال الذاتى الكامل . وكان غيرها من الأمم يمارس سلطة كبيرة فى المنطقة .

وكأن أمن المنطقة مبنيا الى حد كبير على قوتها .

ثم قال : « ولقد كان التطور نحو الاستقلال فى أساسه تطورا سليما ، ولكن كثيرا ما ساد المنطقة الاضطراب ، ولقد خلقت تيارات

عدم الثقة والخوف الملحة ، والغارات المتداولة عبر الحدود القومية قدرا كبيرا من عدم الاستقرار فى معظم دول الشرق الأوسط » .

***

ان الزعم بأن فى الشرق فراغا يجب ان يملأ هو تعبير ملطف للقول بأن فى الشرق عبيدا يحتاجون الى سيد ، او قاصرين يحتاجون الى ولى ، أو بتعبير احنى : يتامى يحتاجون الى كافل !!

والكافل المطلوب لا ينبغى أن يكون من اهل المنطقة المغموطة ، يجب أن يكون من خارجها ، فاذا لم يكن من انجلترا او فرنسا فليكن من امريكا ، والحذر كل الحذر أن يكون من روسيا ؛ ان استيلاء روسيا على هذه البلاد يساوى فى خطره وضرره عودة هذه البلاد الى اصحابها ، وضياع مكانة الغرب فيها ... !!

وما تكون وظيفة هذا الكافل الأجنبى ؟

وظيفته ان يحتفظ بخيـــرات هذا الشرق القاصر للأقطار التى تفتقر اليهـــا .

وظيفته ان يستغل أوضاع المنطقة العسكرية والاقتصادية للجبهة الغربية وحدها .

وتسأل : فما نصيب أهل البلاد ؟ والجواب عند المثل العليا فى المجتمع الأمريكى ، تلك المثل التى تخص بالكرامة والاحترام الرجـل الأبيض فحسب ، أما الاجناس الملونة فلها منزلة الخدم ! تأكل الفتات المتروك ، وتقعد اخيرا مزجر الكلب ..

ان الزنوج الأمريكيين لا مكانة لهم فى وطنهم ، فمن اين يتأتى احترام حقوق الانسان فى اقطار الشرق اذا كان الأمريكيون سادته ؟

ودعك من الجمـل اللينة ليونة الأفاعى ، تلك الذى تتحدث فى خبث عن استقلال العرب ، وحماية مصالحهم .

ان اليهودى الواحد ارجح لدى أمريكا من الف مسلم .

وان بلاده لا يمكن أن تكون له . انها لقتلته ، والغالبين عـلى أمره وحدهم ؛ ثم يلف هذا القصد الوضيع فى أغشية مموهة بالكذب ، تزعم أن المراد ابعاد روسيا فحسب عن الشرق !!

اذن فابعدوا جميعا ، ان أهـل هـذه البـــلاد لا يريدونكم ولا يريدونهم !!

لا سنبقى نحن !

والغريب ان الرئيس ايزنهاور يحس ان مصالح روسيا التجارية نادرة فى تلك الأرجاء . وهو امام هذه الحقيقة لا يتحرج من الكشف عن خبيئته السياسية الغربية فيقول فى صراحة : ان غرب اوروبـــا يرتكز اقتصاديا على الشرق الأوسط .

ومن ثم يجب ان نضمن بقاء الشرق فى أيدينا باسـم انقاذه من التوســع الروسى !

واليك كلمات الرئيس :

« وليست رغبة روسيا فى السيطرة على الشرق الأوسط ناجمة عن مصلحتها الاقتصادية الخاصة فى المنطقة ، فروسيا لا تستخدم قنــاة السويس او تعتمد عليها الى حد كبير ، ففى عام ١٩٥٥ كانت حركـة المرور السوفييتية فى القناة لا تمثل الا ثلاثة أرباع الواحد فى المائة من مجموع الحركة ؛ وليس بالسوفييت حاجة الى موارد البترول التى تمثل الثروة الطبيعية الرئيسية فى المنطقة ، ولا يستطيعون تدبير الأســواق لهذه الموارد ،بل الحق أن الاتحاد السوفييتى مصدر كبير لمنتجات البترول.

فالسبب فى اهتمام روسيا بالشرق الأوسـط هو سياســة السـيطرة الغاشمة وحدها ، فاذا راعينا غرضها المعلن الا وهو صبغ العالم بالصبغة الشيوعية اصبح من الســهل أن نفهم أملها فى السيطرة العاجـلة على الشرق الأوسط .

فلقد كانت هذه المنطقة دائما ملتقى طرق قارات نصف الكرة الشرقى ، وقناة السويس تمكن دول آسيا وأوروبا من مواصلة التجارة التى لا غنى عنها ، اذا أريد لهذه الدول الحفاظ على اقتصـــادياتها القوية المزدهرة .

فالشرق الاوسط هو باب الطـريق فيما بين أوروبا ـ وآســـيا ـ وافريقيــــا .

ويحوى الشرق الأوسط نحو ثلثى مصـــادر البترول المعروفة فى العالم الآن ، وهو يسد عادة حاجات دول عديدة فى أوروبا وآســـيا وافريقيا من البترول . ودول أوروبا تعتمد بصورة خاصة على هـــذا المورد ، وهذا الاعتماد يتصل بالمواصـلات كما يتصل بالانتاج . وقد ظهر هذا بشكل واضح منذ اغلاق قناة السويس وبعض انابيب البترول، وفى الاستطاعة استنباط وسائل بديلة للمواصلات ، وكذلك مصادر بديلة لتوليد القوى اذا كان ذلك ضروريا ، ولكن هذه الوسائل لا يمكن اعتبارها احتمالات قريبة الأجل .

وهذه الأمور تؤكد اهمية الشرق الأوسط القصوى ، فاذا ما فقدت دول تلك المنقطة استقلالها ، واذا ما خضعت لسـيطرة قوة اجنبـية معادية للحرية ، فان ذلك يكون محنة لهذه المنطقة ، ولدول حرة عديدة اخرى تتعرض حياتها الاقتصادية عنـدئذ لما يقرب من الاختنـاق فى الوقت ذاته .

كذلك تتعرض اوروبا الغربية للخطر كما لو كان مشروع مارشال، ومنظمة حلف شمال الأطلنطى لم يوجدا ، كما تتعرض الأمم الحرة فى آسيا وافريقيا لخطر شديد ، وكما تفقد دول الشرق الأوسط الأسواق التى تعتمد عليها اقتصادياتها .

وسوف يكون لكل هذا أثره البالغ الضرر ، ان لم يكن الفاجع على حياة امتنا الاقتصادية وعلى مستقبلنا السياسى » .

وظاهر من خلال هذه الكلمات المنذرة القلقة إن الرئيس الأمريكى يبغى استبقاء الشرق فى الوضع الذى يجعله ابدا ذيلا للغرب ، او عونا له ، أو محورا لسياسته المعروفة من بضعة قرون !

سياسة الاستعمار الذى بدأ أول امره قهرا ، ثم تدرج فى اسـماء كثيرة على مر الأيام ، دون أن يختلف المسمى المحروس بعنايته !! والذى يهدف فى اصرار تام الى أكل الشعوب المستضعفة ، والتهام حقـوقها المـادية والأدبية !!

ومشروع ايزنهاور احدى المحاولات القـوية لحماية دول غرب أوروبا ، واستدامة مصالحها ، وابقاء الشرق المسكين يدر عليها السمن والعســل .

الشىء السخيف فى قصة التدخل الأمريكى حكاية العون المـالى المعروض على سكان الشرق الفقراء !

ان هذا العون بالنسبة لمصر مثلا ضرب من التناقض العجيب .

فالولايات المتحدة كما تعرف الدنيا كلها جمـدت اموالنا لديها — وكذلك فعلت انجلترا وفرنسا — ثم هى هى تحيك الآن مؤامرة واسعة لاغتصاب نصف ايراد القناة .

وهى من قبل ومن بعد تشارك فى فرض حصار اقتصادى خانق على بلادنا .. !!

فما معنى أن يجىء أحد الناس فيختلس ما املك ، ثم يضعه فى

حافظته آمنا مطمئنا ، ثم يقول لى : اذا شئت صدقة رميت لك بضـــعة دريهمات !! رميتها لك على الأرض لتنحنى فى ذلة وتلتقطها .

ما هذه الصفاقة ؟

دعوا لنـا ارضنـا وبترولنـا ومواردنا واحتفظوا بصدقاتكم .. ما نريدها !

انكم شبعتم من نهبنا ، واثريتم من سرقتنا .

ولو حرمناكم حقوقنا التى تتحول اليكم جهرة واغتيالا ما بقى لكم فضل يبجحكم بالتطاول علينا ..

صدقات !! خلونا واموالنا فهى تكفى وتغنى ، وكلوا صـدقاتكم ان كان لكم مدخر من مال .

ان قصة الاستعمار الغربى هى قصة التلصـص الذى لا يحكى له تاريخ الحياة نظيرا .

ومهزلة هذا العون المعروض علينا ليست الا بقية القحة التى عرف بها هذا الاستعمار .

آه لو هبت الـريح علينا رخـاء ، ومكنتنا الأقـــدار الطيبة من استغلال خيراتنا لأنفسنا ، وكفت أيدى هؤلاء الخواجات عنا !

اذن لمد الانجليز والفرنسيون اكفهم الينـا يسـألوننا العطـاء ، ويطلبون النجـدة .

لكنهم الآن يسرقون كل شىء من ظاهـــر أرضنا وباطنها ، ثـم يزعمون ــ ولهم الحق ــ اننا بحاجة الى فضول ما يكسبون !

قال الرئيس ايزنهاور : « ان الشرق الأوسط مـهد ثلاث ديانات كبرى هى الاسلام والمسيحية واليهودية . فمكة والقدس اكبر من مجرد مكانين على الخريطة . لأنها يمثلان ديانات تعلم ان الروح فوق المـادة، وان للفرد كرامته وحقوقه التى ليس لأى حكومة مستبدة أن تحرمه منها.

وانه لمن الأمور التى لا تحتمل أن تقع الأماكن المقدسة فى الشرق الأوسط تحت حكم يمجد الوثنية المـادية » .

هذا كلام نحب ان نسمعه ، ونحب كذلك أن يطبق فى أوســع نطاق ، ونتمنى لو ان قائله عنى كل حرف فيه . فنحن نكره الالحـــاد ونجاربه ، ونحن نرفض الفلسـفات المـادية ، ونضـع السـدود أمام امتدادها . ونحن نسعى جاهدين لاسترداد حقوق الانسان المسلم بعدما سلبها ، واستكثرت عليه ، ونريد ان نوطد حرية الفرد والجماعية فى

منطقة عاش فيها الاستعمار ، واضاع فيها حقوق الأفراد والجماعات ..

ولكننا نتساءل : اذا كان فى الشرق الأوسط الحاد فمن مصدره ؟ واذا كان فيه فساد فمن صانعه ؟ واذا كانت فيه آلام ومآس فمن مرتكبها ؟

ان ترويج الكفر والمعاصى كان حرفة الاستعمار الغربى منذ احتل بلادنا ، وان انتهاك الحرمات والمقدسات كان ديدنه الذى لا ينفك عنه ، وحروب التحرر التى اشتعلت هنا وهناك ، وقتال المقاومة اليائسة الدائر الآن فى الجزائر ، كل ذلك انما تهيجه بواعث الدفاع عن الحياة وعن العقيدة ، اى بواعث المحافظة على الدنيا والآخرة ، على الروح والمادة ، وكلاهما مع الاستعمار الغربى هبا ووهم !!!

فماذا صنعت أمريكا المخلصة للأديان ؟ لا شىء الا تقديم سلاحها للمعتدين علينا !! ان مصر والجزائر ضربتا بأسلحة حلف الأطلسى !!

نحن نعرف ان للمسيحية سوقا رائجة فى أمريكا ، وان الولايات المتحدة تحنو عليها ، وتستمسك بها ، وبين يدى احصاء نشرته سفارتها ينطق بمدى ما بلغه نطاق التدين من سعة ، فقد جاء فيه ما يلى ، ننقله بنصه :

بلغ عدد الأفراد المسجلين لدى الكنائس المختلفة فى الولايات المتحدة سنة ١٩٥٤ : ٩٧ مليونا و ٤٨٢ الفا و ٧١١ شخصا . ونعنى بالأفراد المسجلين الذين يشتركون فى النشاط الكنسى بصورة فعلية . وقد زاد عدد هؤلاء بنسبة ٢و٨ بالمائة عن عددهم فى السنة السابقة ، بينما لم يزد مجموع عدد السكان خلال عام ١٩٥٤ عن السنة السابقة الا بنسبة ١ر٧ بالمئة ، وبلغ عدد المسجلين فى مدارس الأحد أو السبت ٣٧ مليونا و ٦٢٣ الفا و ٣٥٠ شخصا . كما قدم مجلس الكنائس المسيحية القومى خلال سنة ١٩٤٣ : ١٣٧ ألف اذاعة دينية .

وكل معونة للهيئات الدينية فيها اختيارية ، فلا اكراه فى الدين ولا الزام . ولا تقدم الدولة الى الكنائس أموالا ولا معونات . وفصل الكنيسة عن الدولة من المبادىء الأساسية فى أمريكا .

وقد بلغ عدد الكنائس سنة ١٩٥٤ : ٣٠٠ ألف و ٥٦ كنيسة ، وعدد الطوائف ٢٦٤ طائفة أو مذهبا ، فقد وجدت جميع الملل والأديان على مر الحقب والأجيال طريقا الى أمريكا واقامت لها هيئات ، وجمعت حولها الأنصار والمشايعين دون رقابة أو تدخل من الحكومة الأمريكية .

وللكنائس الأمريكية عـدة اعمال وواجبات بجانب الطقـوس والعبادات وبث التعليم والوعظ والارشاد . فهى مراكز ذات شأن لمختلف مظاهر النشاط وعديد نواحيه ، ولها برامج ومناهج للنساء والرجـال والشباب والولدان ، بسبيل الدراسـة أو الخدمة ، أو فيما يتصل بمطالب الزمالة والرفقة والرياضة وقضاء اوقات الفراغ ...

واكبر الطوائف الدينية فى أمريكا البروتسـتانت والكاثوليـك واليهود . ويبلغ عدد الأفراد المنتمين الى المذهب البروتستانتى ٥٧ مليونا و ١٢٤ ألفا ، والـكاثوليك ٣٢ مليونا و ٤٠٠ الف ، واليهود ٥ ملايين ونصف مليون .

وتشتمل الطوائف الدينية الأخرى الأرثوذكس الروس والأرثوذكس الاروام ، والـكاثوليك البولونيين الوطنـيين ، والأرثوذكس العـرب الشرقيين ، والبوذيين الأمريكيين ، والأرثوذكس الأوكرانيين ، والمسلمين، والأرثوذكس السريان الأنطاكيين ، وطوائف صـغيرة أخرى تشـمل مختلف الأديان والملل المعروفة فى العالم .

ويحمى الدستور الأمريكى حرية الفرد فى اختيار كنسيته ودينـه وعبادته وفقا لاملاء ضميره ووحى قلبه .

وينص التعديل الأول الذى أدخل على الدستور على ما يأتى :

« لا يجوز للكونجرس ان يقر قانون يقضى باقامة دين من الاديان أو منع أحد من حرية العبادة » ...

ويسرى هذا القيد ايضا على المجالس النيابية فى جميع الولايات المتحدة ، وعددها ٤٨ ولاية ، اما بأحكام ونصـوص فى دساتيرها أو بفتاوى فقهية .

ويلقن التعليم الدينى ، أو اللاهوت ، فى طائفة من الجامعـات الكبرى وفى عدة معاهد دينية خاصة . وقد بلغ عدد طلاب المـدراس الدينية سنة ١٩٥٤ — ١٩٥٥ : ٢٨ر٧٦٠ طالبا ، وعدد المشتغلات بالوعظ ٥٧٩١ امراة ، منهن ٢٨٩٦ راعية لكنائس محليـة ...

وتتولى الطوائف المختلفة تنظيم الفرق والفصول لتعليم الصغار والكبار على السواء مبادىء أديانهم وتعاليمها ..

ويمكن حوالى ثلاثة ملايين طالب من حضور الفرق والفصـول ساعة أو اكثر فى الأسبوع لتلقى دروس دينية اذا شاءوا ...

ويؤخذ من السجلات التى تحفظها جمعية الكتاب المقدس الأمريكية

لعام ١٩٥٢ ان الكتاب المقدس لا يزال اكثر الكتب اقبالا على اقتنائه فى امريكا واشدها رواجا . وتقول الجمعية ايضا ان عدد النسخ المباعة من التوارة يتزايد عاما بعد عام .

***

ونحن نعرف ان « ايزنهاور » رجل متدين ، وانه يصحب الانجيل فى سفره واقامته . وربما كان صادقا فى جزعه على المسيحية اذا انتصرت روسـيا .

بيد ان ذكره للاسلام ومهبط وحيه مكة ، يجعلنا نتساءل مـرة اخـرى :

صحيح ان الرئيس الأمريكى يعترف به دينا - ولو باطلا - كمـا يعترف باليهودية ؟

يبدو اننا لا مكان لنا فى هذا المجـال ، وان ديننا ذكر عرضـا او سهوا ، فان السياسة الأمريكية الى هذه الساعة لا تزال ترجح اليهود على العرب ، واليهودية على الاسلام ، وهى لم تضع فى حسابها هذا الدين الذى يعتنقه جمهور كثيف من البشر ، ينبغى - ولو وفق سياسة المنفعة - أن يجبر خاطرهم !

بل على العكس ، ان الحقد على الاسلام جار على سياسة امريكا وعلى مصالحها الحلال والحرام ، فضحت بهذا الدين واهله ارضـاء لليهود وآمالهم المجرمة ، فى افنائنا وسكنى ديارنا من بعدنا .

أن حديث ايزنهاور عن الديانات الثلاث غريب ، ووددنا لو انه محور السياسة الأمريكية ، ولكن أين الروحانية ، واين القيم الخلقية ؟ واين المثل العليا ؟ واين رسالات السماء ومرضاة الله ؟ واين الاكتراث بيوم الدينونة فيمـا تبذله أمريكا من عون للاستعمار ؟ وتأييد ظاهر لتهويد فلسطين وتنصير الجزائر ، وتحويل البشر الى قطعان يساقون، او يبادون بالحديد والنار ؟

ثم أين هى الشيوعية التى تحذرها امريكا على بلادنا ، وتخشى من وقوعنا فى براثنها ؟

وكيف يصح فى الأذهان : ان سوريا مهددة بالمذهب المادى وفيها على ما يقال نائب شيوعى واحد ! ، أما فرنسا التى فيها خمسون ومائة نائب شيوعى فليست مهددة بالمادية ! بل هى حليفة أمريكا ؟

وما يقال عن سوريا يقال اكثر منه فى سائر دول الشرق الأوسط ،

فالشيوعية فيها مذهب لا يجد له مستقرا ، ولا يلتف حوله اتباع جادون ، وان وجدوا فقلة لا تذكر ، ولا نسبة بينها وبين بقاع أوروبا التى قامت لشيوعية فيها سوق نافقة ، وانضمت اليها جماهير غفيرة من السكان.

ان المذهب المادى لا يجد له فى أقطار الاسلام بيئة خصبة ، فهو انما انتشر فى الفراغ الذى تركته المسيحية وراءها حيث جلت ، وهو قد جاء عوضا عن ضآلة تعاليمها فى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، وعلاجا للفساد الذى صاحب كهنوتها وتزمتها ودعاويها الباطلة .

اما الاسلام فان تراثه الروحى والثقافى ، وشبكة تعاليمه الجامعة التى تمتد فى اقطار الحياة امتداد أسلاك الكهرباء فى مدينة متألقة ، فانه لا يسمح للمادية الكافرة أن تقوم الى جانبه .

ان هذه المادية غريبة على النفس الاسلامية فكرا وعاطفة ، وبرغم المآسى الداكنة التى عرضت لها فهى لم تجنح اليها ، وهذه المآسى الموجعة هى من صنع الاستعمار الغربى ، ومنضراوته الشرسة فىبلادنا!!

واسمع الى ما يقوله « كوليت وفرنسيس جانسون » : ان هناك نوعا من المنافسة قامت بين الاسلام والماركسية للعمل على تحرير الشعوب الاسلامية . ويقرر فريق من الجزائريين أن الاسلام يدعو الى مبدأ تحررى هو العامل المحرك للثورة فى الجزائر ، وهو العقيدة التى حفظت الشخصية الجزائرية من الاندثار ، والتى أبقت روح المقاومة حية مشتعلة تكافح الفاتح الغاشم الذى اغتصب حقها ، وأهدر كرامتها .

والاسلام اما أن يثبت مقدرته على مساندة حركة التحرير القائمة الى أن تبلغ أهدافها النهائية ، واما أن يوصلها الى منتصف الطريق فتحرر الجزائر جزئيا ، ويبقى عليها بعد ذلك أن تقوم بثورتها الحقيقية ، وستتاح للشيوعية حينئذ فرصة للقيام بدور فعال .

ويقرر الجزائريون أن الظروف الحاضرة تشير الى أن الشيوعية لم تلق الى الآن الا فشلا ماحقا . فزيادة على أن للاسلام دخلا فى هذا الفشل ، هناك سبب خاص أشرنا اليه آنفا وهو : وجود عدد كبير من العمال الأوروبيين فى الجزائر ، هم الذين كونوا الحزب الشيوعى الجزائرى ، ولم يتمكن هؤلاء العمال من الاندماج فى القومية الجزائرية ، والتعبير عن مشكلاتها تعبيرا صادقا » . .

وكلام الكاتب الفرنسى يرمز الى أجزاء من الحقيقة التى نعرفها

نحن معرفة كاملة ، فان الاسلام وحده ، هو الذى اشعل نار الثورة ضد الفرنسيين القتلة ، وستظل الثورة ناشبة ما بقى الاسلام قارا فى القلوب حتى تحقق آمالهـا ، وسيظل وحـده الدافع والمعبر عن هـذه الآمال الكبار ، ولن يكون للشيوعية مجال الى جواره .

والأمريكيون يدركون أن المسلمين فى اسوا ظروفهم - وليس اسوأ فى الدنيا ، مما يقع الآن بالجزائر - لم يتحولوا الى الشـيوعية ، ومع ذلك فهم يؤيدون فرنسا ، ويخذلون الجزائر - ولعلهم يتهمون الجزائر بأنها شيوعية . ويقولون ان فرنسا لا تعرف الشيوعية ابدا . وبمثل هذا الكذب والافتراء يحاول الأمريكان ان نصدق محالهم ، وان نقنع انفسنا بأنهم يدفعون عن الاسلام ، وثروته الروحية ، واهله الطيبين !!!

أو أنهم يدافعـون عن الأديان فى العـالم !! فلا غـرو ان تـكتب صحافتنا منددة بهذه السياسة ، ومتهمة اصحابها بما يستحقون :

« ان مشروع ايزنهـاور مشروع غـزو ، أخطر من غـزو الانجليز والفرنسيين لمصر ، وواضح أن أمريكا تريد به أولا روسيا ، لـكنها تريد به أيضا هذا الشرق الأوسط ، وليس يهمنا ما بين روسيا وأمريكا ، انهما تتنازعان على سيادة العالم وزعامته ، ومن وراء هذا ، خيرات العـالم يستأثر بها الغالب منهما ، لكن وطننا ، هذا الشرق ، هو الذى يهمنا ، وهو الذى من أجله نعنى بما يقوله الطرفان وبما يفعلانه .

ان أمريكا تريد الشرق لتستعمره ، وتريده لتضرب به روسـيا ، وتخفى هاتين الرغبتين فى غلاف من المزاعم والخرافات ، وذلك شأن روسيا أيضا من ناحيتها حذوك النعل بالنعل .

ومن اعجب ما تقوله أمريكا أن مشروعها هذا هو اعلان للسلام ، فيا عجبا ، مشروع كهذا ينطوى على كل صور التهديد والاثارة والتحدى يكون اعلان سلام ، فكيف يكون العمل للحرب والتمهيد لها » ؟؟ .

***

ان آخر دعـوى كنا ننتظر سـماعها ان يزعم الأمريكان حمايتهم للأديان السماوية ، وتحت دعوى هذه الحماية المنتحلة يتم اطلاق اليهود فى فلسطين كمـا تطلق الذئاب المسـعورة على قطيع ليس له حارس ، ويتم اطلاق الفرنسـيين فى الجزائر ليحولوا قراها الى مقابر ؛ يهمـد تحت ردمها مجاهد ثاكل ، وذرارى ضائعون ، وشعب يكمم فمه حتى يقتل فى صمت !!

حماية الدين من الشيوعية ؟؟ حماية الشرق من المادية ؟؟ أهـذا هو الستار الذى تلقيه امريكا على سياستها وسياسة حلفائها الذين شحنوا قلوبنا بالآلام ، وحياتنا بالمصائب ؟

ان الاستعمار الغربى الأفاك لم يعرف يوما ما بدين الا دين السلب والنهب ، دين الاجتراء والافتراء ، وان الظهور فى زى التدين مع هذه الفعال المنكرة هو غذاء الالحاد فى العالم ، وحجة الطوائف التى لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر من الشيوعيين المنتشرين فى الغرب ، أو النابتين اليوم بيننا .

نعم ، فان الضلال فى معرفة الله ، والنفاق فى زكر اسمه ، يتركان وراءهما آثارا سيئة ، ويرفعان الثقة فى الأشخاص والمبادىء ، واذا كان ذلك بادى الضرر فى العلاقات الفردية ، فهو فى العلاقات الاجتماعية والسياسة مثار كفران شامل ، وصدود عن الحق بعيد ..

وتدين الامريكان على هذا النحو الأكال للحقوق ، هو الذى جعل الشباب الميال للشيوعية يزيد سخريته من الاديان ، وكراهيته لرسالتها ، ويصدق ظنونه فى انها لا تعدو أن تكون وسيلة لتخدير الوعى ، وسرقة الضعاف ، وسيلة خلقها الأقوياء لأغراضهم الوضيعة فقط ... !

كتب أحد هؤلاء الشبان اليساريين تحت عنوان « الله والسياسة الدولية » :

« كان موسولينى يقول أيام العلمين أنه يزحف الى الاسكندرية ليحمى حمى الاسلام ، وان الغزو الايطالى ليس عدوانا ، بل هو فى الحقيقة نوع من الحج ..

وكذلك كان الانجليز يزعمـــون حينمـــا كانوا يضربون قـلاع الاسكندرية بعد حادثة الملطى كانوا يقولون :

انهم يحمون المسيح ورعاياه بقنابل الاسطول ..

وأمريكا اليوم تقول انها تحمى الشرق من الالحاد بضربه بالأسلحة الذرية الصغيرة ..

ما السر فى هذا الحرص الغريب من الدول الاستعمارية الكبرى على اديانا ؟

انها أدياننا نحن فى النهاية ، وأنبياؤنا الذين عاشوا لنا وماتوا لنا ، وتركوا ارثهم الروحى بين أجدادنا ..

لم ينزل القرآن فى نيويورك ، ولا الانجيـــل فى هوليـــود ،

ولا التوراة فى كابرى . فلم هذا القلق كله من الانجليز والأمريكان على تراثنا الدينى ؟

ان فى الأمر سرا ! ثم يقول :

ان الله الذى يدافع عنه ايزنهاور ليس هو اله الاسلام ، ولا اله المسيحية ، وانما هو عضو فى مجلس شركة الزيت العراقية ، وقد اسقطناه من حسابنا من زمن طويل ..

ويقول : ان الله الذى تتحدث عنه امريكا ، وتحميه بقنابلها الذرية هو الشيطان بعينه . انها لعبة اسماء .. » !

وهكذا تتسع دائرة الالحاد فى الارض ، لأن الصليبية الغربية تقرن حديثها عن المثل العليا بأفعال منكرة ، وتتكلم عن الله الكلام الذى يصرف الضمائر عنه ، ويغرى السفهاء بالتطاول عليه ، وسياسة هذه الصليبية فى بلادها ومع أعدائها هى التى عكرت رونق الايمان . واطلقت عنان الشيطان ، وجعلت مستقبل الاديان كلها فى مهب العواصف الهوج .. !

ومن حقنا ان نتعرف على احوال الأمريكيين فى بلادهم العظيمة، فان حماسهم فى حماية الأديان ينبىء عما يملؤها بلا شك من الصلاح والتقوى ..

ان الذى يتطوع بنفسه وماله لمحاربة الالحاد المادى لابد ان يقيم اموره على فيوض من الطيبة والعدالة والنبل يقتبس منها للعالم مثله العليا .. !!

فلننظر اذن لنرى ما هنالك .

بالأمس جلست استمع الى الراديو ، فقرعت آذانى قصة مثيرة ، قصة زنجى وقف ينتظر السيارة ليعود الى أهله ، وبغتة احاط به لفيف من الصبية الأمريكيين ، ولم يشعر المارة الا والرجل يرسل صرخة عالية ثم يهوى على الارض ، كان الدم ينزف من رأسه وكأن صاعقة نزلت به ، وكان يهمس فى دهشة : ما حدث لى ؟

حملته عربة الاسعاف الى المستشفى حيث قضى نحبه ، وهو يسأل : ماذا حدث له ؟ لقد مات اثر ضربة نافذة من قدوم هوى عليه ، وهو لا يدرى ولا يتوقع !! وذهب الزنجى المسكين الى قبره لا الى بيته ، لأن حماة الأديان لا يحترمون حق الحياة للملونين ، ان الدين الفذ هو : أن يسود الرجل الأبيض وحده فى هذه الحياة !!

وأمامى الآن بحث وضعه الدكتور « الفريد كنزى » مع فريق من زملائه جمعوا فيه حقائق جنسية عن المجتمع الأمريكى بمختلف طبقاته نقتطف منه النبذ الآتية :

« ... ومعابثة الجنس الآخر لون من التفـريج الشـائع بين الذين مضوا فى دراستهم الى نهاية التعليم الثانوى ، وبين الذين درسوا فى المعاهد العليا ، فان ٩٢ ٪ منهم يمارسونه بطريقة ما قبل الزواج فى حين أن ٨٨ ٪ فقط من الذين اقتصروا على المرحـلة الاعـدادية يمارسونه » .

قال : « وكلما صغرت السن كان الاتجاه الى مجامعة الزميـلات اكثر منه الى مجامعة البغايا فى جميع الطبقات ؛ وكلما كبرت السن زاد اتجاه الاعزاب من ذوى التعليم الناقص الى البغايا عنه الى الزميلات » .

قال : « قد يدهش المرء اذا رأى الرقم الكبير الذى يشير الى عـدد الجامعيين الذين مارسوا الجماع قبل الزواج ، لكن الدهشة تزول اذا حسب عدد المرات التى يمارس فيها طالب الجامعـة هـذا اللون من الوان التفريج ؛ فان النسبة بين الجامعيين أقل منها بين أى طبقة أخرى » .

قال : « وبين الذين لم يتزوجوا حتى سن الخامسة والعشرين نجد أن ممارسة الجماع مع البغايا وجدت اقبالا من ٧٤ ٪ ممن درسوا حتى المرحلة الاعدادية ، و ٥٤ ٪ ممن أتموا المرحلة الثانوية ، و٢٨ ٪ ممـن واصلوا الدراسة الى النهاية » .

قال : « وتقتصر مجامعة الحيوان على الذكور الذين ينشأون فى الريف ، أما أبناء المـدن فلا يمارسونها الا نادرا وفى فرص عابرة ، ولهذا نجد نسبة الذين يقبلون على هذا اللون من التفريج منخفضة جدا فهى لا تعدو ١٤ ٪ بين الريفيين الذين بلغوا المرحلة الاعدادية ، وحول ٢٠ ٪ بين الذين استكملوا الدراسة الثانوية ، ٢٦ ٪ ممن تلقوا دراسات جامعية » .

قال : « ... على أن ٨٥ ٪ ممن لا يتلقون تعليما عاليا يرون فى الجماع قبل الزواج أمرا طبيعيا وعاديا لا علاقة له بالخطيئة ، وهـو يتفشى فى الأوساط التى لم تتجاوز فى تعليمها المراحل الاعـدادية ، حتى أننا لم نعثر على فرد واحد فى مجموعتين أو ثلاث من المجموعات التى درسناها فى هذه الطبقة لم يمارس الجماع مع الجنس الآخر عندما بلغ السادسة عشرة أو السابعة عشرة » .

قال : « وهم متقلبون الى درجة كبيرة حتى ان الواحد منهم لا يكاد يجامع الأنثى أكثر من مرة واحدة ؛ على أن أبناء الطبقة الدنيا لا يلبثون أن ينظروا - بعد الزواج - فى اشمئزاز الى هذا التقلب وان بقى بعضهم بضع سنين بعد زواجه يمارس العلاقة مع غير زوجته الى جانب ممارستها مع زوجته ، وعلى النقيض من هذا أبناء الطبقة العليا اذ ما يكاد الواحد منهم يتعود الجماع مع زوجته حتى يشرع فى الاتصال بغيرها » ..

هذه هى أمريكا حامية الايمان وحارسة الأديان !! والتى تتوجس الشر من تسرب الشيوعية الى الشرق الأوسط .

انها ترغب ان نحيا فى كنفها ، وأن نقبل وصايتها علينا لننعم فى ظلال حضارتها الطيبة ، حضارتها العامرة باليقين والعفاف والقسطاس المستقيم .. !!

لو ان للغرب رسالة نبيلة يدعو اليها ، ويعيش فى جوها ، رسالة تغرى الآخرين بما تحويه من خير وكرامة ، وبما تتضمنه من حق وانصاف ، لقلنا : دعوة ينبغى أن نستمع اليها ، وأن نقارن بين ما فيها وبين ما لدينا . اما ان ننظر الى أمريكا وأوروبا معا فلا نرى الا الشر الزاحف ، والرعد القاصف ، والتحقير لأشخاصنا ، والازدراء لحقوقنا ، فبأى عقل نقبل هذه المعاملة ، وبأى ضمير نرتضى هذه الأوضاع . وبأى وجه نقبل هذه المساءة ، مهما اجتهد أصحابها فسموها زورا حماية للدين ، وكراهية للالحاد .

ان الالحاد هو ما يفعلون ، والدين الحق هو الذى يهدمون ، والاسلام وحده هو الذى يكيدون وبه يمكرون .. !!

***

وننتقل الى دور الأمم المتحدة فيما يقع علينا نحن المسلمين من مآس ، وما يقع كذلك على أمثالنا من المستضعفين ...

ان هذه المؤسسة جاءت فى أعقاب طوفان من الدم خلف وراءه سبعين مليونا من القتلى ، عدا عشرات الملايين من المشوهين والمنكوبين، وعدا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة التى أدركها الغرق أو الحرق .

هذه الخسائر الجسيمة انما نشأت من غليان الأثرة بين ساسة الغرب ، ومن جريانهم وراء بريق المطامع الدنيئة ، وتهارشهم على انتهاب العالم ، ووضع اليد الجائرة على ما فيه ومن فيه ..!!

فهل اتعظ المحروبون بعد هذا الدمار الشامل ؟ وهل ثابوا الى رشدهم ،وكفكفوا من غلوائهم ؟ وهل فكروا فى انتهاج خطة انصاف تمنع الشجار ، وتحط الاوزار ، وتصون المستقبل من متاعب الماضى ؟؟ كلا كلا .. !! ان شيئا من ذلك لم يحدث ؛ كأن العدالة حديث خرافة ، وكأن التعاون على البر والتقوى أمر لا يليق بالدول الكبرى !!

ان انجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول المستعمرة لم ترك ضمائرها ابدا على ترادف الآلام ، كأن الجراحات التى أثخنتها ما زادتها الا عتوا ، وها هى ذى قد خرجت من حرب ضروس أثارها العدوان المحض ، لتستعد لحرب اخرى تشبع نهمها الى اللحم الحرام والمال الحرام ، واسترقاق البلاد والعباد ..

وفى سبيل ذلك تتخذ من مؤسسة الأمم المتحدة وسيلة للعبث بمقدرات الشعوب ، ومن مكانتها فى مجلس الأمن حائلا دون احقاق الحق ...

ولعل من أبشع مخازى العصر الحديث ، أن هذه الأمم المتحدة — — تحت تأثير امريكا وانجلترا وفرنسا — اعترفت بدولة اسرائيل ، ومعنى ذلك الاعتراف التواطؤ الخسيس على تشريد مليون عربى ، والرضا بأن يهلكوا جوعا وضيعة ومسكنة فى العراء والغربة ، بينما يحل مكانهم المستجلبون من يهود الأرض ، فى حراسة الاستعمار الغربى ، وبتشجيعه وايعازه !!!

لقد باركت الأمم المتحدة هذا الضيم الصارخ واستراحت له .. !!

واليوم يجىء الرئيس الأمريكى « أيزنهاور » ليعلن أن سياسة امريكا فى الشرق الأوسط ستسير جنبا الى جنب مع الأمم المتحدة ، فهو يقول :

« ان أفكارنا تتجه بطبيعة الحال الى الأمم المتحدة كحامية للأمم الصغيرة ؛ فان ميثاقها يحملها المسئولية الأولى لصيانة السلام والأمن الدوليين ، ولقد منحت بلادنا الأمم المتحدة تأييدها الكامل فيما يتصل بالحرب فى المجر ومصر ، وقد تمكنت الأمم المتحدة من تحقيق وقف القتال ، وسحب قوات العدوان من مصر ، لأنها كانت تتعامل مع حكومات وشعوب تكن الاحترام اللائق لآراء البشرية ، كما هى ممثلة فى الجمعية العامة للأمم المتحدة » ...

أى أن انجلترا وفرنسا انسحبتا من مصر احتراما للضمير الانسانى !! وهذا والله وصف مضحك !! فان الدولتين الباغيتين ما وقفتا

القتال فى مصر الا بعد التدخل الروسى ، والخوف من تدمير لنـــدن وباريس بالقذائف الموجهة ؛ كالكلب اللص يدلف من باب البيت ونيته السطو ، فاذا هو يلمح شبح العصا من بعيد توشـــك ان تقصم ظهره ، فيستدير موليا الادبار ...

ونباح الكلب وهو يجرى هاربا ليس الا اسفا على ضياع فريسته ! ولم يقل أحد انه صراخ استغفار ، واعلان توبة !! ولم يقل أحـــد - الا الرئيس أيزنهـاور - ان انسحاب انجلترا وفرنســا كان احتراما لآراء البشرية ، ممثلة فى قرارات الأمم المتحدة ...

ان امريكا تدافع عن صاحبتيها لأن آصرة الدم المشترك تجمـــع بينهم ، والاحتقــار لحاضر العرب ومستقبلهم يمزج بين سياســتهم فى النهاية ، وان اختلفت الوسائل !!!

ولو بقى التحــالف بين الروس والأمريكان كمــا بدأ فى الحــرب العالمية الثانية لذهبت مصر كلها فى خبر كان ، ولاجتمعت الأمم المتحدة لتبارك منح مصر لليهود ... !!

لكن الله جلت حكمته بث الفرقة بين الأقوياء ، حتى يتيح للضعاف متنفسا يحيون به ، ويتقون به البطش والحيف ...

من بضع سنين والسكان الأصلاء فى جنوبى افريقيا يجدون ضيقا هائلا أوقعه بهم البيض النازحون الى ديارهم . لقد رسم هؤلاء البيض الغزاة سياسة فى معاملة أهل البلاد تقوم على الخسف والعسف ، وتنطوى على أخس مشاعر الاستعلاء والافتيات ...

قال الأستاذ محمد شاهين حمزة ، وهو يستعرض السياسة المرسومة ضد الملونين :

« أما فى جنوب افريقيــا فان الأمر فيهــا انكى واتعس ، غلو فى التفرقة ينحدر أحيانا الى ما يشبه انكار وجود الملونين انفسهم ، كأنهم ليسوا بشرا يستحقون قطرات من الحياة والأمان » .

انهم حين ينزل عليهم الغضب من سماء السادة البيض ، يصب الغاز على أجسادهم وهم أحيــاء . ثم توقد فيها النــار لحرقها ؛ والغريب أن رئيس وزراء جنوب أفريقيا يدعو الى التوسع فى التمييز العنصرى ، حتى يشمل مناطق أخرى غير المناطق التى يسود فيها هــذا التمييز ، والتى يعيش فيها الأجانب سادة ، والأهلون عبيدا . بل « عبيــدا بصــق على

وجوههم ، وامتهنت آدميتهم » على حد تعبير الدكتور «مالان» رئيس وزارة جنوب افريقيا المعروف باحتضانه لسياسة التفرقة .

وعذر البيض فى شدتهم وقسوتهم ، وفى ابائهم على السود ان ينالوا حقا ما ، هو الخوف من أن يشتد ساعدهم يوما فيستردوا ما اغتصب منهم من اراض وخيرات . ان خمسة ملايين أوروبى يصرون على التحكم فى ١٩٢ مليون افريقى ، ويعملون على عدم تمكينهم من نيل أى حق انسانى .

وحدث ان عرض اقتراح على « هيئة الأمم المتحدة » ضد التفرقة العنصرية بجنوب افريقيا ، فأيدته دول ، وعارضته أخرى ، وامتنعت طائفة عن التصويت ، ومات الاقتراح فى الهيئة الموقرة ، وظل الشقاء مضروبا على التعساء الذين خصتهم الأقدار بجلود مسودة .

تريد ان تعرف الدول التى عارضت الاقتراح ؟ ووقفت تناصر سياسة التفرقة العنصرية ، وتعلن العداء لحقوق الانسان ، وتدعو الى اهدارها ؟ انها : بريطانيا ، واستراليا ، وكندا ، وزيلندة الجديدة ، وبلجيكا .

اما الدول التى امتنعت عن التصويت ، أى التى أيدت سياسة التفرقة بموقفها السلبى فهى : الولايات المتحدة ، والنرويج ، وتركيا ، والدانيمارك ، وفرموزا ...

واما سياسة فرنسا فى هذه القضية وغيرها فقد شرحها أحد علماء القانون الفرنسى فى هذه العبارات :

« اذا قلنا : سيادة الشعب ، فلا يعنى هذا شعوب مدغشقر أو أفريقيا الاستوائية أو مسلمى مراكش ... ! ، ان حقوق الانسان والمواطن لا تطبق ولا تراعى الا لصالح الشعب الفرنسى بالقارة الأوروبية .

فالوطنى فى مدغشقر أو الهند الصينية مهما بلغت مكانته الاجتماعية وثقافته وعلمه لا يعتبر مساويا للفرنسى الأوروبى » .

***

هذه هى القاعدة التى نعامل بها ، يسرونها حينا ، ويعلنونها حينا ودول الاستعمار مثنى وفرادى لا تتبع غيرها فى سياستها معنا .

اذا انتظر الظمآء الرى من السراب انتظر المعذبون الراحة منها ، وفى السراب بريق لا يزال يخدع ويخلق الأمانى الكذاب ، أما المجامع

التى انتظمت هذه الدول فقد بدا وجهها الـكالح ، وانكشفت خبيئتها السيئة ، وظهر ان الأمم الصغيرة والضعيفة اضيع فيها من الأيتام فى مأدبة اللئام ، بل انهــا هى الطعــام الذى يوضع على هـــذه المــائدة الحرام ...

وان ينس أحد ، فلن ننسى ابدا ، ان هذه الدول الكبرى جمعت اذنابها بالرغبة والرهبة لتميت قضية الجزائر ، وتدع عربها يتساقطون قبيلا قبيــلا ، بين انياب الفرنســيين الوحوش ، دون ان تسـمع لهم شـــكاة .

وان ينس أحد ، فلن ننسى ابدا ، ان هذه الدول الكبرى قررت ان تبعثر عرب فلسطين لقى فى أرجاء الصحراء ، وان تسـتخرج اليهود استخراجا من بلاد يعيشون فيها آمنين وافرين ، لتقيم لهم بين اظهرنا دولة تقسم كياننا ، وتسود وجوهنا ، وتذل ديننا ودنيانا ...

ثم ان الغربيين النازحين الى امريكا حملوا احقادهم اليها ، فاذا الدولة التى صنعت فى العصور الحديثة تسوس امورنا معها ، وكأن لها ثارات حفظتها القرون الطوال ! وأكدتها آلاف السنين ! .

لم هذا الطمع فينا ، والتهوين لشأننا يا معشر الأمريكان ؟ لم هذا التحامل علينا والخذلان لقضايانا ؟

ان مشروعاتكم لبلادنا لا تحمل أثارة من حق أو نبل ، ولن نعول بعد اليوم الا على انفسنا فى النجاة بأنفسنا ...

ان العرب لا يرجون من الولايات المتحدة الا شيئا واحدا : أن تلزم الحياد الدقيق معهم ، وأن تتركهم وشأنهم دون تأييد أو خصام .

والعرب يعرفون ان مأساتهم قد وضع خطتهــا الانجليز ، ثم قام بتنفيذها الأمريكان ، وارصدوا من اموالهم وقواهم وحيلهم ما جعل اهل فلسطين يمرون فى أطوار سوداء من الآلام والأحزان .

وقد شعر المشتغلون بالسياسة العربية بهذه الحقيقة دون جهــد ، ولهذا اذاعت الهيئة العربية العليا لفلســطين بيانا عن موقف الولايات المتحدة من قضايا العرب جاء فيه :

من الغريب أن يغفل الرئيس ايزنهاور ، فى بيان سياسته الجديدة ، الاشــارة الى الشــقاء الواضــح والظلم الفــادح الذى أصــاب اللاجـئين الفلسطينيين من جراء قيام الدولة اليهودية ، وبقاء نحو مليون نسـمة منهم مشردين يقاسون اشد ضروب المحن والرزايا ، بينما هو يتحدث

فى مناسبات عدة ولا سيما فى بيانه يوم ذكرى وثيقة حقوق الانسان فى ٢٠ ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩٥٦ ، عن الشقاء الذى حل باللاجئين المجريين الذين لم يتجاوز عددهم خمسين الفا ، ويدعو دول العالم الى انقاذهم ، ومد يد المعونة اليهم .

وبالاضافة الى ذلك ، فقد تجاهل بيان الرئيس أيزنهاور ، الشرور والمآسى التى نتجت والتى ما زالت تنتج من العامل الآخر الذى يتهدد الأمن والسلام فى الشرق الأوسط ، وهو الاستعمار الغربى الذى يقوم بالعدوان السافر على شعوب هذه المنطقة ويقترف أفظع جرائم التقتيل والبطش والتنكيل فى الشعب الجزائرى والشعب اليمنى ، وفى واحة البوريمى ، وفيما يسمى « المحميات » البريطانية فى جنوب شبه الجزيرة العربية وشرقها كعمان والبحرين وغيرهما .

واذا كان الرئيس أيزنهاور معنيا حقا بسلامة الشرق الأوسط ، الى هذا الحد ، فاننا نستغرب أن يقوم مشروعه على أساس دفع ما يتوهمه من خطر الشيوعية الدولية فحسب ، ولا يتضمن أية اشارة الى وجوب دفع الخطر الاستعمارى الذى هو العامل الرئيسى ، والخطر الحقيقى على أمن هذه الأقطار وسلامها ! فقد كانت الدول الاستعمارية دائما ضد أمانى العرب ومصالحهم ، وعملت جاهدة خلال القرنين الأخريين على غزو بلادهم غزوا عسكريا واقتصاديا وروحيا ، وعلى تحطيم صروح استقلالهم والقضاء على حريتهم . وما العدوان البريطانى الفرنسى الأخير على مصر وفلسطين ، الذى استفظعته معظم دول العالم كما استفظعته الدول الشيوعية ، الا دليل صريح وبرهان ساطع على ذلك . كما انه ليس فى الامكان ولا من المعقول ، حمل شعوب الشرق الأوسط ، على ألا يشعروا بلهب النار المندلعة بشدة فى داخل بلادهم ، وصرف أبصارهم وجهودهم الى خطر بعيد .

ان جميع المواقف التى وقفتها الولايات المتحدة من الأحداث والتطورات والوقائع التى وقعت فى فلسطين والشرق الأوسط ، تدل على أن التصريحات التى يشير اليها الرئيس أيزنهاور لم تصدر الا لقصد الدفاع عن اليهود وحمايتهم فى أعمالهم العدوانية من جهة ، وتثبيت قواعد الاستعمار وتحقيق أغراضه من جهة أخرى . فقد قام اليهود ، منذ صدور التصريح الثلاثى بسلسلة من الأعمال العدوانية الوحشية على العرب ، أزهقوا فيها أرواح ألوف من الأهلين واللاجئين ، ودمروا

الممتلكات ، ونهبوا الأموال والثمرات ، وشردوا الوف العائلات ، دون ان تتدخل الولايات المتحدة لوقف تلك الأعمال العدوانية أو لمنع تكرار حدوثها . ونذكر هنا على سبيل المثال ، بعض حوادث العدوان الوحشى على قبية ، وفلامية ، وقلقيلية ، وجعبة ، ونحالين ، وحوسان ، والرهوة ، والقدس ، وغزة ، وخان يونس ، والصبحة ، وكفر قاسم ، ومخيمات اللاجئين فى قطاع غزة ، وغيرها ..

وكذلك قام اليهود بأعمال عدوانية اخرى على الأراضى العربية كضمهم الى المنطقة الواقعة تحت احتلالهم ، بعض اقسام المنطقة الحرام فى القدس ، وعلى الحدود السورية ، والعوجة على الحدود المصرية . وكتحويلهم مجرى نهر الأردن ، وتجفيفهم مياه بحيرة الحولة .

ومما هو جدير بالذكر ايضا موقف الولايات المتحدة السلبى من الاعتداء البريطانى على واحة البوريمى التى هى جزء من المملكة العربية السعودية ، فقد وقع ذلك العدوان بعد التأكيد الصادر عن الرئيس الأمريكى الى جلالة ملك المملكة العربية السعودية .

كذلك كانت سورية عرضة لسلسلة من الأعمال العدوانية من جانب تركيا ، كما كانت سورية والأردن عرضة لمؤامرات استعمارية خطيرة ترمى الى تقويض النظام القائم فيهما وبسط السيطرة الاستعمارية الكاملة عليهما ، بينما قام الاستعمار ولايزال يقوم بأفظع الأعمال العدوانية فى الجزائر ومراكش وتونس واليمن وما يسمى بالمحميات فى جنوب شبه الجزيرة وشرقها ، هذا وقد انزل الاستعمار البريطانى فى اهل كينيا وغيرهم من شعوب أفريقية ، وفى أهل قبرص ، اشد انواع الظلم والأذى والاضطهاد . ففى جميع تلك الحالات ، لم تتدخل الولايات المتحدة لدفع العدوان ، ولم تعمل لتحقيق رغبة الشعوب فى الحرية والاستقلال ، بل تغافلت عن استعمال دول الاستعمار لقوات حلف الأطلنطى واسلحته (التى استعملت فى اعتدائها على مصر وفى حربها لشعب الجزائر) .

انه مما يدعو الى الأسف الشديد أن يتجاهل الرئيس ايزنهاور الأعمال الهمجية التى اقترفها المستعمرون واليهود ضد الاديان والمقدسات ، وأن يغفل عن الروح اليهودى المليء بالنقمة على الأديان السماوية والقيم الروحية والمبادىء الخلقية ، والذى يعتبر كل ما هو غير يهودى مباحا مشاعا لليهود .

ففى الوقت الذى حافظ فيه العرب والمسلمون ، خلال ثلاثة عشر قرنا وزيادة ، على حرمة المقدسات المسيحية واليهودية فى فلسطين وسائر بلاد الشرق الأوسط وصانوها وضمنوا للمسيحيين واليهود ممارسة شعائرهم الدينية بكامل الحرية ، فان المستعمرين الغربيين واليهود قابلوا العرب من مسلمين ومسيحيين بالجحود ونكران الجميل ، ثم بالعدوان الأثيم على العقائد والمقدسات الدينية .

ان الاستعمار ينطوى بطبيعته على روح حرمان الشعوب التى تقع تحت سيطرته من حرياتها ، ومن جملتها - بصورة تلقائية - الحرية الدينية . وكثيرا ما كان الدين الاسلامى وأحكامه ومقدساته عرضة لشرور الاستعمار وانظمته وقوانينه ، وطالما أصيبت المقدسات الاسلامية بالتخريب والتدمير بسبب الأعمال العدوانية التى ما فتىء اليهود والمستعمرون وقواتهم المسلحة يرتكبونها فى بلاد العرب والمسلمين .

ولعل من المفيد ان نسترعى انتباه الرئيس الأمريكى الى السياسة الدينية الاستعمارية التى تسير عليها الدول الاستعمارية فى البلاد الاسلامية ضد المسلمين ، مثل سياسة فرنسا (الدينية) فى شمال افريقية ، والى الحقيقة القائمة وهى أن الدول الاستعمارية وفى مقدمتها انجلترا هى التى قضت على الخلافة الاسلامية وقاومت اعادتها وأقامت العراقيل والعقبات فى سبيل تقدم الشعوب الاسلامية وتطورها .

وفى فلسطين المحتلة دمر اليهود المئات من مساجد المسلمين ، واحالوا عددا آخر منها الى نواد وأماكن للهو كما فعلوا بجامع المنشية فى يافا (المعروف بجامع حسن بك) ، وكذلك حولوا بعض المساجد الاسلامية الى كنائس يهودية ، كما فعلوا بمسجد النبى داوود بالقدس .

واستباح اليهود حرمة المقابر الاسلامية فدنسوها ونبشوا قبورها وبنوا على انقاضها بيوتا ومستعمرات لمهاجريهم الجدد ، كما استباحوا الوقف الاسلامى واستولوا على أراضيه وممتلكاته ، وحرموا المسلمين من ممارسة شعائرهم الدينية بحرية ، ومن الاحتفال بأعيادهم ومواسمهم كما جرت عليه عادتهم من قرون بعيدة . ووضع اليهود المحاكم الشرعية والأوقاف وما بقى من المساجد الاسلامية فى فلسطين المحتلة وجميع المؤسسات الاسلامية تحت اشراف وزارة الأديان اليهودية وادارتها .

واعتدى اليهود اعتداء منكرا على الحرم القدسى الشريف ، المسجد الأقصى المبارك ، فقد أطلقوا عليه قنابلهم المدمرة والحارقة فى

الهجوم الاجرامى الذى شنوه على القدس ليلة ١٠/٩ رمضان ١٣٦٧ هـ الموافق ١٧/١٦ يوليو (تموز) ١٩٤٨ م واصابوه بأضرار جسيمة وقتلت القنابل فى ساحة الحرم الشريف نفوسا بريئة كثيرة .

وبالاضافة الى هذا الاجرام الفظيع ، فان اليهود يعلنون بوقاحة وجراءة يستمدونهما من مناصرة دول الاستعمار الغربية وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية لباطلهم وتأييدها لمطامعهم ، عزمهم على الاستيلاء على الأماكن المقدسة الاسلامية ولا سيما المسجد الأقصى المبارك ليعيدوا انشاء هيكل سليمان مكانه ، ويبذلون جهودهم لتحقيق هـذه المطامع الخطيرة ، ومنها محاولاتهم العديدة للاستيلاء على (البراق الشريف) الذى هو الحائط الغربى للمسجد الأقصى المبارك خلال عهد الانتداب البريطانى ، مما أدى فى حينه الى وقوع معارك دموية بين العرب واليهود ، وما اعلنه الزعيم اليهودى البريطانى اللورد ملتشت (السير الفرد موند سابقا) من أنه سيكرس ما بقى من حياته لاعادة بناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى ، وما أعلنه الحاخام الأكبر روزنباخ فى كتابه الذى بعث به الى رئيس المجلس الشرعى الاسـلامى الأعلى بفلسطين خلال عهد الانتداب البريطانى مطالبا باباحة حرية العبـادة لليهود فى المسجد الأقصى ...

وتتعدى مطامع اليهود المقدسات الاسلاميـة فى فلسـطين ، الى المقدسات الاسلامية فى الحجاز ، فقد أعلن اليهود بصراحة ، عن رغبتهم فى ضم شمال الحجاز ، بما فيه المدينـة المنورة نفسـها ، الى دولتهم بحجة أن بعض القبائل اليهودية كبنى قريظة وبنى النضير وخيبر كانت تقطنها قبل أربعة عشر قرنا ؛ وقد وسطوا الرئيس الأسبق روزفلت لاقناع المغفور له عبد العزيز آل سعود بتحقيق رغبتهم مقابل مبلغ كبير من المال ، وكان طبيعيا أن يرفض الملك عبد العزيز ذلك العرض رفضا باتا . ثم ان الخرائط التى وضعها اليهود لدولتهم الكبرى تشتمل على جميع الأراضى العربية الواقعة ما بين النيل والفرات ، وهى شمال الحجاز بما فيـه المدينـة المنـورة .

وبالاضافة الى هذه المطامع اليهودية الوقحة فقد نشر الزعيـم اليهودى الأمريكى « بن هخت » مقالا فى جريدة نيويورك تايمس فى شهر أبريل ١٩٤٨ ، بلغ فيـه الذروة فى الوقاحـة والنذالة ، اذ طالب بتشكيل جيش يهودى قوى لاحتلال المدينة المنورة وهدم المسجد النبوى

الشريف والضريح الطاهر ، لارغام العرب والمسلمين على الخضوع لليهود والركوع على اقدامهم ! ..

لقد دلت سياسة أمريكا الاقتصادية حتى اليوم على ان دول الشرق الأوسط لم تنل بمجموعها من المساعدات الأمريكية ما يمكن أن يقاس بالمبالغ الضخمة التى نالتها الدولة اليهودية بمفردها منها . فقد بلغت المساعدات المالية والاقتصادية التى قدمتها الولايات المتحدة للدولة اليهودية فى فلسطين المحتلة رقما كبيرا جدا ، ولم تكتف الولايات المتحدة بما قدمته من المساعدات الضخمة للدولة اليهودية فراحت تحمل الدول الغربية على مواصلة مساعداتها لها . بل على زيادتها ، وتضغط على جمهورية المانيا الغربية وتحملها على عقد اتفاقية التعويضات الاسرائيلية التى تقدم المانيا بموجبها لليهود نحو ٣٥٠٠ مليون دولار .

ونورد فيا يلى بيانا بالأموال والمساعدات التى أغدقتها الولايات المتحدة على الدولة اليهودية منذ قيامها فى عام ١٩٤٨ حتى أواخر يوليو ١٩٥٦ . وقد يكون ثمة مساعدات أخرى قدمت لليهود دون ان تعلن :

١ ـ الهبة السنوية من الحكومة الأمريكية للدولة اليهودية من ٣٠ الى ٥٠ مليون دولار ..

٢ ـ المساعدات الفنية من امريكا لليهود من ٦ الى ١٤ مليون دولار سنويا ..

٣ ـ المواد الغذائية التى تهديها أمريكا للدولة اليهودية ٧ ملايين دولار سنويا ..

٤ ـ القروض الأمريكية الرسمية للدولة اليهودية ١٦٤ مليون دولار ..

٥ ـ التعويضات الألمانية لليهود ٣٥٠٠ مليون دولار ..

يضاف الى ذلك أن رؤوس الأموال الأمريكية الموظفة فى الدولة اليهودية بلغت ٢١٤ مليون دولار ، وأن بنك أمريكا منح اليهود قرضا فى ١٢ يوليو ١٩٥٥ مقداره ٣٠ مليون دولار .

ويبلغ ما جمع من جباية اليهود فى الولايات المتحدة ٣٠٠٠ مليون دولار وهو معفى من الضرائب .. ؟

وبلغت قيمة تبرعات وهدايا المؤسسات اليهودية فى الولايات المتحدة ١١٧ مليون دولار ..

وبلغت تبرعات يهود الولايات المتحدة للدولة اليهودية فى النصف الأول من عام ١٩٥٦ نحو ٦٥ مليون دولار ٠٠٠

ويبلغ مجموع هذه المساعدات مبلغا يتراوح ما بين ٧٦٦٨ و ٧٨٩٢ مليون دولار ، اى ما يقرب من ثمانية مليارات (بلايين) دولار ٠٠

وقد اعترف المسئولون الامريكيون انفسهم بصحة هذه الأرقام فى مناسبات عديدة ، فمن ذلك ما اعلنه مستر « اندرسن » وكيل وزارة التجارة فى ١٥ مارس سنة ١٩٥٣ من ان حكومة الولايات المتحدة وشعبها قدما ليهود فلسطين فى المدة الواقعة بين سنتى ١٩٤٨ ــ ١٩٥٢ نحو الف مليون دولار ، هبات وعطايا وقروض ٠

وكذلك اعلن السناتور « رايلى » رئيس لجنة الشئون الخارجية فى مجلس الشيوخ الأمريكى فى ٢٩ مارس سنة ١٩٥٢ فى خطبة له فى مؤتمر مساعدة اسرائيل ، ان الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر الدولة اليهودية ، القاعدة الأساسية للشئون العسكرية والاقتصادية والديمقراطية فى الشرق الأوسط ٠٠٠

أشار الرئيس ايزنهاور فى بيانه الى «مشكلة فلسطين ومشكلات العلاقات بين اسرائيل والدول العربية ومصير اللاجئين ٠٠ » وقال : ان الولايات المتحدة مستعدة أن تفعل الكثير لمساعدة الأمم المتحدة على حل مشاكل فلسطين الأساسية ٠

ان عرب فلسطين خاصة ، والأمة العربية عامة ، يعتبرون الولايات المتحدة الأمريكية مسئولة عن كارثتهم العظمى فى فلسطين ، ويرون فيها شريكا لبريطانيا فى مقارفة تلك الجريمة الانسانية التى لم يشهد التاريخ لها مثيلا ٠ فاذا كانت بريطانيا قد مهدت السبيل لارتكاب تلك الجريمة باصدارها وعد بلفور وبوضعها فلسطين فى ظروف سياسية واقتصادية وادارية ساعدت على انشاء الوطن القومى اليهودى ، ثم على تحويله الى دولة يهودية ، فان الولايات المتحدة الأمريكية هى التى نفذت فعلا تلك الجريمة ووضعت الخنجر المسموم فى يد القاتل اليهودى الأثيم بمساعداتها السياسية والمالية والعسكرية لليهود اثر الحرب العالمية الثانية وتأييدها لهم فى الأمم المتحدة ، ومجالات السياسة الدولية وباغداقها عليهم الأموال بغير حساب ٠ فقد وقفت الولايات المتحدة موقفا واضحا فى التحيز لليهود ضد العرب ، وبالاضافة الى الدور الخطير الذى لعبته فى انشاء الدولة اليهودية بفلسطين على انقاض

اهلها العرب الذين شردوا فى الآفاق ، فقد كانت الولايات المتحدة اول دولة فى العالم اعترفت بدولة العصابات اليهودية بعد دقائق معدودات من اعلان قيامهـا رغم افتقارها الى جميع الاعتبارات والمقومات التى تجعل منها دولة تستحق الاعتراف الدولى ، مما دل دلالة صريحة على التواطؤ والتفاهم بينها وبين اليهود على قيام دولتهم القميئة الهزيلة التى لم تلبث ان سمنت من امتصاص دم عرب فلسطين ، ونمت وترعرعت من العدوان على اراضيهم ونهب ممتلكاتهم واموالهم . فالولايات المتحدة هى التى اطعمت اليهود من جـوع ، وهى التى حمتهم وآمنتهم من خوف ، ووزرها ومسئوليتها لا يقلان بحال عن وزر بريطانيا ومسئوليتها فى كارثة فلسطين العظمى امام الله والتاريخ وامام الناس ...

وبينما عملت الولايات المتحدة ، على حرمان العرب من الأسـلحة والمعدات التى طلبوا اشتراءها منها ، وعلى الضغط على دول اخرى لمنعها من تزويد العرب بالسلاح ليدفعوا عن انفسهم وبلادهم أخطـار العدوان الاستعمارى واليهودى ، فانها غمرت دولة العصابات اليهودية بفيض من الأسلحة والمعـدات ، راسـا من بلادها ، أو عن طريق دول أخرى كفرنسا وبريطانيا اللتين لم تكونا لتستطيعا تقديم أى سـلاح لليهود لولا سماح الولايات المتحدة لهما بالتصرف بالأسلحة الأمريكيـة المقدمة للدول الغربية لأغراض الدفاع بموجب حلف شمال الأطلنطى . وارسال الكثير منها الى فلسطين المحتلة » ...

***

(١٠) فى عـالم البغـــال

« القول فى البغال » عنوان رسـالة كتبها الجاحظ يسـتطيع ان يستوعب موضوعها من يشاء ، فقد اخرجتها دار الكتب منذ شهور فى طبع انيق ... !!

والعرب اذا رات ما يسـتدعى الشتم . نسـبت صاحبـه الى ذلك الحيوان ، وقالت عنه انه بغل !!

وسر هذا الوصف ان البغل حيوان مهجن ، امـه فرس نزا عليها حمار ، فخرج الولد يحمل طباعا غير ما يعرف فى طائفته لو ان السيدة أمه واقعها حصان !! ولو تم ، لخرج الابن جوادا كريما ، أو على الأقل فيه اصالة الخيل وسمو مظهرها ومخبرها ..

والبغال فى ميدان القلم والتوجيه العـام كثيرون ، وآثارهم فى افساد الذوق والوعى شائعة منكرة !! هؤلاء نزت على أخلاقهم ومسالكهم ـ بل على نفوسـهم وعقولهم اولا ـ افـكار دخيلة وآراء دنيئـة تتصل بالحياة والانسان ، والوجود الأعلى ، فكان هذا التلقيح الفكرى مغيرا طبائعهم كما تتغير الذرارى فى الواقع الحيوانى المختلط ...

انهم لو نبتوا فى بيئتهم وحدها لشبوا مؤمنين بالله ، يحترمون دينه وشرائعه ، ويعرفون مكانة الفضائل فى دنيا الناس فيشيعونها ، ويعرفون عقبى الرذائل فى تدمير المجتمع وتخريب الحاضر والمستقبل فيحاربونها ...

ولكن هؤلاء نتاج غريب فى أمتنا المؤمنة بربها ، الغيور على حقوق الله وحقوقها ، نتاج غريب ، كما ان البغال بعـد نزوان الحمير على امهاتها نتاج تنكره الخيول ، وقد تنكره الحمير ايضا ... !!

ان أوروبا ، قبح الله وجهها ، كانت الوالد الروحى لهؤلاء الكتاب الشرقيين الذين يطلبون الآن فى قحة ظاهرة طى الاسلام فى اكفانه ، واراحة الناس من فرائضه ونوافله ، واباحة الدعارة التى حرم ، وكذلك الخمر وسائر المناكر !! ثم ردم الدعوة الاسلامية حتى تخمد انفاسها تحت الثرى ، فلا يسمع لها نداء ، ولا يحترم لها عرف مقرر او تقليد موقر او تشريع مقترح أو خلق مستقيم ...

ودور أوروبا فى اخراج هذه الطباع الممسوخة هو دور الحمار فى تلقيح فرس اعـدت خصيصا لهـذا التهجين ... كذلك صنـع الغـزو

الثقافى ، وكذلك افلح فى اخراج اجيال البغال ليس بينها وبين اصلها العريق نسب محفوظ ، ولا سبب ملحوظ ...

***

لقد استفادت اوروبا - فى هجماتها الحديثة على الشرق - دروسا كثيرة من الحروب الصليبية الأولى ، وهى فى حملاتها الأخيرة على الاسلام والمسلمين تتبع سياسة أحكم فى بلوغ مآربها ، وتتخذ طرقا ماكرة فى القضاء على الاسلام واتباعه دون ضجة كبيرة !!

وهل اجدى عليها من ان تخلق جيلا من المسلمين انفسهم يقضون على دينهم بأيديهم ؟ ان ذلك يوفر عليها قدرا كبيرا من المتاعب والتبعات ، وحسبها بعد ان تقف متفرجة لترى - وهى طروب - كيف يمات الاسلام بغير يدها المباشرة !!!

كان الصليبيون القدماء يهجمون فى غارات فظيعة ، وليس على وجوههم نقاب ، ولا دون نياتهم ستار ؛ غرضهم البين القضاء على الاسلام بالسيف ، فكان ذلك اللون من الهجوم يتبعه رد فعل شامل فى الأقطار الاسلامية ؛ اذ يجمع متفرقها ويصحى نائمها ، ويثير دوافع البقاء أمام وطأة الجزارين ، ان لم يثر كوامن الايمان أمام عدوان الكافرين ..

ولذلك اشتدت مقاومة المسلمين لهذه الهجمات ..

وما أخذوا على غرة مرة الا تنادى قاصيهم ودانيهم لرد الطغاة ، واسترداد ما غصبوا ... وكان ذلك من أسباب فشل الصليبيين آخر الأمر بعد قتال اتصلت وقائعه مائتى سنة .. !!

وكان من اسباب فشل الصليبيين ايضا فى غزواتهم الأولى جهلهم بأحوال المسلمين وشئونهم السياسية والاجتماعية ، وتكون صور غامضة أو محرفة عن قواهم المادية والأدبية . لقد كانوا يخرجون من أوروبا الى عالم مجهول معتمدين على أمداد من الجيوش لا آخر لها ، ومعتقدين أن تفوقهم العسكرى ، وحماسهم الدينى يصنعان المعجزات ، بيد أن ذلك لم يغن عنهم شيئا .. !

ثم انهم كانوا يعتمدون على الطوائف النصرانية الموجودة بالمشرق ، مرتقبين عونها وارشادها ، ظانين انها تملك من الوسائل

ما يجعلها عظيمة النفع لاخوانها فى الدين اذا اقبلوا هاجمين ! وقد يصلحون على القليل جواسيس للجيوش الوافدة ، ان لم ينتظموا جنودا فى سلكها ، وقد خاب فألهم فى هذه الناحية لأسباب شتى ..

***

ومن الفشل القديم ، وعلى ضوء تجاربه ، غير الصليبيون الجدد خططهم ، واتبعوا اساليب جديدة . انهم يجيئون اليوم ـ كما يقولون ـ تجارا لا فجارا ! واحتلالهم للبلاد بالقوة اجراء قضت به الضرورة فقط ، والا فهم ناس طيبون شرفاء !

واذا ثار قطر يبغى حريته اطفئت ثورته بالحديد والنار لا لشىء الا ليتفرغوا لأداء رسالتهم النبيلة .

وما رسالتهم النبيلة ؟

تجهيل المسلمين فى دينهم ، والاشراف على المدارس لتخريج متعلمين ان لم ينكروا الاسلام فهم غرباء عليه !

وعزل الاسلام عن التشريع والتوظيف ، وانشاء تقاليد جديدة فى الأزياء والعلاقات ، وروابط الأسر والجماعات ، وتقاليد بعيدة كل البعد عن الاسلام ..

وبناء الدولة على نزعات قومية ضيقة تقسم الأمة الاسلامية سبعين امة متدابرة !

وهكذا ... يمضى الغزو الجديد فى طريقه ، استعمارا تباركه الصليبية ، وصليبية يمهد لها الاستعمار !

الاستعمار يريد هدم الاسلام ليستريح من عناصر المقاومة الآبية التى يدفع لها الايمان الحر ..

والصليبية تريد هدم الاسلام ليخلو الجو للتثليث على انقاض التوحيد ، ولمبدأ الفداء بدل مبدأ الجزاء ، وتتعاون الضغينة والمنفعة على بلوغ اهدافهما فى الأمة المنهزمة ، وبذلك يلتقى شقا المقراض على كيانها ليجذه جذا ..

أما الاحاطة بالاسلام وشئونه المختلفة ، فقد وكلت الى مئات المستشرقين الذين انكبوا فى جلد ومصابرة على ثقافة الاسلام الخصبة ، وعلى تاريخه فى كل بلد ، ثم الفوا بعد ذلك مئات الرسائل والكتب ،

كانت لبنى قومهم شعاعا يسيرون على هديه وهم يفتحون البــلاد ، ويديرون دفة الحكم فيها ..

ومع ان جمهور المستشرقين يمكن اعتباره موظفـــا فى وزارات الاستعمار المختلفة ، الا ان جهوده العلمية الضخمة تســتحق الــوزن الدقيق ، خصوصا انها جاءت فى ابان انحطاط المسلمين ، وذهولهم عن دينهم ، وركود ريح العلم بينهم .

ومن المفارقات التى تثير الحسرة ان « الجامع الأزهر الشريف » راى أن يوفد فريقين من علمائه لاستكمال دراســتهم الاســلامية فى جامعــات اوروبا ، بل ان شـيخ الجامع الأزهر الحالى اخـــذ اجازة « الدكتوراه » فى الشريعة الاسلامية من جامعة « باريس » !

وبدهى أن العلم لا وطن له ، بيد أنه مما يهيج الغضب فى نفس المسلم ، أن يصل سقوط الحكم الاسلامى فى القرون الأخيرة الى حد يدفن فيه العلم والعلماء ، ثم يتوالى تراثنا الأدبى تحت أطباق من التراب ، كأنه بعض اثار الفراعنة البائدين ، حتى يجىء أخيرا رسل الاستعمار الغربى ليستكشفوا مادته ، ويعيدوا على الناس عرضه .. !

والمستشرقون قبل كل شىء نصارى متعصبون لجنسهم ودينهم ، وهم بموروثاتهم الفكرية والعاطفية ، وبطبيعة العمل الذى يحترفونه خدام للدول التى غزت الاسلام فى عقر داره ، والصور التى يقدمونها للاسلام ، والتى ينشرونها بين العدو والصديق ، ناضحة بما أكنوا فى انفسهم من عداوة لهذا الدين ، وبما بيتوا من شر لأهله ..

والرأى السائد بينهم أن محمدا ادعى النبوة ، وزعـــم أن الله يوحى اليه ! وهم يتساءلون فى سخرية عن هذا الوحى : ما يكون ؟ وما طبيعته ؟ وكيف يتم ؟

وبهذا العقل الناقد ينظر الى الاسلام وحده ! ثم يعتبر قـــرآنه كتابا انسانيا لا صلة له بالسماء !

وبهذا العقل نفسه ينظر الى التوراة والانجيل على أنهـــا كتب سماوية مقدســة ! وان الوحى الذى نزل بها لا يسوغ أن يسئل عنــه ، ولا ان يقال : ما يكون ؟ ما طبيعته ؟ كيف تم ؟

ان الغرض الذى ينبعثون عنه هو تجريح الاسلام وحده لحســاب

الاستعمار الصليبى الذى ظفر فجاة بمقدرات المسلمين فى الشرق والغرب ..

***

ثم تجىء « مشكلة الأقليات » كما اخترعها الذهن الاستعمارى الواعى !

وليست للنصارى فى ربوع المسلمين مشكلات تدرس ، ولا مسائل تبحث ؛ فهم عاشوا دهورا ينعمون فى ظل وارف من السماحة والتجاوز والعطف ..

لكن الغزو الصليبى الذى لم يستفد منهم فى العصور الوسطى الا قليلا يريد فى جولته الحاضرة مع الاسلام ان يستفيد منهم فى اوسع دائرة مستطاعة ؛ ومن ثم يزعم ان حماية النصارى حيث كانوا امر يعنيه ويكترث له ..

وكما دبر حادثة المالطى فى الاسكندرية ليحتل مصر ، دبر حادثة دير القمر فى لبنان ليجعل من لبنان متكأ له وهو يعبث بمقدرات المسلمين ، ويعرقل سياسة التحرر التى ينادون بها .

والاستعمار يرى ان وجود هذه الطوائف مهما قل عددها مانع طبيعى من ان يكون الاسلام دينا للدولة ! ومانع طبيعى من أن يصار اليه فى تشريع او توجيه ، ويرى الاستعمار – تمشيا مع امنيته فى خفض الاسلام ، وتهوين شأنه ، واذلال ابنائه – أن يكون لهذه الطوائف مركز ممتاز من الناحيتين المادية والأدبية ، وهو يرفض – فى اباء (!) – ان يتساووا فى الحقوق والواجبات مع مواطنيهم المسلمين ..

كلا ، يجب ان يخرجوا بحظ الأسد فى كل قسمة ، وان ينالوا من المناصب ، ويتوفر لهم من الثروات ، ما يجعل لهم مكانة ممتازة ، مكانة الاشراف والوصاية على شئون الكثرة المهيضة .. !

فى هذا الغزو الشامل ، وبين شعبه الزاحفة ، وقعت الأمة الاسلامية ، ونشأ ابناؤها ، لا يرون ولا يسمعون الا ما يهين دينهم ، ويخدش اعتباره ، ويمنع اثبات معالمه وشعائره فى المجتمع والدولة ، بل فى نفوس الأفراد .. !

وكانت القوة العسكرية أول الأمر سناد هذه الردة المنشودة ، ثم وكل الى المسلمين « المرتدين » أو المنحلين أو الناكصين على أعقابهم

ان يحققوا اهداف هذا الغزو ، وذاك ما نميط عنه اللثام الآن ، ونحن نتفرس فى عالم البغال .

وسترى ان الغزو الثقافى ، وما يكتنفه من تأييد عسكرى خارجى ، ومؤامرات داخلية شتى ، انما يقوم على طعن الاسلام فى صميمه ، وتقويض اركانه جملة ، بايهام الناشئة أن محمدا افاك ، وأن دينه مفتعل ، وان التعلق بالاسلام تعلق بخرافات فات أوانها .

واليك نماذج من صور الأدب التوجيهى عند بعض كتابنا الكبار .

وقبل أن نثبت هذه النماذج نريد أن نؤكد المقاصد القريبة والبعيدة لها .

فهى لا تبغى اشاعة رذائل من النوع الذى يفارقه الشباب عند تفجر غرائزه ، واضطراب ارادته ، ولا تبغى بث دنايا من النوع الذى تسقط فيه المجتمعات فى فترات ضعفها وانحلال أمرها ، ان هذا وذاك بعض أهدافها ...

ولكنه يجىء نتيجة طبيعية للمحاولات التى تقصد اليها قصدا ، وتعمل لها عمدا ، وهى محاولات الاتيان على هذا الدين من القواعد ، وترك صغار القراء والمتعلمين يفهون أن هذا الاسلام ليس له أساس من الحق ، ومن ثم تنصرف الأمم المسلمة عن دينها هذا لا عن عصيان لأمره مع الاعتراف بأصله ، بل عن تكذيب شامل لما جاء به من تعاليم وتقاليد وقوانين .

***

اراد الدكتور زكى مبارك أن ينال اجازته العلمية من « باريس » فكيف يصنع الدكتور الزكى ؟؟

رأى ان يسوق الف دليل على انه وعى جيدا دروس أساتذته ، وانه اقتنع بالفكرة التى يصرحون بها حينا ، ويلمحون بها حينا آخر ، فكرة أن القرآن من وضع محمد ، وانه ليس وحيا مصونا كالانجيل ، او التوراة « كذا » .

فاسمع العبارات التى بثها بثا دنيئا وسط مائتى صفحة من كتابه « النثر الفنى » وتملق بها مشاعر السادة المستشرقين ، الذين يوجهون العلم والأدب لخدمة المستعمرين ونصرة الصليبيين !

قال الدكتور زكى مبارك :

فليعلم القارىء أن لدينا شاهدا من شواهد النثر الجاهلى يصح

الاعتماد عليه وهو القرآن . ولا ينبغى الاندهاش من عد القرآن اثرا جاهليا ، فانه من صور العصر الجاهلى : اذ جاء بلغته وتصوراته وتقاليده وتعابيره ...

وهو — بالرغم مما اجمع عليه المسلمون من تفرده بصفات ادبية لم تكن معروفة فى ظنهم عند العرب — يعطينا صورة للنثر الجاهلى ، وان لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبى ﷺ من الكتاب والخطباء .. .

وقال أيضا :

القرآن شاهد من شواهد النثر الفنى ، ولو كره المكابرون فأين نضعه من عهود النثر فى اللغة العربية ؟ انضعه فى العهد الاسلامى ؟ وكيف والاسلام لم يكن موجودا قبل القرآن حتى يغير اوضاع التعابير والأساليب !!

فلا مفر اذن من الاعتراف بأن القرآن يعطى صورة صحيحة من النثر الفنى لعهد الجاهلية ، لأنه نزل لهداية أولئك الجاهليين ، وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون ..

وقال أيضا :

والخلاصة أن القرآن نثر ، وانه دليل على ان العرب كان عندهم نثر فنى قبل الاسلام ، فكان لهم بذلك وجود أدبى متين قبل ان يتصلوا بالفرس واليونان ...

وفى هذا قضاء على أوهام من زعموا : ان أول كاتب فى اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسى الأصل ؛ وأن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب والأسجاع والأمثال ..

وقال أيضا :

لا يمكن الوصول الى يقين فى تحديد العناصر الأدبية التى يحتويها القرآن الا اذا أمكن الوصول الى مجموعة كبيرة من النثر الفنى عند العرب قبل الاسلام ، تمثل من ماضيه نحو ثلاثة قرون ؛ فانه يمكن حينذاك ان يقال بالتحديد ما هى الصفات الأصيلة فى النثر العربى ، وهل القرآن يحاكيها محاكاة تامة ، أم هو فن من الكلام جديد .

وقال :

ونحن مع هذه الحيرة لا نستطيع الفرار من الاقتناع بأن القرآن اثر عربى صرف ؛ لأن الرسول ﷺ الذى تلقاه وبلغه عربى ؛ ولأنه نشأ فى بيئة عربية ؛ وبلسان عربى مبين ، وليس امامنا أى دليل على انه

متأثر تأثرا محسوسا بآداب اخرى اجنبية ؛ وان كان هذا ممكنا ، لأن العرب قبل الاسلام كانوا على اتصال قليل أو كثير بمن جاورهم من الامم ..

وقال :

ولو تركنا المشكوك فيه من الآثار الجاهلية ؛ وعدنا الى نص جاهلى لا ريب فيه وهو القرآن لرأينا السجع احدى سماته الأساسية ؛ والقرآن نثر جاهلى – كما أوضحنا ذلك من قبل – والسجع فيه يجرى على طريقة جاهلية حين يخاطب القلب والوجدان .

وقال أيضا :

النسيب من الموضوعات التى احتكرها الشعر عند العرب . وتلك نزعة طبيعية : فان النسيب والغزل من أرق ألحان الغناء ؛ وذلك يفرض ان تؤدى تلك المعانى فى كلام مقفى موزون . ولم نجد فى المجموعات الأدبية مختارات نثرية فى النسيب ؛ لان مصنفى المجموعات كانوا يفهمون أن الغزل لا يخرج عن الانفاس الشعرية .

غير اننا نجد فى النثر لأقدم عهوده نماذج غزلية ؛ كالذى وقع فى القرآن وصفا للحور والولدان – نحو :

« **وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون** » (١) .

ونحو : « **يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين** »(٢) .

وكما جاء فى سورة الواقعة : « **انا أنشأناهن انشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا** » (٣) ..

فهذه كلها أوصاف تدخل فى باب النسيب .

وقال :

« وقد تناقل الناس أن أبا العلاء المعرى وضع كتابا فى معارضة القرآن ؛ فقيل له :

ان كتابك لجيد ، ولكن تنقصه حلاوة القرآن ! فأجاب : حتى تصقله الألسن فى المحاريب أربعمائة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون !

وليس المهم هنا أن نعرض لهذا الرأى برفض أو قبول ؛ ولكن المهم أن نسجل أثر الترديد والتقليب فى حياة البلاغات » .

---

(١) الواقعة : ٢٢ ، ٢٣ . (٢) الواقعة : ١٧ ، ١٨ .

(٣) الواقعة : ٣٥ – ٣٧ .

ماذا يطلب اعداء الاسلام اكثر من هـذا ؟ واين تبـلغ اهـداف الصليبية الغازية بعد هذا ؟

هذه العبارة المليئة بالمطاعن والأكاذيب هى اثر الغزو التبشيرى الذى شنه الاستعمار علينا ..

والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى تلقى فيه صورة الوحى الالهى كاملة غير منقوصة ..

وهو أنقى ينبوع لهدايات الله ، كما تنزلت على رسله الأكرمين ، وكما بلغها امام الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ .

وهو المعجزة التى حاول المغرورون ان يتعرضـوا لها ، فارتدوا على اعقابهم ، يتبعهم الخزى ، وتتناول اقفيتهم الصفعات ..

ومحاولة المستشرقين واذنابهم ان ينـالوا منه ، ليست محـل اكتراثنا ، وليس هنا مجال تفنيدها ، وكشف دخلها ودغلها .

وكل ما يعنينا هنا ابراز الصلات الفكرية بين طـراز من الأدب قدمه لنا بعض الناس وبين غايات الهجوم الصليبى الذى لقح هذا الطراز ونماه واحتضن اصحابه ومهد لهم فى المحافل !

ولا ندرى هل رجع الدكتور زكى الى الله بعد هذا الكفران المبين ، أم مات على زيغه ؟

لقد كتب بعد ذلك كتابات حسنة فى التصوف ! وان كان الرجـل ظل يدمن الخمر حتى صرعه السكر ، وقضى على حياته وهو نشوان ..

***

ولنتجاوز الدكتور زكى مبارك الى قنطرة اخرى من قناطر الغزو الثقافى الصليبى ، اعنى الدكتور طه حسين ، فان هذا الرجل كان بوقا عاليا لآراء المستشرقين ، ودسائسهم العلمية ، وضغائنهم الدينية ...

وانى اعترف بأنى كنت مخدوعا فى تفرق أدبائنا ـ منهم الدكتور طـه ـ اذ حسـبت شرودهم عـن النهـج السـوى ضربا من حـيرة الباحثين فى اكتشاف الحقيقة ، ولونا من الاجتهاد فى تلمس الصواب ، قد يعذر صاحبه فى النتائج التى يصل اليها ، وان خرج على العرف ، وأبعد فى **المذهب** ...

وسر خدعتى ، انى رجل لا اعرف غير اللغة العربيـة ، ولم اقف على كتابات المستشرقين الكثيرة بلغاتهم الأخرى ...

فلما تكلم النقاد ، واماطوا اللثام عن المواطن الأولى للأفكار التى هاجمتنا ، والتى تناولت الاسلام بالهمز واللمز ، بل بالطعن والتجريح ،

عرفت اننا امام عصابة ماجورة للشيطان ، وأن المسألة ليست خطأ الأذكياء فى نشدان الحقيقة ...

نعم ، لقد كنا أمام دواب ناشطة فى نقل المطاعن على القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ...

ناشطة فى تهوين التراث الاسلامى كله ، وصرف المسلمين عن اعزازه والأخذ به ...

ناشطة فى اخراج أمة جديدة يحتقر تاريخها الماضى ، ورسالتها الكبرى وترمق المدنية الغربية بدهشة المعجب ، وفقر المتسول .

لم يكن الحاد هؤلاء الكتاب وليد عقول أعياها التفكير فضلت ، بل كان الحادهم وليد اتباع لتوجيهات السادة المستعمرين ، وتلقينات الأساتذة المستشرقين !

فاذا لم يسيروا وراء المستشرقين على نهج واحد ، ساروا فى محاذاتهم بحيث لا يبعدون عنهم فى طريقة ولا غاية ...

***

ولقد نقلنا لك عبارات الدكتور زكى مبارك وهو يصف القرآن ، وقبل أن ننقل لك عبارات الدكتور طه حسين المماثلة ، نضع أيدينا على المصدر الذى نقل منه هذا ، وذاك ، كما حدده وأوضح معالمه الدكتور محمد البهى قال :

هناك صورتان تعرض فيهما فكرة « بشرية القرآن » :

١ - الصورة الأولى : انه « انطباع » فى نفس محمد ﷺ . نشأ عن تأثره ببيئته التى عاش فيها ؛ بمكانها ، وزمانها ، ومظاهر حياتها المادية والروحية ...

٢ - والصورة الثانية : أنه « تعبير » الحياة التى عاش فيها محمد ﷺ . بما فيها المكان ، والزمان ، وجوانب الحياة الاقتصادية ، والسياسية ، والدينية ، والاجتماعية .

واحدى الصورتين ملازمة للأخرى - فاذا كان انطباعا من البيئة فهو يعبر عن هذه البيئة واذا كان تعبيرا عن البيئة فقد انطبع أولا فى نفس قائله ، قبل ان يعبر به ، وقبل ان يقوله ...

كلتاهما اذن تفصح عن : ان القرآن عمل خاص بمحمد ﷺ تأثر فيه كما يتأثر الانسان ، وعبر به عن المعانى التى كانت فى نفسه من

بيئته ؛ كما يعبر الانسان عن اية معان تجول بنفسه قد تأثر بها ؛ وانطبعت فى خاطره من الظروف التى تحيط به ...

ويتوقف تفضيل احدى هاتين الصورتين على الأخرى ـ لمن يرى بشرية القرآن ـ على أحوال البيئة التى يعلن فيها هذا الراى ـ فان كانت بيئة أجنبية امكن مواجهتها بالصورة الأولى ؛ وهى ان القرآن انطباع نفسى ...

أما اذا كانت بيئة اسلامية فيقضى الأمر ان يتبع فيها أسلوب اللف والمداراة ـ وهذا اليق بالصورة الثانية ؛ وهى ان القرآن يعبر عن الحياة الجاهلية ؛ اى حياة ما قبل الاسلام ؛ اصدق تعبير ...

● الصورة الأولى :

ولا أريد هنا ان انقل لأى مستشرق عبر عن بشرية القرآن ؛ بل سأتخير واحدا ؛ يعد مثلا للاتزان بينهم ، وهو المستشرق الانجليزى جب " Gebb " أستاذ الدراسات العربية الآن بجامعة هارفارد بأمريكا الشمالية ، وسنرى من النصوص التى ننقلها عنه هنا من كتابه : « المذهب المحمدى » انه آثر الصورة الأولى بأسلوب يبدو فيه تجنب الألفاظ النابية ، والصراحة المكشوفة !

وملخص ما يقوله جب ، حتى الآن هو :

١ ـ ان مكة كانت فيها حضارة ، وزعامة ، ولم تكن أرضا جرداء ، ولم يكن سكانها حفاة غلاظا ، بل كانت لديهم فطنة ؛ وملكة فى السياسة ؛ ومعارف واسعة بالناس والمدن .

٢ ـ وان حياة محمد ﷺ حياة مكية خالصة ، بما فيها نشأته ، ودعوته ، وصراعه ، فهى حياة محدودة : ودعوته عندئذ ليست دعوة عامة ؛ بل لأناس معينين . واختياره الدعوة بأن تكون دينية ؛ ثم اختياره هذه الدعوة الدينية بأن تكون فى صورة حكومة الهية ـ من تحديد عوامل الحياة المكية وما دار فيها من اتجاهات سياسية ؛ واقتصادية ؛ ودينية ...

٣ ـ وأن القرآن ليس جديدا كله على العرب (المكيين) ؛ وأن ما فيه من مسيحية لا يتعدى المسيحية الشرقية السريانية ، وما فيه من يهودية لا يتعدى اليهودية المعروفة فى « المدينة » .

وليست معارضة المكيين له بسبب تمسكهم بالقديم ، أو بسبب الايمان ؛ كما يذكر القرآن فى قوله تعالى :

« بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير ألا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا انا بما أرسلتم به كافرون » (١)

بل تلك المعارضة كانت بسبب المنافسة فى الزعامة السياسية ، والخوف من انهيار حياتهم الاقتصادية .

والقرآن ، اذن الآن ، ليس عمل انسان اى انسان ؛ بل هو انسان معين ؛ عاش فى حياة خاصة ، تبلورت حياته الخاصة فيما قاله فيه .

***

● **الصورة الثانية :**

اما الصورة الثانية للرأى القائل ببشرية القرآن ، وهى أنه تعبير عن الحياة التى وجد فيها « الرسول » ﷺ . وهى حياة ما قبل الاسلام فيحكيها فى حركة « التجديد والمجددون فى الفكر الاسلامى » كتاب الشعر الجاهلى .

« فكرة كتاب الشعر الجاهلى » :

هذا الكتاب يقوم على فكرة واحدة ؛ هى : أن الشعر الجاهلى لا يمثل حياة العرب قبل ظهور الاسلام . اى لا يمثل الحياة التى عاش فيها الرسول ﷺ ، بما لها من جوانب وأجواء ، اذ هو شعر مصطنع مفتعل ، ولذا لا يعبر عن حقائقها .

فهو فى جملته يعبر عن حياة جاهلية فيها غلظة وخشونة ، وبعيدة عن التمرس السياسى ، والنهضة الاقتصادية ، والحياة الدينية الواضحة — مع أن حياة العرب فى الجاهلية كانت حياة حضارية .

والعرب كما يقول : « لم يكونوا على غير دين . ولم يكونوا جهالا ولا غلاظا ؛ ولم يكونوا فى عزلة سياسية أو اقتصادية ، بالقياس الى الأمم الأخرى ، كذلك يمثلهم القرآن .

واذا كانوا أصحاب علم ودين ، وأصحاب ثروة وقوة وبأس ،

---

(١) الزخرف : ٢٢ — ٢٤ .

واصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة ، متاثرة بها مؤثرة فيها فما اخلقهم ان يكونوا امة متحضرة راقية ؛ لا امة جاهلية همجية . وكيف يستطيع رجل عاقل ان يصدق ان القرآن ظهر فى امة جاهلية همجية » ؟.

١ - وبما أن الشعر الجاهلى لا يصح أن يكون مرآة صافية للحياة الجاهلية - وهى الحياة التى نشأ فيها الرسول ﷺ ، وقام بدعوته وكافح من اجل هذه الدعوة فيها - فالشىء الذى يعبر عن هذه الحياة تعبير صدق ، وموثوق به كل الثقة ، هو القرآن .

« فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلى » .

واذا رجعنا الى القرآن - هكذا يستنتج المؤلف - نجده قد صور العرب وحياتهم بما يجعلهم أمة سياسية تنشد ان تكون قوة ثالثة بين الفرس والروم ، كما كانت امة وسطا بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندى . وبذلك كانت مركزا للتجارة « العابرة » وعن هذا الوضع بين الشمال والجنوب اثرت ، ونافست فى القوة ، كما كان لها دين ومعتقد ناهض ، وفى ذلك يقول :

« لم يكن العرب اذن - كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلى - معتزلين ، فانت ترى ان القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم :

« **الم . غلبت الروم ، فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ، ينصر من يشاء** » (١) .

فهذا الذى ذكره القرآن فى سورة الروم يراه المؤلف « عناية سياسية » اكثر منه تنبأ عن طريق الوحى بمصير الامبراطورية الرومانية فى الشرق - ويستطرد فيقول :

« وهو - اى القرآن - يصف اتصالهم الاقتصادى بغيرهم من الأمم فى السورة المعروفة :

« **لايلاف قريش . ايلافهم رحلة الشتاء والصيف** »(٢) .

وكانت احدى هاتين الرحلتين الى الشام - حيث الروم ، والاخرى الى اليمن حيث الحبشة أو الفرس ...

« وسيرة النبى ﷺ تحدثنا : أن العرب تجاوزوا بوغاز باب المندب الى بلاد الحبشة ، الم يهاجر المهاجرون الأولون الى هذه البلاد ؟ وهذه

---

(١) الروم ١ - ٥

(٢) قريش : ١ ، ٢ .

السيرة نفسها تحدثنا بانهم تجاوزوا الحيرة الى بلاد الفرس ؛ وبأنهم تجاوزوا الشام وفلسطين الى مصر ؛ فلم يكونوا اذن معتزلين - ولم يكونوا اذن بنجوة من تاثير الفرس ، والروم ، والحبش ، والهند ، وغيرهم من الامم المجاورة لهم .

« ارايت ان التماس الحياة العربية الجاهلية فى القرآن انفع واجدى من التماسها فى هذا الشعر العقيم الذى يسمونه الشعر الجاهلى » ؟ ..

« أرايت ان هذا النحو من البحث يغير كل التغيير ما تعودنا ان نعرف من أمر الجاهليين » ..

ومعنى هذا القول : ان القرآن انطباع للحياة القائمة فى وقت صاحبه ، وهو النبى ﷺ ويمثل لذلك بنية خاصة فى عقيدتها ، ولغتها ، واتجاهها فى الحياة ، وعاداتها ، وهى البيئة العربية فى الجزيرة العربية (١) .

***

على ان الهجوم الصريح على القرآن الكريم لم يلبث أن اتخذ اسلوبا آخر ، فان المصارحة بأن القرآن اثر أدبى من وضع محمد ﷺ ، او انه صورة للنثر الجاهلى الفنى ، أو أنه مرآة لما وصلت اليه الحياة الجاهلية من ارتقاء ثقافى واجتماعى وسياسى ، كل ذلك لقى أعنف مقاومة من المسلمين ، فقد استيقظ لرده السكران والصاحى ، واجتمع على صده الطائع والعاصى !!

فلم يجد الغزو الصليبى بدا من الايعاز لرجاله بمحاربة القرآن على نحو لا يغرى بهذه المقاومة المهتاجة ، فلتبق للقرآن قداسته الاسمية ، ولتهجر تعاليمه وتشاريعه ، ولتضرب الاسوار الغلاظ بين هداه وبين أمته ، حتى لا تكون هناك صلة ما بين ثقافة الأمة وسياستها وشئونها الاجتماعية وبين هذا الكتاب الكريم ..

---

(١) ومضى الدكتور - محمد البهى - فى كتابه الجيد « الفكر الاسلامى وصلته بالاستعمار » يستكشف ويقارن ، ويضع أيدينا على الاماكن التى نقل منها الدكتور طه افكاره « الجديدة » ! حتى اكتملت فى بحثه جميع الأركان التى تتكون منها « السرقة الأدبية » . وهى فى هذا المجال ليست اقتباسا بلاغيا ، أو توليدا شعريا ، ولكنها مسخ دين ، وهدم أمة .

وما نقلناه هنا لا يغنى شيئا عن مراجعة الكتاب نفسه ، والدراسة المفصلة لما جاء فيه .

وقد انصرفت الجهود الى هذه المحاولة ، فحولت القران الى كتاب يستمع اليه فى احفال الموتى ، ولا يلتفت اليه فى احوال الأحياء ...

ومضت سنون ، والأفكار الهاجمة تقتحم كل حصن ، وتبتذل كل قداسة ، حتى اتسعت الشقة بين الواقع والواجب ...

ورأينا - ونحن محزونون - كيف نتناول شئوننا الدينية والثقافية والأدبية بكل استهانة ...

وكيف أن التيار الطارىء الغريب يريد ان يغير كل شىء فى حياتنا الفكرية والعاطفية ، وان يفصلنا فصلا عن ماضينا الطويل العريق ، وان يجعل بيننا وبين الاسلام بعد المشرقين ...

***

وقد كتبنا (١) عن مظاهر الصراع بين التيارين اللذين يتنازعان البقاء والسيادة ، وأبنا - من الناحية الاسلامية العامة - خطورة ترك التيار الأجنبى يعربد كيف يشاء ويطمس الحقائق الدينية والتاريخية خدمة للاستعمار الصليبى .

ويسرنا ان نجد رجلا كبيرا من قادة الأدب والثقافة فى العصر الحديث ، يؤازر القافلة المؤمنة ويهاجم بقلمه الواعى ، هذه الحركات المجنونة فى عالم البغال ! فلنثبت هنا راى الأستاذ « عباس محمود العقاد » فى هذا الموضوع :

« فى وسعنا ان نجمع اتجاهات الأدب العربى الحديث فى اتجاهين شاملين : احدهما الاتجاه الطبيعى ، والآخر الاتجاه المصطنع ، أو الاتجاه الكاذب بالقول الصريح .

« وقد جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ : الحلال بين والحرام بين ؛ ويجوز لنا قياسا على ذلك أن نقول ان الاتجاه الطبيعى بين ، والاتجاه المصطنع أو الكاذب بين ، وان الفرق بينهما لا يخفى على ناظر يريد ان ينظر ، لأن الكائنات الطبيعية - التى تنمو امامنا تنمو طبيعيا ، وتتجه امامنا اتجاها طبيعيا - اكثر من ان تحصى ..

ان البيئة الحية تقوم على كيان مستمر لا ينقطع عن ماضيه ، ولا ينفصل عن أصوله وموروثاته ، ولا تزال كل خلية فيه حافظة لسجل الحياة فى عصوره الماضية آلافا من السنين ، يظهر منها ما يظهر ، ويستتر منها ما يستتر ..

---

(١) ظلام من الغرب .

ومن علامات البنية الحية أيضا : أن تتغير على حسب الظروف ، وأن تشتمل على قدرة متجددة ، تتمكن بها من التوفيق بينها وبين ما حولها ، ولا تستقر فيه استقرار الجماد ..

ولكنها تتغير لتبقى ، ولا تبقى لتمحو وجودها فى هذا التغيير ...

ولنضرب لذلك شجرة القطن مثلا ، ونضرب لها ما شئنا من الاشجار مثلا بالقياس عليها .

فان شجرة القطن تتغير حسب المنبت ، وعلى حسب الوسائل الزراعية ، وعلى حسب العناية بتطبيق هذه الوسائل ، ولكنها تبقى « قطنا » بعد هذا التغيير ، ولا تزول منها هذه الصفة « الأصيلة » الا اذا آذنت كلها بالزوال ...

وعلى هذا المثل يقاس الاتجاه الطبيعى فى كل بنية حية . ومنها آداب اللغات ...

فهى تتغير - كلما تغيرت - لتبقى لا لتفنى ، أو لتنعدم فيها الصفات التى يتحقق بها كيانها ..

وكل انسان يبقى فيه شىء متشابه متقارب بين طفولته وصباه وشبابه وكهولته وشيخوخته ، ولكنه اذا انفصل كل الانفصال بين عهدين فقد زال ..

والاتجاه الذى يسمى اتجاها طبيعيا فى الأدب العربى واضح من هذه الأمثلة ..

فمن الواجب « أولا » ان يحافظ على كيان اللغة العربية ، ومن الواجب مع ذلك أن تتصل الوشائج بينه وبين أصوله ، ومن الواجب على الدوام أن يقبل التجدد وأن يكون بنية حية تتغذى بغذاء التربة التى ينمو فيها ..

وهكذا اتجه الأدب العربى المطبوع فى العصر الحديث ، فان العناية فيه قد انصرفت قبل كل شىء الى تصحيح اللغة واحياء تراثها ، ومتى راجعنا كتابات الادباء خلال القرن التاسع عشر الى أوائل القرن العشرين وجدنا الكثير منها قائما على تصحيح العبارات والالفاظ والقواعد وتقديم المأثورات المهجورة أو التعريف بها على حقائقها كما كانوا يدركونها بعد النهضة الحديثة .

ولما شعر الأدباء بمحاسن الآداب الأجنبية اقبلوا على ترجمتها وتعريبها أو صبغها بالصبغة العربية ، وبالغ بعضهم فى ذلك فحاول

ان ينقلها مسجوعة ، وأن ينقل الأسماء الافرنجية الى الأسماء العربية ، ثم تدرجت هذه المحاولة تدرجا - طبيعيا ايضا - حتى اهتدت الى نهجها القويم ..

وتقدمت النهضة فاستفادت من التقدم بعض الثقة أو بعض الأنفة ، وعمدت الى الابتكار والاستقلال بالراى بعد الترجمة وبعد الاقتداء والتقليد ، فلا تترجم اذا استطاعت ان تؤلف ، ولا تلقى اعتمادها كله على الترجمة فى جميع الأحوال ..

ولما نشأت مشكلات النهضة التى لا بد منها فى كل تطور - اى تطورات البنية الحية - كانت حلولها موافقة لسنة البقاء ، ولم تكن موافقة لسنة الزوال ...

واحدى هذه المشكلات مشكلة الفصحى والعامية ، فان الحل الطبيعى لها ان تبقى الفصحى فى ميدانها الذى لا غنى عنه ، وان تبقى العامية فى ميدانها الذى يناسبها ، فلا تزول الفصحى لأنها لازمة للدوام من عصر الى عصر ، وللتعميم بين قطر وقطر ، وللموضوعات المهذبة التى تحتاج الى تعبير منتظم على قواعده المعهودة ...

أما اللهجات العامية فهى لا تدوم ، ولا تتفق فى جميع الأقطار ، ولا تصلح للتعبير عن موضوعات العلم العالية والمعرفة المهذبة ...

ولكنها تغنى غناءها فى المسائل المحلية ، والمسائل الموقوتة وتصلح لأفلام الصور المتحركة ، وما جرى مجراها من تعبيرات فنية تنقضى لحينها ، ولا تتطلب « الاستمرار » الذى لا غنى عنه فى لغات الثقافة ، ومعانى الانسانية الخالدة ...

وهى لا تتوقف على اقليم واحد ، ولا فترة واحدة ، ولا مسألة تذكر بالأمس وتنسى اليوم او غدا اذا امتد بها الأجل .

والاتجاه المطبوع فى الأدب العربى يحسب - على هذا - حساب البقاء كما تحسبه كل بنية حية لها عمر يتصل ولا ينقطع كل يوم لينبعث غدا مخالفا لما كان عليه .

عندنا الشعر اليوم يتعدد ليبحث كل قسم منه عن موضوعه دون غيره : شعر الغناء ، وشعر الوصف ، وشعر التمثيل ، وشعر الوجدان ، وسائر اقسام الشعر فى تطوره الحديث ، وموضع النقص فيه انه لايزال ينمو ليوافق كل قسم منه غرضه وموضوعه وليس النقص فيه أنه جامد او فاقد الحياة ...

وعندنا القصة الاجتماعية ، والقصة الفنية ، والقصة الطويلة ، والقصة الصغيرة ...

وعندنا النقد فى طور البحث عن المقياس المتفق عليه ، ويوشك أن يتفق على هذا المقياس ، وهو الاعتراف بالحسن الجيد فى القديم والجديد على السواء ، فليس التجديد الحق نبذا لكل قديم ، أو اخذا بكل بدعة جديدة ، وانما هو الاستقلال بالرأى بين هذا وذاك .

وعندنا الدراسات والبحوث مبتكرة مستقلة فى ميدان كان خلوا من كل عمل غير عمل الترجمة والاقتباس الى أوائل القرن العشرين .

عندنا — بالايجاز — اتجاه طبيعى ينمو نمو البنية الحية من صميم كيانها ...

اما الاتجاه المصطنع ، او الاتجاه الكاذب فموجود كذلك ، ولكنه يدل على نفسه بأيسر نظرة ، فلا يخفى على أحد انه شىء دخيل : ينقل الى الأمة من خارجها ، ويصدر عن كيان غير كيانها ، ويرمى الى حل هذا الكيان وتقويضه ، ولا يرمى الى احيائه وضمان بقائه .

لا لزوم لبقاء اللغة .

لا لزوم لبقاء العرف .

لا لزوم لاتصال الخلف بالسلف ، ولا لقيام البنية فى يومها على كيان الأمة فى نفسها .

لا لزوم لكل أولئك دفعة واحدة .

وما اللزوم اذن ؟

اللزوم للانحلال والتبديل ، وللذهاب على غير هدى فى كل اتجاه غير الاتجاه الطبيعى الذى يتحقق به البقاء .

ونعود فنقول : ان الاتجاه الطبيعى بين ، والاتجاه المصطنع أو الكاذب بين .

فالاتجاه الطبيعى من بنية الأمة يتكيف بالظروف الخارجية ليبقى لا ليزول .

والاتجاه المصطنع ، أو الكاذب من خارج هذه البنية : يهب عليها كما تهب الريح المهلكة لتقتلعها من جذورها .

ومن بشائر الخير أن « الحيوية » فى هذه البنية أقوى من أن تنحرف بها الآفات الدخيلة عن قوامها السليم » .

واذا كان الفساد في الحياة السياسية جزءا لا ينفصل عن الفساد

فى الحياة الدينية ، والنواحى الاجتماعية ، فلا بد من ملاحقة التيار الأجنبى فى ميدانه الآخر ، وكشف الغطاء عما تحته من كفران بالاسلام وعداء لتعاليمه .

وان الذى يعنينا ، ونريد ان نجهر به ، ونريد أن يستمع العامة والخاصة اليه ، ان النظام الملكى البائد قد انهزم فى معركة اشعلها الحق ضد الباطل ، واشعلها الايمان ضد الالحاد ، واشعلها الخلق الفاضل ضد الخلق الفاسد .

واشعلها الغضب لله ولعباده ولحقوقه ضد الجبارين الذين لا يعرفون لله حقا ، ولا يقيمون لعباده وزنا ...

وان الرجال الذين لا دين لهم ولا استقامة ولا شرف - وفى مقدمتهم صحافيون معروفون - كانوا مع الملك السابق ضد الشعب الثائر ، وضد رجاله المكافحين .

فلما دارت الأيام ، وتحولت الريح ، وجدنا هؤلاء بغتة ينضمون بأقلامهم الى العهد الجديد ، ويتحركون بقوة ليتصدروا صفوف الموجهين والمعلمين !!!

من هؤلاء كتاب ولدوا فى ساحة القصر « العامر » ! ولم يعرفهم الناس الا مترجمين عنه ، ومشيدين بآلائه ، بل لم يعرفهم الناس الا بلاء على الأحرار ، ونقمة على المكافحين ، ورجسا تنحل به عقد الايمان وعزائم الفضيلة ...

ومن هؤلاء رجال لهم ظاهر ثائر وباطن قذر .

ظاهرهم أنهم مع الشعب ضد الملك ، وباطنهم انهم جواسيس وعملاء للقصر الملكى ، وما ينصح به القصر الملكى من فساد واستبداد ،

ولعلنا لم ننس قصة الأمير التقدمى الذى قاد حركة العمال ، وهو يقدم الى سيده التقارير عنهم .

ولم ننس كذلك الصحافى الذى تزعم حركة الغضب للأسلحة الفاسدة وهو يغترف من الأموال السرية بكلتا يديه ..

وما كنا لنرغب فى احياء هذه الذكريات الميتة ، وما كنا لنضن بجناح كامل لفلول المنافقين السابقين ، لولا أننا رأينا هؤلاء يريدون أن يعودوا الى وظائفهم الأولى فى ظلال ولائهم المدخول للعهد الجديد !

وما وظائفهم الأولى ؟

اشاعة الفحشاء فى البلد . الترويج للالحاديين الناشئة . وضع

العوائق امام قوى الايمان والخير • تدويخ الوعى الاسلامى واصطناع اللغط حوله •

وهم يدلفون الى هذه الغايات الدنيئة تحت غطاء بارع من التصفيق للعهد القائم ، واظهار الغيرة على رجاله وعلى أهدافه • !

والله يعلم ان حرارتهم فى تأييد الثورة هى نفسها حرارتهم فى تأييد النظام البائد ، وهى نفسها حرارتهم فى تأييد اى نظام يملك السلطة ويبذل المال •

يا للعجب • هذا رجل كان يجرى حتى يتصبب العرق من جبينه ليتعرف بخادم فى مطابخ القصر الملكى ! أصبح الآن يزعم انه من رواد الحرية ••)

وهذا رجل آخر ما احس بوجوده قط فى استنكار الشناعات الأولى، اصبح الآن يزعم انه فيلسوف فى الاصلاح •!!

وهذا صاحب قلم طرده الملك فاروق كما يطرد الرجل كلبه ، فذهب ينبح بعيدا ينتظر اشارة رضا ليعود متمسحا بقدميه ، عاد اليوم يدمدم ويهمهم ، متحدثا عما يجب أن يكون ، وعما يجب أن يمحى من قوانين وتقاليد ، بعد ان أسهم — على زعمه — فى بناء الثورة ، ورفع لوائها !

وهذا •• وهذا •• الى آخر ما تفد به مواكب المنافقين من ادعياء المجد ، ولصوص العظمة ، الذين تصل بهم الصفاقه الى حد اقتراح الوسائل ، لبناء الأمة من جديد •

وما يمكن أن تبنى أمة الا اذا خلت منهم ، وبرئت عنهم •

لو تعقل الأرض ودت انها صفرت
منهم فلم ير فيها ناظر شبحا

وقد كنا سكوتا على هؤلاء الكتاب ، نحسب ان ما يعرف الناس من ماضيهم سوف يرفع الثقة بهم ، ويحجز القراء عن تصديقهم فى محالهم •

ولكننا للأسف فى أمة آفتها الكبرى سرعة النسيان •

لذلك لم يلبث الذين ضللوها أيام محن الرجولات والأخلاق أن عادوا سيرتهم الأولى : يقترفون مآثمهم المعتادة ، أو اشد منها نكرا •••

اليس عجيبا أن نرى الأستاذ « احسان عبد القدوس » يستميت فى بث الشكوك حول وجود الله ، وينشر المقالات المطولة لكى يمحو من الأذهان خرافة الألوهية !

والذين قرأوا مجلة « روز اليوسف » يعرفون انها تسير وفق خطة مرسومة لاسقاط الدين كله من حساب الحياة الجادة .

وان هذه المجلة تقدم اخبارا واحصاءات يفهم منها ان الجامعات العليا قد « تعقلت » وطرحت ظهريا اثقال الايمان وعرا الفضائل ...

ولا بأس من اثبات ان مندوب المجلة سأل الطالبة « فلانة » عن رأيها فى الله ؟ فأجابته : انها لا تعتقد بوجوده !

ويبحث المسئولون فى الجامعة عن هذه التلميذة النجيبة ، فلا يجدون أحدا فى سنيها جميعا يحمل هذا الاسم !

ان المجلة تستبيح الكذب ، لتنشر الجحود والفسوق ، ولتعلم الشبان والشواب كيف يسيرون فى الأرض على غير هدى !.

وفى هذا الأسبوع كتب السيد « احسان » كلمة ندد فيها بالأغنية الحماسية « الله أكبر ... » وقال : انه شعر وهو يستمع اليها كأنه فى حفل ذكر لا يشارك فيه بعواطفه .

ونهى الأمة ان تنجرف مع هذا اللون الجديد من الأغانى ..

وطبيعى ان مشاعر الحقد على اللـه - جل شـأنه - تجعل شـابا - كاحسان - يكره هـذا اللون من الأغانى المؤمنة باللـه البعيـدة عن الشهوات .

أما اغانى « رايداك والنبى رايداك » و « يالله تعالى اوام يالله » و « مال الهوى يامه » فهى اغان تتفق مع ذوق السيد احسان ، ومجلته المنحرفة .

وما يفعله السيد « احسان » يفعله كتاب آخرون ...

اقرأت المقال الرنان الذى نشرته دار أخبار اليوم تحت عنوان ضخم فخم « افتحوا بيوت الدعارة ؟ » .

ثم اقرأت كيف أخرجت الردود عليه ، وقد مسخ بعضها ، واختصر بعض آخـر ، ووضع لأحدها عنوان يثير السخرية ثم طوح به فى ذيل الكلام ؟

أقرأت فيما تنشر الدار من أخبار أن وزير كذا يكره نباح الكلاب وخطباء المساجد ؟

أقرأت النبـذ المسمومة التى تنشر بين الحين والحين للوطنى الغيور « سلامه موسى » .

لا أريد أن أتحدث هنا . كيف بنيت هذه الدار لتجعل كلمة الملك هى العليا ، وكلمة الشعب المصرى هى السفلى .

وكيف بقيت عشر سنين وهى تقوم بوظيفتها قياما تقر به عين الشيطان ، وتغتم له افئدة الاخيار .

***

● مســـتعمرات تكـره الحرية !! :

والمستعمرات التى نعنيها ليست مساحات من الأرض وقعت تحت وطأة الاحتلال الأجنبى ، ولكنها نفوس معينة استحلت الدنايا وكرهت الصعود .. صبها الغزو الثقافى فى قوالبه فخرجت من بين يديه ولها ملامح مادية وادبية جديدة من صنع المالك الاخير .

ولو انتقلت الى مالك غيره لصبها على شكل آخر فخرجت ولها ظاهر وباطن يحملان الطابع المراد ... انها نفوس فقدت خصائصها وعاشت كما رسموا لها لا تعقل من دين الله ولا من تاريخ امتها شـــيئا يذكر ...

والغزو الثقافى منذ قرن لم يضع وقته سدى .. ولا ريب أنه استكثر من هذه النفوس الاماء ، ثم مولها وسلحها وسلطها ... ثم تركها تنوب عنه فى الفتك بكل ما يكره ..

من هؤلاء أستاذ جامعى يقول عن نفسه « لا اصلى ، ولا أصوم ، ولكننى مؤمن » ! وينسب هذا الأستاذ الماجن الى الصوم والصلاة انهما سبب لفصله من الوظيفة وقطع الرزق ، تقول مجلة « صوت الجامعة » التى نشرت الحديث السفيه : لقد أراد أن يشكر الله كما نشكر كل من اسدى الينا خدمة فصلى حوالى شهر الا انه فوجىء بالفصل من وظيفته فى السابع والعشرين من رمضان ، فقـــرر على الفور الكف عن الصـلاة والامتناع عن الصيام .. وقد كان !!!

وظاهر من هذا الكلام أننا مع شخص عابث يلعب بالقيم كلها ، فلو ترك العبادة كسلا لتوارى عن المجتمع خجلا . أما وهو يتركهـــا عامدا متعمدا فهو كافر بالله لا يختلف فى ذلك أهل الايمان ...

وكلامه عن العرف لا وزن له ، فهو يقول « اذا تعارف الناس على شىء واعتادوه أصبحت له قوة الدين ومكانته » .

كذبت ، فكم من عرف خاطىء استمات المصلحون فى مقاومته

حتى ازهقوه ، وما اكثر المجتمعات التى تعارفت على الالحاد والانحلال فهل ذلك دين يكفر منكروه ؟

وقد نقلت مجلة « صوت الجامعة » فكر هذا الأستاذ الجامعى وزعمت ان لــه دليلين من الــكتاب والســـنة !! اما الــكتاب فقوله تعــالى : « **ان اللــــه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشــاء** » (١) وهذا استدلال مردود ، فان انكار الألوهية اصلا اشد من الشرك وليس دونه ، ورفض الانقياد لله كذلك ليس دون الشرك قط .

وقد كان ابليس ـ كبير العصاة ـ يعلم ان الله موجود ، كيف لا وهو يتلقى امره مباشرة ؟ ومع ذلك فقد رفض تنفيذ ما صدر اليه من امر ، قيل له : اسجد ! قال : انا اكبر من ذلك . وهذا عين ما فعــله اســتاذ الجامعة الماجن ، قيل له : صل . قال : لا .. الصلاة شؤم !! ومضى فى سخفه يصف الفتيات العفيفات الفاضلات بالشذوذ مقلدا امراة تنشر الريبة فى بلادنا ..

ولو أن هذا المرء اعلن ارتداده لكشــف عن نفسه وانحصر شره ، لكنه يريد باســم الاســلام افساد الاسلام ، وبلى نصوصــه أماتة هذه النصوص وصرف الأجيال الناشئة عن الارتباط بها ..

أما الحديث الشريف الذى يلوكه هذا الأستاذ بغباء فهو قوله عليه الصلاة والسلام « ان الله لا ينظر الى صوركم .. ولكن الى قلوبكم » ، هذه الكلمة رواها مقطوعة عما قبلها وعما بعدها ، وهى انما تفيد محاربة المرائين الذين يتظاهرون بالخير وقلوبهم هواء ، ولا تعنى ان يسير احد مكشوف السوأة بحجة أن الله لا يهتم الا بالقلوب ..

ونحن نلوم المجلة التى نشرت هذا الحديث بلا تعليق ، وكان عليها اما أن ترمى به مع القمامة ، واما أن تنشر معه ردا واعيا لأحد العقلاء ، اما اهانة الاسلام فى الجامعة بهذه الصورة فلا .

وقد يكون من هــذه الاهانة المقصودة أن تنشر المجــلة اســتنكارا لتخصيص اماكن للسيدات فى المواصلات العامة ، لأننا كما تقول الكاتبة فى القرن العشرين !!

ونسأل هل التحكك بالنساء كان حراما فى الماضى ثم ابيح الآن . ان النساء الشريفات يشعرن بالعنت والحرج البالغ لتلاصق الأجساد فى السيارات المشحونة كعلب السردين فهل يقال لهن : تعلمن التقــدمية

---

(١) النساء : ٤٨ .

الجديدة وسرن معها الى آخر الطريق !! هذا ما تريده المجلة التى نشرت مناجاة هابطة « لاتوبيس » الطلبة جاء فيها .. « لا تفكر فى تطبيق التجربة ، والا فسيهجرك الكثيرون والكثيرات ممن يخرجـــون مثنى ورباع من الجامعة ، وكفانا حواجز داخلية وخارجية .. ».

كفانا حواجز ؟! ولننطلق مع غرائزنا ، ولنحشر البنات بين الشبان ، ولنعش مع القــرن العشرين ، قرن الترحيب بصيحـــات المراهقـــين والمراهقات .. !!

هكذا نشرت « صوت الجامعة » وصية فتاة اسمها « منى ثابت » لا أعرف الى أى دين تنتمى ، لكنها أؤكد أنها لا تعرف وصايا السماء ..

ولندع المستعمرات الصغيرة الى مستعمرة كبيرة ، مستشار احيل على المعاش كتب فى الأهرام صفحة ضد الطلاق وتعدد الزوجات ..

حاولت أن اتذكر بحثا لهذا الكاتب القانونى يدافع عن الحـــدود والقصاص فى الاسلام ، فلم اجد .. أى أنه ما اهتم قط بابعاد الشريعة الاسلامية عن عالم القانون .

وها هو ذا اليوم يكتب فى قوانين الأسرة يبغى تنصيرها ، ولكن باسم الاسلام ، هذا هو العجب ، لم التمسح بالاسلام عنـــد محاولة القضاء على تعاليمه ؟

ان كل الأشخاص الذين يهاجمون قانون الأسرة الاسلامى نلحظ عليهم هذه الظاهرة السمجة ، ضرب الاسلام باسم الاسلام ..

والمستشار الذى نشر هجومه أخيرا زعم أن الآيات التى تبيح التعدد هى هى التى تمنعه لأنها جزمت باستحالة العدل بين النساء !!!

ولما كان هذا الكلام فارغا تافها فان أصحابه يعمدون الى تكراره كأنه رأى قيل !! من قاله ؟ أبو ظريفة ؟ هيان بن بيان ؟ صلاح جاهين ؟ كيف يهبط رجال قانون الى هذا الردك فى الاستدلال ؟ ولكنه الغزو الثقافى !!

***

فى عدد واحد ، تناولته وأنا خالى الذهن ، قرأت فى « أخبـــار اليوم » هذه العناوين ، متجاورة فى تنسيقها متشابهة فى دلالتهـــا ، أذكرها من غير تعليق ..

العنوان الأول : يتوضأ بأربعة عشر جنيها ، وتحته قصة مصل فقد

نقوده لأنه ذهل عن ملابسه التى خلعها قبـــل الفجـــر على شاطىء احدى الترع !

والعنوان الثانى : يصلى الفجر بستين جنيها ، وتحته قصة مصل ضاع منه هذا المبلغ فى مسجد نفق شبرا .

والعنوان الثالث : يقتل خاله بست رصاصات بعد صلاة الجمعة ، وتحته أن المصلين فوجئوا بعد انتهاء الجمعة بمشاجرة بين رجـــل وقريبه انتهت بهذه الجريمة .

وقد اعتقل المصلون الجانى ، وليس فى سياق الحديث ما يشير قط الى أنه كان خارجا من المسجد ، لا هو ولا قريبه .

وظاهر أن الوضوء والصلاة والمساجد بعيدة الصلة عن الحـادثة الأولى والأخيرة . وأن ربط هذه المآسى بأطهر العبارات الاسلامية أمر مفتعل .

ولن نتساءل لحساب من هذا ؟ فلعل اخراج الأخبار على هـــذا النحو جاء **من تلقاء نفسه !**

كان هذا فى ١٢ مايو سنة ١٩٥٧ ، وفى ١٧ مايو سنة ١٩٥٧ نشر السيد محمـــد التابعى ـ وغيرته على الاســـلام معروفة ـ كلاما عن المساجد وعن خطبة الجمعة جاء فيه : ان أحد الأئمة كان يتلو الخطبة من كتاب أصفر الورق يعود تاريخه الى سنة ١٣٠٥ هـ .

وأنه بعد أن تلا الخطبة ـ فى عصر الجمهورية الحالى ـ ختمها بالدعاء لخاقان البرين والبحرين امير المؤمنين ، وخليفة المســـلمين السلطان عبد الحميد خان ... !!

وقد ذكرنى كلام التابعى بكلام زميل له فى آخر ساعة قال : ان الامام دعا فى خطبة الجمعة لأبى جعفر المنصور !! لأن ديوان الخطب الذى يقرأ منه على الناس الف فى عهد مؤسس دولة بنى العباس !!

وظاهر أن القصة من صنع هذا الصحافى الماجن لأن تأليف دواوين الخطب لم يعرف فى عهد أبى جعفر ولا بعده ببضعة قرون ... !!!

وظاهر أن مخترع القصـة فى آخر سـاعة ، رأى أن يقارب فى التاريخ وأن يقفز الف سنة دفعة واحدة ، ليجعـــل الفرية أدنى الى الواقع ، فجعل الدعاء فى هذه الجمعة للســـلطان عبد الحميـــد . لا لسلطان الشاى ، ولا لســـلطان حضرموت ، ولا لســـلطان « الكيف » عند الأستاذ التابعى ... !!!

قال الراوى : وقد سمع الاستاذ التابعى بأذنيه ـ وهو يمر بسيارته

الفارهة امام احد المساجد خطيبا آخر ، لا يقل جهلا عن صاحبه الأول، سمعه وهو يرمى بالكفر لابسى القبعات !! وانه لأمر اد ان تقرع اذنى الصحافى الكبير هذه التهمة . وهو يمرق بجوار مسجد احتشد المؤمنون فيه لأداء حق الله .

وودت لو ان الاستاذ التابعى حدثته نفسه - وهى امارة بالخير - أن يتطهر ، ثم يدخل المسجد ليصلى الجمعة مع المسلمين ، وليستمع الى هراء هذا الخطيب حتى يصدر الحكم عليه بعد وعى وبعد احاطة بما يقول ... فان هذا الخطيب يعلم كما يعلم الاستاذ التابعى وكما يعلم عامة الناس « أن ضباط الجيش وجنوده يلبسون القبعات ، وان الوفا من الفلاحين والعمال يلبسون القبعات » وأن هذا اللباس لا يخدش ايمانهم ، بل انهم بهذا اللباس يدخلون المساجد ، ويستمعون الى خطب الجمعة ، نعم يستمعون اليها وهم مستعدون للصلاة لا مرورا فى الشوارع كما يفعل الاستاذ التابعى ...

ولو سمع سيادته الخطبة كاملة ، لعلم أن مجرد لبس القبعة هو غطاء للرأس لا شىء فيه ولا حرج منه .

اما انحلال الشخصية العربية ، وذوبان الخصائص الاسلامية ، وانسلاخ الرجل من تاريخه وعقيدته وتحقيره لشريعته وشريعة أمته ، واندماجه فى حملة الغزو الثقافى الأجنبى ، وارتداؤه القبعة لأن راسه اصبح كرؤوسهم ، وقلبه أصبح كقلوبهم ، فهذا هو الكفر !!

هذا هو الكفر ، وان بقى صاحبه طول حياته حاسر الرأس ولم يرتد القبعة يوما ، فان كفره لم يجىء من قطعة قماش فوق رأسه ، وانما جاء من قطع الظلام فوق نفسه ... !!!

وبقى أن نتساءل - وذاك حقنا - لحساب من ؟ تخصص هذه الادعاءات ، وتنسق فى عناية ، ثم ترمى بها المعابد الاسلامية وحدها ...

ان توجيه الافتراءات بهذه الأناة ، وبهذه الدقة ، وبهذا الاصرار ليس فى الحقيقة الا اشباعا لضغائن معينة ، وتحقيقا لأهداف رسمها الاستعمار بخبث !!

والاستاذ التابعى يريد ليظهر بأنه شجاع فى مهاجمة اوضاع شتى ونحن نعرف معرفة اليقين انه لا يجرؤ على الكلام بهذا الأسلوب الا فى ميادين تمهد له ، ويأمن عقباها ، وانه لا يستطيع ابدا أن يقول لغير علماء المساجد هذا الكلام الذى ختم به مقالته ضدهم وجاء فيه :

« هل نترك خطباء المساجد ينفثون سموم خيالهم المريض وتفكيرهم السقيم ورؤوسهم المظلمة ، وينقلون خطبهم من اوراق صفراء انقضى زمنها ، وتغيرت ظروفها فيكون لكلامهم اثر هدام » ... الخ .

ونحن بدورنا نتساءل : هل نترك نفرا من ذوى الاقلام الذين لم يصلوا لله ركعة ، ولم يتصلوا بدينه فى قراءة واعية ولا دراسة ذكية ، هل نتركهم يمرون بسياراتهم على احد المساجد ليلتقطوا كلمة عابرة ثم يعودون بعد ذلك الى الصحف لينظموا حملة شاملة ضد رسالة المساجد ، وخلق المصلين ، ومقدرة الخطباء ...

لندع هذا الحديث ، ولنذكر ان زعزعة الايمان فى القلوب ، وزلزلة الفضائل فى المجتمع ، عمل تدعو له ، وتنفق عليه دول الاستعمار ، وانه كان المتوقع ان يؤتى هذا الجهد الاستعمارى نتيجته فى الهجوم الأخير على غزة وسيناء وبور سعيد ، لولا أن بدا بوضوح ان الأمة بخير ، وان محاولات الكتاب المارقين لم تغن شيئا فى النيل منه ...

ترانا وقد انسحب الهاجمون وكسر الله شوكتهم سندع الحال مرة اخرى لهؤلاء الصحافيين يفسدون العقول والأذواق ، ويهدمون التقاليد والأخلاق ؟ .

ان ذلك لا يجوز أبدا !

اننا حاربنا الاستعمار فلنحارب دسائسه !

وحاربنا الملك السابق وعهده ، فلنستأصل الجراثيم التى عاشت معه ، وبقيت بعد .. !

اننا على اية حال لن نسمح لقوى الشر أن تعربد فى أمان ودعة ، وسيكون مصيرها الحتم مصير سادة الأمس ، « **الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . ان ربك لبالمرصاد** » (١) .

اننا وقد اسلمنا وجوهنا لله وحده . فلن نستكين الا له ، ولن نسمح أن يعود — فى اية صورة — عهدا طالما ديست فيه الأعراض ، ونكرت الحقوق ، وهانت الرجولات ، ومسخت العقائد ، وساد قانون الهوى الأعمى ...

لقد حاربنا الضلال القديم بأجسامنا وارواحنا وافكارنا ومشاعرنا ، وسنظل نحاربه . فالاسلام دين خاصته الأولى التمرد على الباطل .

---

(١) الفجر : ١١ — ١٤ .

والخاصة الأولى لامته انها حرب على المنكر ، وسلم للمعروف . والغاية العظمى للجهاد الذى شرعه القرآن رسمتها هذه الآيات :

« ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » (١)

فكيف يتصور فينا نحن المسلمين المخلصين ان نترك اذيال الليل المدبر ، ليل الجحود والطغيان ؟ وأن ندعه يعكر مطالع النهار المقبل ، مطالع العدالة والتحرر ؟

الا فليثق هؤلاء المجرمون ان القلوب التى ابغضناهم بها لا تزال فى صـــدورنا .

وليعلم المؤملون فى خرافات المــاضى اننا لن نسمح لا لهم ولا لها بعـــودة .

***

ان الاسلام حرية وعدالة ، وفضيلة وعفاف .

وسنعادى من يجور على هذا الفهم ـ دفاعا عن الحقيقة ـ كمـــا نعادى من يحارب هذا الاسلام حماية لديننا وانفسنا .

ثم ان الاسلام اقوى من أن يعترض طريقه أحد .

وهو كذلك اشرف من أن يؤخذ عن افواه التهافين ..

فاذا حلا لنفر من الطائشين أن يتحدثوا عن رجعة لمــا فات ، وأن يتناولوا الدين بهـذه الأســاليب فهيهات ان ينجح لهم غرض أو يفلـح لهم قصـــد ..

ثم ان المداهنة فى الحــق حرام ، ونحن ما رضينا ، ولن نرضى لانفسنا أن نداهن صاحب حكم ، أو صاحب غنم ، فالمداهنة هى جرثومة الشر التى مكنت للفساد للقديم أن يمتد دون نكير . وأعانت الدعار أن يطغوا فى البلاد غير مستحيين من توبيخ ، أو متخوفين من عقوبة . عن أنس « قيل : يا رسول الله .. متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ قال عليه الصلاة والسلام : اذا ظهرت المداهنــة فى خياركم ، والفاحشة فى شراركم ، وتحول الملك الى صغاركم ، والفقه فى أراذلكم ».

وتحول الفقه فى الأراذل ليس معناه أن تكون علوم الدين وقفـا على الفقراء كما هو واقع الآن ؛ بل المعنى أن يسقط حظ الدين ، فتمسى الأوعية التى تحمله شائنة له ، معينة عليه ! تحيا به ولا تحيا له ...

---

(١) الأنفال : ٧ ، ٨ .

وكم شقيت اديان واجيال من الفقهاء الأراذل ، اولئك الذين تركوا المنكر يستشرى ، وحسبوا نصحهم المطلوب ابتغاء عرض من الدنيا ٠

ان المجتمع المصرى يدخل الآن فى مرحلة هائلة من مراحل الغزو الثقافى للاسلام واتباعه ، مرحلة تكبت حرية العقل والضمير ، وتطلق حرية العقل والضمير ، وتطلق حرية الغريزة والشهوة ، مرحلة توفر حرية الخطأ ، وتقيد حرية التصويب ٠ وترك الغزو الثقافى ماضيا فى خطته على هذا النحو الشائن لن يقود الأمة الا الى التفكك والبوار ٠

***

منذ سنين طوال والاستعمار الغشـوم ينظم غزوا ثقافيا واسـع النطاق ، يريد من ورائه تسميم الوعى العربى ، وتلويث المنابع التى تمد أفكارنا ومشاعرنا بالحياة ٠

وهو يرمى بهذا الغزو المـاكر الى خلق اجيال تعنو له ، وتسـير خلفه ، وتعمل بوحيه فى كل مجال ٠

والغزو الثقافى أشد خطورة من الفتح العسكرى ، لأن سقوط مدينة ما فى يد العدو أمر مستدرك العاقبة ٠٠٠

وما دامت النفوس سـليمة ، والمشاعر نقية ، فان هـذه المدينـة ستسترجع حتما ٠

اما اذا فسدت الأمم ، وتبلورت أفكارها وعواطفها فى الاطار الذى صنعه الاستعمار لها ، فهى لا تنزل عن مدينة لها فحسب ، بل تسـلم عواصمها وقراها ومقاليد امورها جميعا لخصمها عن رضا لا عن كره ، وعن اعجاب لا عن قهر ٠

وقد رأينا فى العهد المـاضى من يقول عن صلة مصر بانجلترا : انها عقد زواج كاثوليكى (لا ينحل ابدا) ! وليس هناك انكى من ذلك فى ذوبان الشخصية ، وزوال الملامح الخاصة لحضارتنا ٠

هذه الحضارة المتميزة فى التاريخ ، العريقة فى القدم ٠٠٠

وماذا يطلب الاستعمار اكثر من ذلك ؟ انه لن يصل بالحديد والنار الى مثل هذه النتيجة التى وصل اليها بغزوه الثقافى ، واستيلائه على العقول والأفئدة ، يصبها فى القوالب التى ترضيه ؛ ويخلق بها اجيالا تعمل لحسابه وحده ٠

بل انها تعمل لحسابه وهى تظن نفسها تعمل لوطنها وتنتصر لقضاياه .

ذلك أن الأجيال التى تربت فى محاضن الاستعمار ، اصبح لها لون من المنطق المشوه ، قد تجور به على قوميتها وهى لا تدرى .

وقد تتنكر به لتاريخها وهى لا تحس ...

ان الغنى لا يحترف التسول ، والذى ينظر الى خزائنه فيجدها مفعمة لا يتكفف الناس .

ونحن ابناء حضارة قد تمهد فيها من القواعد ، واستقر لها من الدعائم ، ما يجعلنا نبنى ونعلى البناء غير ناقلين ولا مقلدين .

ان حضارتنا أسبق فى التاريخ ، وانبل فى المعدن ، واقدر على البقاء من مذاهب الغرب التى قام عليها اخيرا ، وشقى بها كثيرا.

وعندما اغار الانجليز والفرنسيون واليهود على بلادنا فى الآونة الأخيرة ، واستطاعوا بغدرهم وتآمرهم أن يدخلوا بور سعيد ، كانت هذه المحنة امتحانا حسنا لجوهر النفس المصرية وكشفا باهرا عن روعة التقاليد التى تحيا بها ، وشاهدا عدلا على سناء الحضاة السمحة التى مازالت متشبثة بترتبنا ، متغلغلة فى فطرتنا .

اجل . فقد قام الجمهور الساذج من تلقاء نفسه بما يجب عليه : دافع بمرارة وحرارة عن ارضه .

حتى ان الفلاحة بغطاء آنيتها النحاسية كانت تضرب الجندى الهابط بالمظلات ، وتقضى عليه .

لما انسحب كثير من سكان المدينة الى القرى المجاورة ، استقبلهم الأهلون وبيوتهم مفتوحة ، وصدورهم مشروحة ، وتألفت لجان أسمت نفسها لجان الأنصار ، لاكرام الوافدين ، واحسان مواساتهم ..

ان طبائعنا النبيلة لا تزال براقة السنا فى ظلمات الحوداث ، برغم ما كافحت من بلاء الاستعمار سنين عددا ...

وشعبنا الباسل الكريم عندما قام بواجبه على هذا النحو لم يكن يجرى فى باله البتة خاطر عن تعاليم شيوعية او تعاليم أمريكية ، بل لعله لم يسمع بهذا اللهو الذى يهرف به أشباه المتعلمين ، ممن مسختهم الثقافات الغربية ، أو خدعتهم القراءات السطحية ...

ان شعبنا كان يعمل بدافع من فطرته المؤمنة ، وقوميته النقية ؛ ولم يعمل بأى دافع آخر .

اننا سنبقى ما حيينا اوفياء لموراثنا المقدسة ، وسنذود الغـــزو الثقافى عن مصادر التربية والتوجيه فى بلادنا .

ولن نسمح لجبهة من الجبهات ان تجرنا الى قافلتها ، او تسيرنا فى وجهتها ، فليست مهمتنا ان نحيا على اى لون ، كلا .

***

ونحن نعرف ان الفساد الداخلى - ايام العهد البائد - قد خلف لنا مشكلات كثيرة ، سببها الاقطاع والاحتكار ، وعبث الملوك الدخلاء على مصر ، الغرباء على شعبها .

اننا سنتخلص من هذه المشكلات كلها ، ونبنى وطننا الجديد على اسس من العدالة ورعاية المصلحة ، وانطلاقنا الى مثلنا العليا ســوف يتخذ منهجه العتيد طبقا لتعاليمنا الدينية ، وتراثنا الثقافى فحسب .

فلن نسمح لدعاة التحلل والميوعة ، ولا لأذناب الغرب او الشرق ان يشوهوا نهضتنا او يعوجوا بسيرها .

فلندرك جيدا مواقع اقدامنا ومرامى ابصارنا حتى نشـيد على قواعدنا وحدها ، وحتى نقطع الطريق على الأفراد الذين افسد افكارهم وضمائرهم الغزو الثقافى الوافد من (اوروبا) شرقها او غربها .

***

الا فلنقف ايقاظا امام كل هجوم على الاسلام الحنيف ؛ فان دعائم المقاومة الناجحة تلتقى كلها فى اخذنا بكتابه ، واتباعنا لرسوله .

أجل ، فحاضرنا فى هذه الدار ، ومستقبلنا يوم المعاد ، كلاهما لا يضمنه الا هذا الايمان الوثيق .

***

للافلاك الدائرة قوانين ثابتة تتصل بسرعتها ووجهتها ٠
والمعروف عنها ان صغراها تدور حول كبراها ، كما يدور القمر حول الأرض وكما تدور الأرض حول الشمس ٠
وهذه المجموعات الفلكية تلتزم اوضاعها ، فلا تتمرد عليها ولا تنحرف عنها ٠
القمر لا يفكر فى النمو والتضخم حتى يكره أمه الأرض أن تدور حوله بدل ان يدور حولها ٠
وكذلك الأرض بالنسبة للشمس ٠
وكذلك المجموعة الشمسية بالنسبة الى زميلاتها الســابحة فى الملكوت الرحب وفق نظام مقدور لا تند عنه حتى ينفخ فى الصور ٠٠٠

* * *

لكن المجتمع الانسانى لا يعرف هذه الأوضاع الثابتة ٠
فكم من أمة كانت بالأمس ذيلا أصبحت اليوم راسا ٠
وكم من امة ظلت فى مكان الصدارة قرونا فاذا هى اليوم تسير وئيدا فى مؤخرة الركب ٠ وصدق الله العظيم اذ يقول : « **وتلك الايام نداولها بين الناس** » (١) ٠
والأمم تعلو وتهبط وفق سنن جديرة بالدراسة والاعتبار ٠
واذا كانت هناك متاجر تربح واخرى تفلس ، وحقـول تزهــر واخرى تيبس فان ذلك لا يقع خبط عشواء ، كلا ، انه نتيجة حتــم لمقدمات تجمعت ٠
وقد لفت الله نظر العرب الى المدنيات التى بادت والحضـارات التى خمدت حتى يأخذوا من ذلك درسا لا ينسى ، قال الله تعالى : « **او لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا اشد منهم قوة واثاروا الأرض وعمروها اكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ٠ ثم كان عاقبة الذين اســاءوا الســوآى آن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون** »(٢) ٠

***

---

(١) آل عمران : ١٤٠ ٠ (٢) الروم : ٩ ، ١٠ ٠

ونظرة عجلى الى القوى الكبرى البارزة اليوم فى العالم تـدل على ان حركة المد والجذر فى المجتمع الانسانى تغدو وتروح بسرعة غريبـة ٠

فالولايات المتحدة مثلا ، امة بلا تاريخ ، كانت منذ قرنين مستعمرة لانجلترا ، وكانت منذ عدة قرون ارضا مجهولة للأسرة الانسـانية المتحضرة ٠

وروسيا قبل نصف قرن فقط كانت امة من الهمل غاية ما تؤمل فى هذه الدنيا ان تنجو بجلدها من جيرانها الأقوياء !

والصين ركام من الخلائق لا يحسب العالم له حسابا ولا يحترم له ابتعادا او اقترابا ٠٠٠

واليوم نرى هذه القوى المحدثة تتنازع الصدارة ، وتريد ان تبسط نفوذها على اوسع رقعة من الأرض ، واكبر اعداد من الخلق ٠٠٠

وننظر نحن الى هذا التنافس ، وما يكمن وراءه من اطماع فلا يبهرنا بريقه ، ولا يستفزنا وعده ولا وعيده ، ولا نتجاوز به حده فى ماض الانسانية ولا حاضرها ٠

ذلك لأننا امة ذات طراز خاص ، مكثنا الف سنة او يزيد ننفـخ الروح فى حضارة العالم ، ونمد بالوقود مصابيح المعرفة ٠

فاذا كان القدر الذى يداول الأيام بين الناس قد جعل بعض الدول يملك من اسباب القوة ما يغريه بالتطاول فليفعل ما يحلو له ٠

ولكن محاولته ان يفرض نفسه على الآخرين هو فى نظرنا ضرب من غرور القوة ٠

نعم ، ان الدول التى تريد اليوم ان تعلن وصايتها على غيرها تظن مستقبل العالم امتدادا لحاضره ، وهذا خطأ ٠

ولو كان الأمر كذلك لبقيت هى فى مكانتها القديمة لا تساوى فى ميزان الحق شيئا ٠

ان اجناسا اخرى كثيرة من حقها ان تشق طريقها فى الحياة بعيدا عن تيارات الدول الكبرى ٠

ومن حقها ان تبتعد عن هذه الدول خصوصا فى ميدان المساومات والمؤمرات التى تضيع فيها المبادىء الشريفة والمثل الرفيعة ، وتهلك فيها قضايا الأمم المستضعفة ٠٠٠

ان عدم الانحياز ـ والحالة هذه ـ يكسر من كبرياء المغرورين ،

ويوقظ السكارى بخمر القوة من نشوتهم ، فيدركون ان فى الوجود شيئا آخرا اقوى من السلاح ، واشرف من القوة ، وهو الحق والعدل ، ومن الاعتراف بالواقع ان نقول : ان الحضارة الأوروبية بشقيها الشـيوعى والراسمالى قد نفذت الى اغلب القـارات ، ومدت تفكيرها المذهبى والاقتصادى والسياسى الى ارجاء فيحاء فى العالم الكبير .

هناك اكثر من الف مليون بشر بين شرق اوروبا وشرق آسـيا يعتنقون الشيوعية .

وهناك مثل هذا العدد او اكثر بين غرب اوروبا وأمريكا الشمالية والجنوبية يعتنقون الراسمالية .

فاذا تجاوزنا الفكر الاقتصادى الى الناحية الدينية ، فهنـاك الصراع الخفى والجلى بين الايمان المطلق والالحاد المطلق .

ثم هناك بالتحديد رغبة الكنيسة فى فرض سلطانها القديم عـلى الناس ، ايا كانت عقائدهم .

ولئن كان ثلثا سكان العالم قد تقسمته الأحلاف العسكرية والكتل الشرقية والغربية ، ان الثلث الآخر آثر البعد عن الفريقين ورفض أن يبيع ضميره لكلتا الجبهتين .

واحتفظ لنفسه بحرية ابداء الرأى فيما يقع بين الدول من خلاف ، وما يعرض على الصعيد العام من قضايا ...

ولعدم الانحياز بواعث نجملهـا بالنسـبة الى بعض الدول ، ونفصلها بالنسبة الى موقف الأمة العربية والعالم الاسلامى .

لقد لاحظنا ان بعض الشيوعيين انضم الى معسكر عدم الانحيـاز لانه يأنف من جعل ولائه تابعا لاحدى الدول الكبرى . كما لاحظنا أن بعض البوذيين الراسـماليين يأبى - مع حاجته الملحـة لأمريكا او انجلترا - أن يدور فى فلكهم ، ويسارع فى هواهم .

وعدم الانحياز هنا مع تقديرنا له ورغبتنا فى اتساع دائرته ، يقوم على ملابسات خاصة او مصالح ذاتية .

أما عدم الانحياز بالنسبة الينا نحن العرب المسلمين ، فله دوافع نفسية وتاريخية وحضارية واجتماعية وايمانية لا حصر لها .

اننا نأنف من التبعية لأى جبهة أجنبية ، كما يأنف الفيلسوف من اتباع العامى ! ولو كان هذا الفليسوف قد جارت عليه الليالى وكان هذا العامى يخب فى الحرير ويطاول الجبال .

ان العرب ، منذ اصطفاهم الله لحمل رسالة الاسلام ، اصبحوا امة تقود ولا تقاد ، وتدفع ولا تندفع ، وتؤم ولا تقتدى ، وتصدع بأمر الله ولا تجرى وراء اهواء الآخرين فى شرق الأرض او غربها .

ان تقديرنا لرسالتنا ولأنفسنا يجعلنا اكبر من ان يعدنا اى معسكر فى الدنيا ذنبا له ، أو تابعا يعيش فى كنفه .

ومن ثم فنحن لا ننحاز لأحد ، ان انحيازنا هو لمبادىء الشرف وأصول العدالة .

وخطتنا نابعة من تبعيتنا لله وحده ، ومن وفائنا للوظيفة الكبرى التى تخيرتنا السماء لها ...

اننا نحترم الحق ونعيش له .

وقد يخالفنا الوف النـاس فى عقائدنا وشرائعنا ، بيد ان ذلك الخلاف لا يهدر فى نظرنا قيمة الانسـان ولا فضائل الحرية والانصاف والمســاواة .

فاذا راينا من يتربص بنا الدوائر ، أو يريد بطرق الختل او القتل فتنتنا عن مقدساتنا لم نلن له ولم ننحرف معه بل اشعرناه فى صرامة ان من حق الاسـلام علينـا أن نستمسك به ، وان نحرص عليـه ، وان نوالى من يواليه ، وان نعادى من يعاديه ...

ومن حقه أن نخلص بصبغته السماوية فلا نسمح للون أرضى بالغلبة عليها ، وان نلزم صراطه المستقيم فلا ننحرف عنه ذات اليمين ولا ذات الشــمال ...

* * *

وفى العالم الآن قوى تتطاحن لامتلاك أمره ، وتتنافس فى أخذ زمامه والانفراد بتسييره ... وهى قوى شاءت الأقدار ان تحتك بنا ، ونحتك بها ، وان تتشابك علائقنا بها تشابكا له فى ماضينا وحاضرنا أعمق الآثار ...

والمسلمون لا يمكنهم تجاهل الصراع الناشب بين هذه القوى ، فقد مسهم لفحه ، بل كثيرا ما دارت فى بلادهم ــ او عليها ــ رحاه ...

ثم ان رسالتهم السماوية الجليلة كانت هدفا مقصودا عن قرب أو بعد فى هذا النزاع . وهى لا شك قد تأثرت بأطواره المـاضية . وسوف تتأثر بنتائجه المستقبلة ...

اما نوع هذا التاثر فسيرجع الى الطريقة التى نسوس بها نحــن شئوننا ، ونخدم بها رسالتنا ونتعرف بها العدو من الصديق . بل ان ذلك سيرجع الى مدى اخلاصـــنا لله . وانتصارنا لدينه وتجردنا من الأهواء فى ابلاغ رسالته . وتحرير عباده ...

والذى يعنينا ذكره من أحوال الجبهتين الشرقية والغربية وموقفهما النظرى من الاسلام وأهله ثم موقفهما العملى كما نطقت بذلك الأحداث التى بلوناها ، والتى لا نزال نحسها .

ان الفلسفة المــادية للجبهة الشرقية تنكر الاسلام فى ضمن ما تنكر من حقائق الأديان كلها وهى بداهة لا تكترث برســالة محمد ﷺ ، ولا بتعاليم القرآن ، كما لا تهتم بتوراة أو انجيل ، وموقفها من الألوهية والنبوات معروف ...

وموقف الشيوعية النظرى من الاسلام هو موقف الصليبية النظرى ايضـــا .

فان الجبهة الغربية تجحد رسالة محمد ﷺ ، وتكذب بدينه وتحرص على اعتبار الاسلام خرافة ينبغى التخلص منها . انها تؤمن بتثاليثها واقانيمها فحسب ...

ومعنى ذلك من الناحية النظرية ان كلتا الجبهتين لا تريد للاسلام خيرا . ولا تكن له الا عنتا .. !!!

فلنتجاوز هذه الناحية النفسية المحدودة . ولنواجه الموقف العملى لكلتا الجبهتين ضد الاسلام وأهله ... ويسوءنا ان تكون الصـــليبية الغربية عند المقارنة اشد علينا نكيرا ، واعظم بنا فتكا ...

* * *

فى كارثة الضعف العام الذى انتاب المسلمين أخيرا . وقع أقل من عشر المسلمين تحت السيطرة الروسية ، ووقع نحو تسعة أعشارهم تحت السيطرة الاستعمارية الغربية .

واذا كان السلطان الأجنبى قد توزع المسلمين على هذا النحـــو المؤسف ، فان الاسلام نفسه قد عانى صنوفا من الغمط والاســـتهانة والازدراء اضعاف ما اصاب امته وهد كيانها ..

فلنرجع البصر فى أرجاء العالم الاسلامى بعد ما وقعت كثرته الساحقة فى قبضة الصليبية الغربية . لقد قرر الاستعمار ان يطـــوى

اعلام الاسلام عن ميادين النشاط العام كلها . وتم اقصاؤه فعلا عن اصول التشريع وفروعه فى كثير من الدساتير والقوانين ...

كما ابعد الاسلام عن الحالات الاقتصادية فى اهم المعاملات وامسها بمعايش الجماهير .

ثم تشعب الغزو الثقافى فطرد الاسلام طردا من آفاق التعليم والتربية ليمكن تكوين اجيال غريبة على الاسلام بل كارهة له متمردة عليه ...

واتجه هذا الغزو الى تقاليد المجتمع عاملا فى داب على اشرابها الطابع الغربى ، وعلى تخفيف الروح الاسلامية منها ...

ومضى الاستعمار الصليبى فى سياسته المرسومة يحيك المؤمرات للمسلمين ودينهم فى المجالات الدولية . ويبذل جهوده لخذلان قضاياهم وبعثرة قواهم ، واظلام مستقبلهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ولم يستح من كشف القناع عن اطماعه واحقاده فى ماساة فلسطين . والجزائر اذ قرر فى عناد تهويد الأولى ، وتنصير الثانية . ولم تكن هذه الضربات الا تمهيدا لاجتثاث جذور الاسلام كله من العالم ، ثم تخيير امته بين الارتداد عنه أو الفناء معه ...

وما نزعم المسلمين وراء الستار الحديدى أحسن حالا من اخوانهم فى نطاق النفوذ الغربى ، انهم لا شك فى ظل سلطات لا تعترف بالدين كله ، وليس يغنيهم انهم يجدون من الغذاء والكساء ما لا يجده اخوان لهم فى ظل بلاد محررة أو مستعمرة ...

ان الاسلام الحق نظام يكفل لأتباعه من ضمانات العيش المادى مثل ما يكفل لهم من عناصر الحياة الروحية ، وان كان هذا النظام المنشود قد تقلص من العالم ، وانحسرت ظلاله من آماد طويلة ...

وهو الآن لا يعدو أن يكون أملا حلوا فى ضمائر المصلحين من العلماء والمجاهدين ..

* * *

يجب ان نتساءل : ما الذى انتهى بنا الى هذا المآل ؟ ..

نعم ، وقبل ان نساق فى بلاهة كى نحارب روسيا لحساب أمريكا او أمريكا لحساب روسيا ، يجب أن نتوقف لنجيب على هذا السؤال ..

ما الذى انتهى بنا الى هذا المآل ؟ .

ما الذى افقدنا هدينا ووعينا ، وامكن الآخرين من التسلط علينا، واضاعة رسالتنا ، واهدار كرامتنا ...

والجواب لا يحتاج الى طول بحث او تكلف فلسفة ...

اننا نحن المسئولون اولا وآخرا . فالفساد الذى استشرى فى سياسة الحكم والمال ، واستشرى قبل ذلك فى حقائق الايمان والخلق والسلوك هو سر نكبتنا ...

« الجاهلية السياسية ، والاقتصادية » التى اذوت عود الاسلام واذلت امته ، هى التى بددت عناصر المقاومة ضد الغزو الثقافى والعسكرى وجعلت جماهير المسلمين تحت تأثير الجوع والخوف تترنح وتتساقط قبيلا قبيلا ...

ولا تزال اسباب هذا الضعف قائمة فى طوائف من الحكام ، كأنما حسبت الاسلام وأهله اقطاعا لها ، فهى ما تفهمه الا على لهب عالى الضوء من شهواتها المنطلقة ، ونزواتها المحترقة ...

وصدق الله اذ يقول « **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا** » (١) ...

ثم ان هذه الانحرافات الشائنة ساندها طلاب القوت من علماء السوء او سكتوا على ما بها من منكر ، فكانت العاقبة الوخيمة ما نذوقه الآن من ضراوة الكافرين بنا فى كل مكان ، وجراءتهم علينا دون محاذرة أو توجس ... !!

والدواء الوحيد ان نعرف الاسلام الحق وان نحكمه فى امورنا كلها ، وان ننزل على ما يحل ويحرم ...

وان نخلى بين عباد الله وحقوقهم المغصوبة منهم ، فلا يستبد بهم أن يفتات عليهم أى من خلق الله مهما كان شأنه ...

* * *

والاسلام الذى نطلب العودة اليه هو كتاب الله وسنة رسوله ...

ولن تكون هذه العودة صحيحة اذا كانت ادعاء لا يسانده ايمان ، أو مزاعم لا تصحبها أعمال .

ولن تكون هذه العودة صحيحة يوم يكون الاسلام عنوانا مزورا

---

(١) مريم : ٥٩ .

لطائفة من النظم البالية والتقاليد المخرفة ، أو غطاء مجلوبا لمداراة الأهواء والدنايا التى تطفح بها نفوس السادة والكبراء ...

١ - لا بد من رد الروح الى العقائد والأخلاق الاسـلامية وازالة الركام الكثيف من الجهل والتخبط الذى ترزح تحته امتنا ورفع المستوى الثقافى المنحدر فى كل مكان ...

فانه من المستحيل اقامة اسلام صحيح وسـط جماهير استهلكتها الخرافة والفوضى ...

٢ - ولابد من رد الروح الى النظم السياسية الاسلامية وجعـل الأوضاع الاقتصادية متفقة مع مناهج الاسلام واهدافه ..

فمن العار فى عصر نضجت فيه الحريات الانسانية وتقررت المفاهيم المحددة لحقوق الانسان ، ان تظل الامة الاسلامية وحدها - دون سائر الأمم - صريعة افراد يوصفون بأنهم فوق القانون ، او صريعة احوال تختم بالبلى والانحطاط على الشعوب والجماعات التى تسودها ...

* * *

ولنكن صرحاء فى وصف عللنا ...

ان الشعب الذى يزعم انه مسلم ، ثم تحدث بين طبقاته فجـوات هائلة ، فيخيم الجوع فى ناحية منه والترف فى ناحية اخرى ، هذا الشعب يجر الشيوعية اليه جرا ، وليس له من الاسـلام نصيب يقيه السوء مهما زعـم ... !!

والشعب الذى يسوده الاستبداد ويشتاق أفراده الى الكرامة والحرية لأنهم ينطقون بحذر ويتحركون بقدر ... هذا الشعب يجر الديمقراطية الغربية اليه جرا ، ولن يكون له عاصم من اسلام مهما زعـم بفمه أنه مسـلم .. !!

ذلك ان الاسلام نصوص محكمة وقواعد منظمة وحياة كاملة تنفى عن الانسانية الهوان والحرمان .

وانه لمن السخف الذى لا يشابهه سخف ان نسترجع من ماضى الانسانية بعض التقاليد القبلية والأنظمة البدائية ، ثم نصف هـذا الخليط بأنه اسلام ...

اسلام يحارب - كما ندعى - الشيوعية والاستعمار .. ؟؟!!

ان كان هذا اسلاما فما هى الجاهلية .. ؟؟ وما معنى أن نحارب الاستعمار والشيوعية لنقع فى مثلهما أو شر منهما ؟!

اما اسلام صحيح أو .. لا اسلام ...

وللاسلام الصحيح توجيهات فى الأفق السـياسى نلمع اليها فى ايجاز مكتفين هنا بكلمات جامعة للأستاذ حسن البنا تلقى على الموضوع كله أشعة كاشفة (١) ..

***

● **دعائم الحكم الاسـلامى :**

قال : والحكومة فى الاسلام تقوم على قواعد معروفة مقررة ، هى الهيكل الأساسى لنظام الحكم الاسلامى ... فهى تقوم على « مسئولية الحاكم » و « وحدة الأمة » و « احترام ارادتها » ولا عبرة بعد ذلك بالأسماء والأشكال ...

● **مسـئولية الحـاكم :**

فالحاكم مسئول بين يدى الله وبين الناس ، وهو أجير لهم وعامل لديهم ، ورسول الله ﷺ يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وأبو بكر - رضى الله عنه - يقول عندما ولى الأمر وصعد المنبر : « أيها الناس .. كنت احترف لعيالى فأكتسب قوتهم ، فأنا الآن أحترف لكم ، فافرضوا لى من بيت مالكم » وهو بهذا قد فسر نظرية العقد الاجتماعى أفضل وأعدل تفسير ، بل هو قد وضع أساسه فما هو الا تعاقد بين الأمة والحاكم على رعاية المصالح العامة فان أحسن فله أجره وان أساء فعليه عقـابه ...

● **وحـدة الأمـة :**

والأمة الاسلامية امة واحدة ؛ لأن الأخوة التى جمع الاسلام عليها القلوب أصل من أصول الايمان لا يتم الا بها ، ولا يتحقق الا بوجودها ، ولا يمنع ذلك حرية الرأى وبذل النصح من الصغير الى الكبير ، ومن الكبير الى الصغير ، وذلك هو المعبر عنه فى عرف الاسلام ببذل النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقـال رسـول الله ﷺ : « الدين النصيحة ، قالوا : لمن يارسول الله ؟ قال : للـه ولرسوله ولكتابه ولأئمة

---

(١) من شاء التفاصيل الخاصة بسياسة الحكم والمال فى الاسلام فليرجع الى كتبنا : الاسـلام المفترى عليه ، الاسـلام والمناهج الاشتراكية ، الاسـلام والأوضاع الاقتصادية ، الاسلام والاستبداد السياسى ، من هنا نعلم ... الخ ...

المسلمين وعامتهم » . وقال : « اذا رايت امتى تهاب ان تقول للظالم يا ظالم ، فقد تودع منها » وفى رواية « وبطن الأرض خير لهم من ظهرها » وقال : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه فقتله » ..

ولا تتصور الفرقة فى الشئون الجوهرية فى الأمة الاسلامية لأن نظام الحياة الاجتماعية الذى يضمها نظام واحد ، هو الاسلام ، معترف به من ابنائها جميعا ، والخلاف فى الفروع لا يضر ولا يوجب بغضا ولا خصومة ، ولا حزبية يدور معها الحكم كما تدور ... ولكنه يستلزم البحث والتمحيص ، والتشاور وبذل النصيحة ، فما كان من المنصوص عليه فلا اجتهاد فيه ، وما لا نص فيه فقرار ولى الأمر بجمع الأمة عليه ولا شىء بعد هذا ..

● **احترام ارادة الأمة :**

ومن حق الأمة الاسلامية أن تراقب الحاكم ادق مراقبة ، وان تشير عليه بما ترى فيه الخير - وعليه ان يشاورهم وان يحترم ارادتها ، وان يأخذ بالصالح من آرائها ، وقد امر الله الحاكمين بذلك فقال : « **وشاورهم فى الأمر** »(١) واثنى به على المؤمنين خيرا فقال : « **وأمرهم شورى بينهم** »(٢) ونصت على ذلك سنة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين المهديين من بعده : اذا جاءهم امر جمعوا اهل الراى من المسلمين واستشاروهم ونزلوا عند الصواب من آرائهم ، بل انهم ليندبونهم الى ذلك ويحثونهم عليه ، فيقول ابو بكر رضى الله عنه : « فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فسددونى - أو قومونى » ويقول عمر بن الخطاب : « من راى فى اعوجاجا فليقومه » .

و « النظام الاسلامى » فى هذا لا يعنيه الأشكال ولا الأسماء متى تحققت هذه القواعد الأساسية التى لا يكون الحكم صالحا بدونها ، ومتى طبقت تطبيقا يحفظ التوازن بينها ولا يجعل بعضها يطغى على بعض ، ولا يمكن ان يحفظ هذا التوازن بغير الوجدان الحى والشعور الحقيقى بقدسية هذه التعاليم ، وان فى المحافظة عليها وصيانتها الفوز فى الدنيا

---

(١) آل عمران : ١٥٩ . (٢) الشورى : ٣٨ .

والنجاة فى الآخرة ، وهو ما يعبرون عنه فى الاصطلاح الحديث « بالوعى القومى » أو « النضج السياسى » أو « التربية الوطنية » أو نحو هذه الألفاظ ومردها جميعا الى حقيقة واحدة هى اعتقاد صلاحية النظام والشعور بفائدة المحافظة عليه ..

ذاك من الناحية السياسية ..

اما الناحية الاقتصادية فقد أشار الأستاذ الى أن الأمة العربية قد تتضارب فيها النظم والآراء العصرية ، من رأسمالية واشتراكية وشيوعية وأن من الخير كل الخير ان تبرأ من هذه الألوان كلها ، وأن تركز حياتها الاقتصادية على قواعد الاسلام وتوجيهاته العليا ، وتستمد منه وتعتمد عليه . وبذلك تسلم من كل ما يصحب هذه الآراء من أخطاء وما يلصق بها من عيوب ، وتنحل مشاكلنا الاقتصادية من أقصر طريق.

* * *

● **قواعد النظام الاقتصادى فى الاسلام :**

ويتلخص نظام الاسلام الاقتصادى فى قواعد أهمها :

١ — اعتبار المال الصالح قوام الحياة ووجوب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثميره ..

٢ — ايجاب العمل والكسب على كل قادر ..

٣ — الكشف عن منابع الثروات الطبيعية ووجوب الاستفادة من كل ما فى الوجود من قوى ومواد ..

٤ — تحريم موارد الكسب الخبيث .

٥ — تقريب الشقة بين مختلف الطبقات تقريبا يقضى على الثراء الفاحش والفقر المدقع ..

٦ — الضمان الاجتماعى لكل مواطن وتأمين حياته ، والعمل على راحته واسعاده .

٧ — الحث على الانفاق فى وجوه الخير وافتراض التكافل بين المواطنين ووجوب التعاون على البر والتقوى .

٨ — تقرير حرمة المال ، واحترام الملكية الخاصة ما لم تتعارض مع المصلحة العامة ..

٩ — تنظيم المعاملات المالية بتشريع عادل رحيم ، والتدقيق فى شئون النقد ..

١٠ - تقرير مسئولية الدولة فى حماية هذا النظام .

والذى ينظر فى تعاليم الاسلام يجد فيه هذه القواعد مبينة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة وكتب الفقه الاسلامى بأوسع بيان .

***

ونحن نعرف أن الصراع المر بين الشيوعية والراسمالية ، قد تنهار فيه الجبهه الغربية ، وتخسر فى ارباحها الطائلة من ارض واموال وعبيد ..

وهى - اشفاقا من هذا المصير - تريد أن يتعاون المسلمون معها على محاربة الشيوعية وكسر شوكتها ..

فمن هؤلاء المسلمون الذين يلتمس الآن عونهم ؟

المسلمون الذين فتنوا عن دينهم بالقهر أو بالمكر ؟ . وفتحت بلادهم من اقطارها ليعبث فيها الالحاد السافر ؟ وتنتشر فيها شيوعية الأعراض ؟ وتتربى فيها الأجيال الجديدة وهى معرضة عن القرآن ، مستهزئة بتعاليمه جاحدة لأحكامه ؟ .

المسلمون الذين حكم على بعضهم بالتهويد ، والآخر بالتنصير ، والبقية الباقية بالضيعة والالحاد والعوج ؟ ثم وضعوا فى مصايد العبودية يتحركون داخل جدرانها فحسب لا يجدون من ورائها فكاكا ..

أهؤلاء المسلمون هم الذين يطلب الآن عونهم ، واخلاصهم فى محاربة خصوم الاستعمار الغربى .. ذى التاريخ الناصع معهم ؟؟ ..

سيقال : انهم لو تركوا الغربيين ينهزمون أمام الشيوعية فسيعم الالحاد الأحمر الأرض كلها ..

ونقول : وما الفرق بين أن يعمها الالحاد الأحمر أو يعمها الالحاد الأبيض ؟ ان الاستعمار حكم على الاسلام بالموت ، وهو الآن ينفذ حكمه فى ربوعنا ..

فليخض ما يشاء من حروب ، فنحن ما يعنينا فى انتصاره أو انهزامه الا أن ننجو بديننا وحده !!

فاذا اصابت الاستعمار الصليبى كارثة أودت به ، فهو المسئول عن مصيره ، أما نحن من قبل أو بعد فأبعد الناس عن أسباب هذا الصراع ، وأحراهم بنفض اليدين منه ..

سيقول نفر من اغنياء المسلمين وكبرائهم ان الشيوعية خطر اشد ، ولا بد من المسارعة الى دفعه ..

ونحن نعرف انها خطر اشد . ولكن على ثرواتهم وسلطانهم وجاههم ..

اما دين الله فقد ذاب فى اهوائهم قبل ان تجىء الشيوعية لاذابته .

الشيوعية خطر ..

هذه كلمة حق ..

وهى من افواه هؤلاء كلمة حق يراد بها استدامة منافعهم من السحت ومصالحهم من الحرام ..

اما القرآن والسنة فقد دارت بهما من قبل دوامة صنعها الاستعمار الغربى ، وشارك فيها عملاؤه من الساسة المرتدين ، والحكام الفاسقين ..

انصفوا الاسلام أولا من أنفسكم ، ثم ذودوا عن عبث اوروبا وامريكا به . فاذا سلم لنا بعد ذلك فنحن أحرياء بكفاح المبادىء الهدامة . وبردها الى مواطنها الأولى فى قوة وحماس ..

أما أن يجسم أمام أعيننا الخطر البعيد .. ونكلف بالتعامى عن الخطر الآخذ بخناقنا . فهذا ما يرضاه الأغبياء وحدهم ..

ان عواصف الالحاد الدينى ، والفوضى الخلقية ، والاجتماعية عرفها الشرق الاسلامى فى سياسة الغرب الصليبى قبل أن تتحرك نذرها من أى مكان آخر ، وما نحسه من فسوق وعصيان جاء من الغرب لا من الشرق ..

ونحن باذاء ذلك ، وأمام الصراع الذى يوشك أن يجتاح الدنيا لا نرى بدا من الوقوف بعيدا لنعمل فى صبر ومثابرة على علاج عللنا .. واستنقاذ تراثنا ، واحياء مثلنا ، والعيش فى كنف ديننا الحنيف ..

ان الحياد الدقيق فى هذا الصراع العالمى ضرورة يفرضها علينا حرصنا على الاسلام ، وحرصنا على مصالحنا المشروعة ..

والانضمام الى الغرب بعد ما استبان موقفه منا يجوز أن يوصف بأى شىء الا بأنه حماية للايمان أو انتصار للحرية ، اللهم الا أن تكون حرية الجبابرة فى البطش ، وايمان الوثنية بهدم التوحيد .. على انه

قد يكون من طبيعــة الحياد ان تقف ساكنا بعيدا عن هــذا وبعيدا عن ذاك ..

وهذا حياد سلبى مريب النتائج لا نوصى به .

أما الحياد الايجابى فهو يكلفك ان تقوى خصائصك الروحية وان تنمى مواردك المادية وان تقبل على خاصة نفسك اقبالا يغنيك عن هــذا وذاك ، ويقطع آمال الفريقين فى استغلالك واستتباعك .

والحياد بهذا المعنى لا يكون بالنسبة لنا الا اسلاميا محضا ..

ومن العبث تصور حياد ايجابى يذهل عن الاسلام او يستهين بربط الأمة به ودفع شئونها اليه ..

بل لن يكون هذا الا الفراغ ، والطبيعة ــ كما يقال ــ تكره الفراغ ، وكما يحاول الهواء الاندفاع الى الآنية المفرغة من اى ثغرة ، فستحاول التيارات الأجنبية الاندفاع الى كل فراغ يخلفه خلو القلوب من العقيدة وخلو المجتمع من الدين ..

لذلك قلنا : ان الحياد لابد ان يكون ايجابيا ، اى اسلاميا لحمــــا ودما ، قوامه النهوض بحضارتنا الفذة والامتداد مع تاريخنا القــــديم العظيم ..

وخير ما ننهى به هذا البحث قول الاستاذ حسن البنا :

لقد اختفت المثل العليا تمام الاختفاء ، وغابت عــن الأنظـــــار والقلوب تلك الأهداف الجميلة التى نادى بها هؤلاء الناس ساعة العسرة ، وجندوا باسمها قوى الأمم ضد الظلم والطغيان .. فالعدالة الاجتماعية ، والحريات الأربع ومبادىء ميثاق الأمم .. الخ . هذه القائمة الطـــويلة العريضة من المبادىء السامية والأهداف المغرية أصبحت فى خبر كان ، ولم تعد لهؤلاء الساسة والزعماء « فلسفة راقية » يقودون بتوجيهها العــالم ، الا فلسفة المصالح المادية والمطامع الاســتعمارية ، ومنـــاطق النفـــوذ ، والاستيلاء على المواد الخام .. وكل ذلك على صورة من الجشع والنهم لم تر الدنيا لها مثيلا ، ولا بعد الحرب العالمية الأولى .. واصبحت هذه المعانى وحدها ، هى محور التنافس بين الدول المنتصرة ، روســـيا من جانب ، وامريكا وانجلترا من جانب آخر ، وان حاولت كل منها ان تستر جشعها ومناوراتها بستار من دعوى المبادىء الاجتماعية الصالحة ، والنظم الانسانية الفاضلة ، باسم الشيوعية أو الديمقراطيــة ، وليس وراء هاتين اللفظتين الا المطامع الاستعمارية والمصالح المادية فى كل مكان ..

ونتيجة هذا الانحراف ـ الذى هو فى حقيقة أمره مسخ لانسـانية بنى الانسان ـ ليست الا « الحرب الثالثة » المسلحة بالقنـابل الذرية ، والغازات الخانقة والأسلحة المهلكة ، وما سمعنا وما لم نسمع عنه بعد من معدات الهلاك والدمار التى تمثل ما جاءت به الكتب السماوية من وصف **القارعة وهول القيـامة « يوم يكون الناس كالفـراش المبثوث • وتكون الجبال كالعهن المنفوش » (١) •**

* * *

هذه هى صورة الحال فى وطننا الخاص ، وفى وطننا العـربى والاسلامى ، وفى وطننا الانسانى العام ، واذا لم تقم فى الدنيا أمـة « الدعوة الجديدة » تحمل رسالة الحق والسلام ، فعلى الدنيا العفاء ، وعلى الانسانية السلام ••

وان من واجبنا وفى يدنا شعلة النور وقارورة الدواء ، ان نتقدم لنصلح انفسنا وندعو غيرنا ، فان نجحنا فذاك ، والا فحسبنا ان نكون قد بلغنا الرسالة ، وادينا الأمانة ، واردنا الخير للناس ـ ولا يصـح أبدا ان نحتقر انفسنا ، فحسب الذين يحملون الرسـالات ، ويقومون بالدعوات من عوامل النجاح ان يكونوا بها مؤمنين ، وفى سـبيلها مجاهدين ، وان يكون الزمن ينتظرها ، والعالم يترقبها ••

فهل من مجيب !! ؟؟

* * *

---

(١) القارعة : ٤ ، ٥ •

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

كتب للمؤلف

١ ـ الاسلام والأوضاع الاقتصادية
٢ ـ الاسلام والمناهج الاشتراكية
٣ ـ الاسلام والاستبداد السياسى
٤ ـ الاسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والراسماليين
٥ ـ من هنا نعلم
٦ ـ تأملات فى الدين والحياة
٧ ـ عقيدة المسلم
٨ ـ خلق المسلم
٩ ـ التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام .
١٠ ـ فقه السيرة
١١ ـ فى موكب الدعوة
١٢ ـ ظلام من الغرب
١٣ ـ جدد حياتك
١٤ ـ ليس من الاسلام
١٥ ـ من معالم الحق
١٦ ـ كيف نفهم الاسلام ؟
١٧ ـ الاستعمار أحقاد واطماع
١٨ ـ نظرات فى القرآن
١٩ ـ مع الله .. دراسات فى الدعوة والدعاة
٢٠ ـ معركة المصحف فى العالم الاسلامى
٢١ ـ كفاح دين
٢٢ ـ الاسلام والطاقات المعطلة
٢٣ ـ حقوق الانسان بين تعاليم الاسلام واعلان الأمم المتحدة
٢٤ ـ هذا ديننا
٢٥ ـ حقيقة القومية العربية واسطورة البعث العربى
٢٦ ـ الجانب العاطفى من الاسلام
٢٧ ـ دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين
٢٨ ـ ركائز الايمان بين العقل والقلب
٢٩ ـ حصاد الغرور
٣٠ ـ الاسلام فى وجه الزحف الأحمر
٣١ ـ قذائف الحق
٣٢ ـ الدعوة الاسلامية تستقبل القرن الرابع عشر
٣٣ ـ فن الذكر والدعاء عن خاتم الأنبياء
٣٤ ـ دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين
٣٥ ـ هموم داعية

تطلب من دار الكتب الاسلامية ـ لصاحبها توفيق عفيفى عامر

١٤ شارع الجمهورية ـ بعابدين ـ تليفون ٩١٦١٠٧

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧٨٠ لسنة ١٩٨٣

هـذا الكتـاب

● يثبت بالوقائع والوثائق أن الاستعمار أحقاد دينية وأطماع اقتصادية .

ويؤكد

● ان السياسة التى رسمتها دول معروفة لاجتياح الاسلام ، وفض مجامعه ، واجتثاث جذوره من أرضه . هـذه السياسة لن تنتج الا البلاء لأصحابها ، فان الاسلام لن يموت .

وأهله الذين يبـادون تارة ، ويطردون من مدنهم وقراهم تارة أخرى ، سوف ينسلون من يغضب لهم يومـا ، ومن لا يتهم بعنف اذا ملأ يديه بالقصاص الرهيب !!!

ويحذر أولى الألباب

● أن مستقبل العالم يكتنفه الشؤم ما بقى الاستعمار ماضيا فى خطته الآثمة يخاصم الاسلام ويسترق العباد ويستغل البلاد .

● أما مؤلفه الكاتب الاسلامى الكبير الاستاذ محمد الغزالى فهو رائد اسلامى يقظ ما برح يكافح خصوم الاسلام ويفتح أعين أمته على الأخطار المحدقة بها كى تصحو وتأخذ حذرها .

● ويسر دار الكتب الاسلامية ـ لصاحبها توفيق عفيفى عامر ـ أن تتقدم بهذه الطبعة الجديدة لقرائها الكرام .. اسهاما منها فى الذود عن الاسلام .. وعلى الله قصد السبيل .